السُّبُلُ المُوصِلَةُ

لِسَعَادَةِ الأُسْرَةِ المُسْلِمَةِ

تأليف

عبد التواب محمود

مَكْتَبَةُ الصَّحَابَةِ

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف: ٢٤٤٦٠٢٣
ترخيص رقم : (٧١)

السبل الموصلة لسعادة الأسرة المسلمة

تأليف
عبد التواب محمود

مكتبة الصحابة

جميع حقوق الطبع محفوظة
لدار الصحابة

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

دار
الصحابة

مكتبة الصحابة : الإمارات - الشارقة ت: ٥٦٣٣٥٧٥ - فاكس: ٥٦٣٧٥٤٤
مكتبة التابعين: القاهرة - عين شمس ت: ٤٩٣٨١٤٤ - فاكس: ٤٩٣٤٣٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي خلق لنا من أنفسنا أزواجًا لنسكن إليها، وجعل بيننا مودة ورحمة، نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، الرحمة المهداة والنعمة المسداة والسراج المنير .

وبعد: فهذا كتاب «**السبل الموصلة لسعادة الأسرة المسلمة**» أضعه بين يدي الأسرة المسلمة؛ لعله يكون لبنة صالحة في هذا البناء الذي أولاه الإسلام جل عنايته ورعايته، ولِمَ لا؟ فالأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع، وما الأمة إلا مجموعة من الأسر؛ فإن صلح هذا البناء، وقام على أسس سليمة؛ صلح المجتمع وسعدت الأمة .

والباعث لتأليفي هذا الكتاب ما رأيته وقرأته عن حال بعض الأسر المسلمة، التي بدأ التفكك يدب فيها شيئًا فشيئًا؛ وذلك بسبب بعدها عن المنهج القويم الذي رسمه لها الإسلام .

إن تحقيق السعادة أمرٌ هين لمن يسره الله له؛ فالسير على منهج الله واتباع سنة نبيه ﷺ يوصلان حتمًا إلى السعادة والفلاح، قال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ (آل عمران: ١٢٣)، كما أن البعد عنهما يسبب التعاسة والشقاء، قال عز وجل: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ**﴾(طه: ١٢٤- ١٢٦).

فنحن تطالعنا وسائل الإعلام كل يوم بأخبار سيئة عن الدول التي لا تسير على منهج الله؛ فالفاحشة تنتشر بين أفرادها، والانتحار السبيل الوحيد؛ ليتخلصوا مما يعيشونه من فراغ روحي بالرغم مما توافر لهم من رخاء مادي، ولكن المادة لا يوجد لها منهج روحي ينظمها ويسيرها في الطريق المستقيم على المنهج الرباني الذي ارتضاه الله لخلقه؛ فهو طريق السعادة والنجاة في الدراين لمن تمسك به.

ولقد رتبت هذا الكتاب على فصول:

فأفردت **الفصل الأول** للحديث عن أسس اختيار الزوجة؛ وذلك لما له من أهمية كبيرة في بناء الأسرة المسلمة .

والفصل الثاني: عن اختيار الزوج المسلم؛ لأنه ما الفائدة من أن تكون الزوجة صالحة والزوج طالحًا؟! فإن حدث ذلك فسوف ينهدم بنيان الأسرة.

ثم أفردت **الفصل الثالث:** للحديث عن الحقوق المتبادلة بين الزوجين؛ فإن أدى كل واحد منهما حق الطرف الثاني عليه؛ فستسعد الأسرة حتمًا .

والفصل الرابع: تحدثت فيه عن ذكر الله عز وجل؛ وذلك لأن معظم بيوت المسلمين امتلأت بما يغضب الله وتركت ذكره جل شأنه؛ فكثرت المشاكل وعم البلاء وانتشر الطلاق.

ثم ذكرت في **الفصل الخامس:** نماذج للقدوة لتقتدي بها الأسرة المسلمة؛ لأننا في عصر نفتقد فيه للقدوة الصالحة .

والفصل السادس: عن قوامة الرجل وتبعات هذه القوامة .

والفصل السابع: عن كرم الزوج، وعدم بخله على زوجته وأبنائه .

والفصل الثامن: عن قيام المرأة بواجبها نحو بيتها .

والفصل التاسع: عن المودة بين الزوجين .

والفصل العاشر: عن النظافة ودورها في دوام الألفة والمحبة بين الزوجين .

والفصل الحادي عشر: عن الاحترام المتبادل بين الزوجين ودوره في استقرار الأسرة .

والفصل الثاني عشر: عن تحمل كلا الزوجين المسؤولية نحو الأهل والأبناء.

والفصل الثالث عشر: عن المشاكل الزوجية وعلاجها؛ لتسترشد بها الأسرة المسلمة في حل مشكلاتها والتغلب عليها .

والفصل الرابع عشر: عن الطلاق ماذا؟ ومتى؟ وكيف؟.

والفصل الخامس عشر: عن الاستئذان وأهمية تربية الأبناء والخدم عليه .

والفصل السادس عشر: عن تربية الأبناء

والفصل السابع عشر: عن المرونة في العلاقات الأسرية

والفصل الثامن عشر والأخير: قدمت فيه عدة نصائح لكلا الزوجين

هذا وما كان من توفيق فمن الله وحده، وأخيرًا أقول كما قال نبي الله شعيب عليه السلام :

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود:٨٨).

الدوحة: **غرة رمضان ١٤٢٥هـ**

١٥ أكتوبر ٢٠٠٤م

تمهيد

الزواج

الزوجية سنة من سنن الله سبحانه وتعالى في الخلق وقاعدة مطردة، لا يشذ عنها عالم الإنسان أو عالم الحيوان أو عالم النبات، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(الذاريات:٤٩)، وقوله جل في علاه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾(يس:٣٦).

وهي الأسلوب الذي اختاره الله للتوالد والتكاثر واستمرار الحياة، بعد أن أعد كلا الزوجين وهيأهما، بحيث يقوم كل منهما بدور إيجابي في تحقيق هذه الغاية، قال جلت قدرته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء:١). ولم يشأ الله سبحانه وتعالى أن يجعل الإنسان كغيره من العوالم؛ فيدع غرائزه تنطلق دون وعي، ويترك اتصال الرجل بالأنثى فوضى لا ضابط له؛ بل وضع النظام الملائم لسيادته. ومن شأنه أن يحفظ كرامته، فجعل اتصال الرجل بالمرأة اتصالاً كريمًا مبنيًا على رضاها وعلى إيجاب وقبول كمظهرين لهذا الرضا، وعلى إشهاد على أن كليهما أصبح للآخر.

وبهذا وضع للغريزة سبيلها المأمونة، وحمى النسل من الضياع، وصان المرأة من أن تكون كلأً مباحًا لكل راعٍ، ووضع نواة الأسرة التي تحوطها غريزة الأمومة وترعاها عاطفة الأبوة؛ فتنبت نباتًا حسنًا، وتثمر ثمارها اليانعة.

وهذا النظام هو الذي ارتضاه الله تبارك وتعالى وأبقى عليه الإسلام وهدم ما عداه.

يقول الإمام الغزالي: إن النفس ملول، وإذا روحت باللذات في بعض الأوقات قويت ونشطت، وفي الائتناس بالنساء ما يزيل الكرب ويروح القلب، وينبغي أن يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات[1] قال جل شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾(الأعراف:١٨٩).

---

(١) «إحياء علوم الدين» ج(٢) ص(٤٣، ٤٤).

فالزواج رباط مقدس يجمع بين الرجل والمرأة، له قواعده وأصوله وأحكامه التي تحقق مصالح مشتركة للزوجين، وأهم هذه المصالح بالنسبة للزوجين هي تكوين أسرة هانئة آمنة مستقرة، وقد قرر الإسلام الحقوق والواجبات المتبادلة بين الزوجين؛ ما به تحسن المعاشرة وتنمو الرابطة، وتطيب الحياة؛ ليستطيعا تربية النشء في بيئة توفر لهم أسباب النمو العقلي والجسدي، وتحقق كمالهم الإنساني .

فالطفل لابد له من النشأة بين أبوين وإلا نما مبتور العواطف شاذ السلوك، وحاجته إلى أمه وأبيه حاجة أصيلة لا يغنيه عنها شيء آخر، وعلى الأبوين يقع عبء كبير من جانب التربية الخلقية الوجدانية والدينية في مراحل الطفولة؛ لذا حضت الشريعة الإسلامية على الزواج، وقد وردت نصوص كثيرة ترغب في الزواج.

ومن صور الترغيب في الزواج أنه من سنن الأنبياء وهدي المرسلين -صلوات الله عليهم- وأنهم القادة الذين يجب علينا أن نقتدي بهداهم، قال سبحانه وتعالى: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾** (الرعد:٣٨).

وعن أبي أيوب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَرْبَعٌ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ: الْحَيَاءُ، وَالتَّعَطُّرُ، وَالسِّوَاكُ، وَالنِّكَاحُ»** رواه الترمذي .

بل إن الله سبحانه وتعالى ذكره في معرض الامتنان على خلقه، قال جلّ جلاله: **﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾** (النحل: ٧٢).

والزواج آية من آيات الله سبحانه وتعالى، قال جلت قدرته: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾** (الروم: ٢١).

ولقد تعهد الله سبحانه وتعالى بمساعدة من يريد الزواج، إذا خاف من الاضطلاع بتكاليفه هربًا من احتمال أعبائه، قال تباركت أسماؤه: **﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾** (النور: ٣٢).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ:**

المجاهدُ في سبيلِ اللّه، والمُكَاتَبُ الذي يُرِيدُ الأَدَاءَ، والنَّاكِحُ الذِي يُرِيدُ العَفَافَ» رواه الترمذي. وقال: حديث حسن.

والإسلام ينظر إلى العلاقة بين الزوجين باعتبارها النواة الأولى التي تنبثق عنها سائر العلاقات البشرية في المجتمع الإنساني، ويرى أنها الأصل الأهم بين أصول الحياة الاجتماعية التي لا يمكن للمجتمع أن يقوم قيامًا سليمًا إلا بها، فهي الخلية الحيوية الرئيسية التي إن صلحت صلح المجتمع كله، وإن فسدت فسد المجتمع كله.

ونظرًا لأهمية العلاقة الزوجية وأثرها العميق في البناء الكلي للأمة؛ فإن الإسلام قد أولاها رعاية خاصة وفريدة؛ حيث وضع لها من المناهج التنظيمية ما يضمن لها قسطًا وفيرًا من السعادة والهناءة .

وقد كشفت دراسة للجمعية النمساوية لأمراض القلب عن أن الزواج يقي الإنسان من الأمراض العضوية والنفسية، فالجهاز المناعي للإنسان الذي يعيش وحيدًا يكون أقل استجابة من الجهاز المناعي لدى المتزوجين، مما يسهم في إصابة من يعيشون وحدهم بأمراض الحساسية، ومختلف الأمراض المزمنة

وبعد المقدمة السابقة قد يطرأ سؤال على ذهن القارئ، ويقول: لماذا نتزوج؟ وللإجابة عن هذا السؤال، نقول: لأن الزواج سنة الأنبياء والمرسلين، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾(الرعد: ٣٨).

وهو سبيل المؤمنين، استجابة لأمر الله سبحانه: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(النور: ٣٢)، فهذا أمرٌ من الله عز شأنه للأولياء بإنكاح من تحت ولايتهم من الأيامى -جمع أيّم- وهم من لا أزواج لهم من رجال ونساء، وهو من باب أولى أمر لهم بإنكاح أنفسهم طلبًا للعفة والصيانة من الفاحشة.

واستجابة لأمر رسول الله ﷺ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خرجنا مع النبي ﷺ ونحن شباب لا نقدر على شيء فقال: «يا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، عَلَيْكُمْ بالبَاءَةِ؛ فإنَّه

أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وِجَاءٌ». رواه الترمذي . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

والزواج تلبية لما في النوعين: الرجل والمرأة من غريزة النكاح -الغريزة الجنسية- بطريق نظيف مثمر .

ولهذه المعاني وغيرها لا يختلف المسلمون في مشروعية الزواج، وأن الأصل فيه الوجوب لمن خاف على نفسه العنت والوقوع في الفاحشة، لاسيما مع رقة الدين وكثرة المغريات؛ إذ العبد ملزم بإعفاف نفسه وصرفها عن الحرام، وطريق ذلك: الزواج .

ولذا استحب العلماء للمتزوج أن ينوي بزواجه إصابة السنة، وصيانة دينه وعرضه؛ ولهذا نهى الله سبحانه عن العَضْلِ، وهو : منع المرأة من الزواج، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾(البقرة: ٢٣٢).

ولهذا أيضًا عظَّم الله سبحانه شأن الزواج، وسَمَّى عقده: ميثاقًا غليظًا في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾(النساء: ٢١).

وانظر إلى نضارة هذه التسمية لعقد النكاح، كيف تأخذ بمجامع القلوب، وتحيطه بالحرمة والرعاية؟ فهل يبتعد المسلمون عن اللقب الكنسي «العقد المقدس» الوافد إلى كثير من بلاد المسلمين في غمرة اتباع سَنَن الذين كفروا ؟!!

فالزواج صلة شرعية تُبْرم بعقد بين الرجل والمرأة بشروطه وأركانه المعتبرة شرعًا، ولأهميته قَدَّمه أكثر الْمُحدِّثين والفقهاء على الجهاد، ولأن الجهاد لا يكون إلا بالرجال، ولا طريق له إلا بالزواج، وهو يمثل مقامًا أعلى في إقامة الحياة واستقامتها؛ لما ينطوي عليه من المصالح العظيمة، والحكم الكثيرة، والمقاصد الشريفة، منها :

١- حفظ النسل وتوالد النوع الإنساني جيلاً بعد جيل؛ لتكوين المجتمع البشري؛ لإقامة الشريعة وإعلاء الدين، وعمارة الكون، وإصلاح الأرض، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾(النساء: ١)، وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾(الفرقان: ٥٤).

أي أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الآدمي من ماء مهين، ثم نشر منه ذرية كثيرة، وجعلهم أنسابًا وأصهارًا متفرقين ومجتمعين، والمادة كلها من ذلك الماء المهين، فسبحان الله القادر البصير .

ولذا حث النبي على تكثير الزواج، فعن أنس أن رسول الله قال: «**تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُم الأَنْبِياءَ يَوْمَ الْقِيَامَة**» رواه الإمام أحمد في مسنده .

وهذا يرشح الأصل المتقدم للفضيلة : «القرار في البيوت»؛ لأن تكثير النسل غير مقصود لذاته، ولكن المقصود -مع تكثيره- صلاحه واستقامته وتربيته وتنشئته؛ ليكون صالحًا مصلحًا في أمته وقُرَّة عين لوالديه، وذكرًا طيبًا لهما بعد وفاتهما، وهذا لا يأتي من الخراجة الولاجة، المصروفة عن وظيفتها الحياتية في البيت، وعلى والده الكسب والإنفاق لرعايته، وهذا من أسباب الفروق بين الرجل والمرأة .

٢- حفظ العرض، وصيانة الفرج، وتحصيل الإحصان، والتحلي بفضيلة العفاف عن الفواحش والآثام .

وهذا المقصد يقتضي تحريم الزنى، ووسائله من التبرج والاختلاط والنظر، ويقتضي الغيرة على المحارم من الانتهاك، وتوفير سياجات لمنع النفوذ إليها، ومن أهمها: ضرب الحجاب على النساء، فانظر كيف انتظم هذان المقصدان العمل على توفير أصول الفضيلة كما تقدم .

٣- تحقيق مقاصد الزواج الأخرى : من وجود سكن يطمئن فيه الزوج من الكدر والشقاء، والزوجة من عناء الكد والكسب: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾(الروم: ٢١) ، فانظر كيف تتم صلة ضعف النساء بقوة الرجال؛ فيتكامل الجنسان .

والزواج من أسباب الغنى ودفع الفقر والفاقة، قال الله تعالى: ﴿**وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ (النور: ٣٢).

والزواج يرفع كل واحد منهما من عيشة البطالة والفتنة إلى معاش الجد والعفة، ويتم قضاء الوطر واللذة والاستمتاع بطريقه المشروع - الزواج -.

وبالزواج يستكمل كل من الزوجين خصائصه، وبخاصة استكمال الرجل رجولته؛ لمواجهة الحياة وتحمل المسؤولية، وبالزواج تنشأ علاقة بين الزوجين مبنية على المودة والرحمة والعطف والتعاون، قال الله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾(الروم: ٢١).

وبالزواج تمتد الحياة موصولة بالأسر الأخرى من القرابات والأصهار، مما يكون له بالغ الأثر في التناصر والترابط وتبادل المنافع.

إلى آخر ما هنالك من المصالح التي تكثر بكثرة الزواج، وتقل بقلته، وتفقد بفقده، وبالوقوف على مقاصد الزواج؛ تعرف مضار الانصراف عنه من انقراض النسل، وانطفاء مصابيح الحياة، وخراب الديار، وقبض العفة والعفاف، وسوء المنقلب .

ومن أقوى العلل للإعراض عن الزواج: ضعف التربية الدينية في نفوس الناشئة، فإن تقويتها بالإيمان يكسبها العفة والتصون، فيجمع المرء جهده لإحصان نفسه: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا**﴾(الطلاق: ٢).

ومن أقوى العلل للإعراض عن الزواج: تفشي أوبئة السفور، والتبرج، والاختلاط؛ لأن العفيف يخاف من زوجة تستخف بالعفاف والصيانة، والفاجر يجد سبيلاً محرمًا لقضاء وطره، متقلبًا في بيوت الدعارة .

نعوذ بالله من سوء المنقلب .

فواجب لمكافحة الإعراض عن الزواج: مكافحة السفور والتبرج والاختلاط؛ وبهذا يُعلم انتظام الزواج لأصول الفضيلة المتقدمة .

الفصل الأول

أسس اختيار الزوجة

لقد جعل الإسلام لاختيار الزوجة قواعد محكمة ومبادئ سليمة، وطلب من المسلمين مراعاتها من أجل إنشاء الأسرة المسلمة الحقة، ولو أن المسلمين الآن طبقوا هذه الأحكام وراعوا هذه المبادئ والقواعد؛ إذن لعاشوا في هدوء واطمئنان وسعادة وعزة ومنعة وقوة .

والأساس الأول الذي يهمنا في حديثنا عن سعادة الأسرة المسلمة هو حسن اختيار الزوجة الصالحة، وهو من أهم أسس السعادة الزوجية وأعظمها أهمية وخطورة؛ فالسعيد من فاز بزوجة صالحة تعينه على أمور دينه، وتكون سببًا في دخوله الجنة .

فالإسلام دين المروءة العالية والخلق الرفيع؛ يوجب أن يكون الزواج مؤسسًا على تطلب الصفات الكريمة والمعاني الجميلة والخلق الطيب .

إن المرأة إنسان وأجمل ما في الإنسان إنسانيته وحقيقته المشرقة، وصفاته المحببة، وأجمل ما في الإنسان أن يكون ذا إنسانية عالية رفيعة؛ فإذا ما أوتيت المرأة حظَّها من ذلك أوتيت حظَّها من الجمال .

فإذا صرف الرجل نظره وراح ينشد الجمال الظاهري أو المال أو نحوه؛ فهو سقوط في الهوة وفساد في النظر إلى حقائق الحياة .

وإنما تستقيم لنا الحياة وتسعد إن نحن أجريناها على حقائقها السليمة، ولم نحملها على غير ما سن الله عز وجل، ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، قال سبحانه وتعالى: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾** (الأحزاب:٢١) .

فلقد تزوج ﷺ السيدة خديجة رضي الله عنها وهي في الأربعين وهو في الخامسة والعشرين، ولكنه كان زواجًا ناجحًا موفقًا سعيدًا؛ لأنه كان زواج عقل راجح إلى عقل راجح، وزواج خلق كريم إلى خلق كريم، كان كلٌّ من الزوجين يعيش في حقيقة نفسه ونور فطرته؛ فأحبَّ في الآخر رجاحة العقل وسمو الخلق وكريم الخصال .

فالمرأة ذات الخلق الكريم وذات الدين القويم هي أحق ما تكون للزواج، وهذا معنى قوله ﷺ : «**تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، ولِحَسَبِهَا، وجَمَالِهَا، ولِدِينِهَا؛ فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ**»رواه البخاري ومسلم وأبو داود .

وكان ﷺ يعتبر الزوجة الصالحة من نعم الله الكبرى على المرء، فعن ثوبان رضي الله عنه قال : لما نزل في الفضة والذهب ما نزل قالوا: فأي المال نتخذ؟! قال عمر رضي الله عنه : فأنا أعلم لكم ذلك. فأوضع وأسرع على بعيره فأدرك النبي ﷺ -وأنا في أثره- فقال :يا رسول الله، أي المال نتخذ ؟ فقال ﷺ : «**ليَتَّخِذْ أَحَدُكُم قَلْبًا شَاكِرًا، ولِسَانًا ذَاكِرًا، وزَوْجَةً مُؤْمِنَةً تُعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَى أَمْرِ الآخِرَةِ**» رواه أحمد .

ثم يصف لنا الرسول ﷺ بعض صفات الزوجة الصالحة في حديثه، الذي رواه أبو أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**مَا اسْتَفَادَ المُؤْمِنُ بَعْدَ تَقْوَى اللَّـه خَيْرًا لَهُ مِنْ زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ، إِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وإِنْ نَظَرَ إِليهَا سَرَّتْهُ، وَإِنْ أَقْسَمَ عَلَيْهَا أَبَرَّتْهُ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا نَصَحَتْهُ فِي نَفْسِهَا ومَالِه**» رواه ابن ماجه .

بل لقد جعل رسول الله ﷺ من السعادة المرأة الصالحة، ومن الشقاوة المرأة السيئة.

روى ابن حبان في صحيحه، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « **أَرْبَعٌ منَ السَّعَادَةِ: المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، والمَسْكَنُ الواسِعُ، والجَارُ الصَّالِحُ، والمَركَبُ الهَنِيْءُ، وأَرْبَعٌ مِنَ الشَّقَاوَةِ: الجَارُ السُّوءُ، والمَرأَةُ السُّوءُ، والمَسْكَنُ الضَّيِّقُ، والمَرْكَبُ السُّوءُ**».

بل لقد جعلها خير متاع الدنيا، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « **إِنَّمَا الدُّنْيَا مَتَاعٌ، ولَيْسَ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا شَيءٌ أَفْضَلَ مِنْ المَرْأَةِ الصَّالِحَةِ**» رواه مسلم والنسائي وابن ماجه .

والمؤمن إذا رزق بزوجة صالحة فقد أعانه الله عز وجل على نصف دينه، قال ﷺ : «**مَنْ تَزَوَّجَ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ نِصْفَ الإيمان؛ فَلْيَتَّقِ اللهَ فِي النِّصْفِ البَاقِي**»(١) .

وقد يتساءل القارئ ويقول: لماذا يحرص الإسلام على المرأة الصالحة ذات الدين، ويوصي بالزواج بها دون النظر للمال أو الجمال أو الحسب والنسب؟!

---

(١) انظر : «صحيح الجامع» (٦١٤٨)، و«السلسلة الصحيحة» (٦٢٥).

وللإجابة عن هذا نقول: إن رسول الله ﷺ حدد الدوافع في اختيار المرأة، فقال: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تربت يداك**» رواه البخاري.

فالدوافع عند اختيار المرأة تكون كثيرة ومتعددة ومختلفة من رجل لآخر؛ فأوضح ﷺ أن الدافع لاختيار المرأة ربما يكون المال الذي تملكه المرأة، فيكون وجود المال لدى المرأة دافعًا لاختيارها زوجة، وهذا الدافع المادي لا يمكن أن يبني أسرة سعيدة، أو يوجد حياة زوجية سليمة؛ لأن من كان دافعه المال فسيستمر في حسن معاملتها والتمسك بحياته الزوجية مادام المال موجودًا لدى الزوجة، ويمكن أن تهدم الحياة الزوجية غالبًا إذا ذهب المال، أو إذا اغترت المرأة بذلك المال وأظهرت الاستكبار على زوجها وعاملته معاملة الأجير؛ فيكون المال سببًا في انهيار بنيان هذا الزواج وانهدامه.

وفي الحديث الذي أخرجه ابن ماجه، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما - بسند فيه ضعف- أن رسول الله ﷺ قال: «**لاَ تَزَوَّجُوا النِّسَاءَ لِحُسْنِهِنَّ فَعَسَى أَنْ يُرْدِيَهُنَّ، ولا تَزَوَّجُوهُنَّ لأَمْوَالِهِنَّ فَعَسَى أَمْوَالُهنَّ أَنْ تُطْغِيَهُنَّ، وَلَكِن تَزَوَّجُوهُنَّ عَلَى الدِّينِ**».

أما الدافع الثاني الذي يرغِّبُ الرجل ويدفعه إلى الزواج فهو الحسب، والحسب هو الصفات الجميلة والأفعال الكريمة التي تكون للمرأة وآبائها، ومن العلماء من فسر الحسب بالمال أيضًا مستدلين بالحديث الذي أخرجه الترمذي، عن سمرة بن جندب رضي الله عنه مرفوعًا: «**الحسبُ: المالُ، والكرمُ: التقْوَى**».

وهذا الأمر لا يعوّل عليه في بناء الأسرة؛ لأن هذا الحسب أو الجاه يمكن أن يزول لسبب أو لآخر، وإذا زال الحسب الذي تزوج من أجله الرجل المرأة سوف يفكر في طلاقها للبحث عن أخرى.

أما الدافع الثالث وهو الجمال فليس بأمر دائم ومستمر، وهو زائل أيضًا؛ لأن المرأة لا يبقى لها جمالها خاصة إذا تقدمت في العمر، فالجمال سيذهب، وربما كان ذهاب الجمال سببًا لضياع الحياة الزوجية القائمة، عندما ينظر الزوج إلى غير زوجته بعد أن زال جمالها رجاء أن ينكح غيرها.

وربما كان الجمال أيضًا سببًا في اغترار المرأة بذاتها؛ فيدفعها ذلك إلى التكبر والغرور على الزوج، وربما أدى تصرفها هذا إلى مضايقة الزوج حتى يطلقها، والواقع يؤيد ذلك ويؤكده.

أما ذات الدين فهي التي تدوم السعادة معها؛ فكما قلنا: إن المال يذهب، والحسب يذهب، والجمال يذهب، ولا يبقى إلا الدين، وبذلك تبقى السعادة ترفرف على البيت.

روى النسائي، عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي النساء خير؟ قال ﷺ: «**التي تَسُرُّه إذَا نَظَرَ، وتُطِيعُهُ إذَا أَمَرَ، وَلَا تُخَالِفُهُ فِي نَفْسِهَا ومَالِهَا بِمَا يَكْرَهُ**»).

فهذه صفات المرأة ذات الدين التي عرفت ما أمرها الله سبحانه وتعالى فالتزمت به، ومنعت نفسها عن الهوى فخافت الله عز وجل في زوجها وأولادها، وخشيت ربها في نفسها ومالها ومال زوجها، وأدت لكل ذي حقٍّ حقَّه.

فاتخاذ الصاحبة من أهل الدين فيه الخير والبركة والسعادة؛ لأن في مصاحبتها في دنياه استفادة من أخلاقها وبركتها، فكأن الخير أصبح كله عنده وفي بيته، ومن كان عنده الخير والبركة فلا يتعس ولا يخسر.

قال الإمام الغزالي -رحمه الله تعالى- في الإحياء: (وليس أمره ﷺ بمراعاة ذات الدين نهيًا عن مراعاة الجمال ولا أمرًا بالإضراب عنه، وإنما هو نهي عن مراعاته مجردًا عن الدين؛ فإن الجمال في غالب الأمر يرغِّب الجاهل في النكاح دون الالتفات إلى الدين ولا النظر إليه؛ فوقع النهي عن هذا الأمر، وأمر بألا يغفل النظر فيه، وأمر النبي ﷺ من يريد الزواج بالنظر إلى المخطوبة يدل على مراعاة الجمال؛ إذ النظر لا يفيد مراعاة الدين، وإنما يعرف به الجمال والقبح)[1].

مما سبق يتضح لنا أن الإسلام قد جعل التدين المعيار الأول في اختيار الزوجة والصفة الأساسية في هذا الاختيار؛ لأنه بذلك يشجع الناس على التدين، ولأن الدين الإسلامي قد جاء بجميع المبادئ الإنسانية الفاضلة والقيم الخلقية والاجتماعية السليمة، ولا يمكن أن تستمر الحياة الزوجية وسعادتها، وأن يكون البيت بيتًا إسلاميًا حقًّا بدون أن تتصف المرأة بتلك الصفات، وتتحلى بتلك القيم الأخلاقية النبيلة.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (ج٢) (ص٥٦).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تربت يداك**» رواه البخاري .

ولا ينبغي أن يفهم من هذا الحديث أن الإسلام لا يعترف بطبيعة الإحساس الإنساني، وميله نحو الجمال والجاه والمال، فهذه من الأمور المرغوبة بالطبيعة أيضًا؛ لأن المرأة إذا لم تكن جميلة تقل رغبة الزوج فيها، ويتجه بصره إلى غيرها .

عن أبي هريرة ﷺ قال: سئل النبي ﷺ : أي النساء خير ؟ قال: «**التي تَسُرُّه إذا نَظَرَ إليْها، وتُطيعهُ إذا أَمَرَ، ولا تُخَالفُهُ فيما يكْرَهُ في نَفْسِهَا، ولا في مَالِه**») رواه أحمد .

وكذا المال له أهمية في اقتصاد البيت، والإنسان يحب أن يكون أولاده أغنياء، كما يحب أن تساعده زوجته في نفقة البيت، وقد يقصد الإنسان الحسب والنسب ليرفع من مكانة البيت، كما أن الإحساس بالشرف وبالحسب يدفع إلى التزام الشرف والترفع عن الدنايا .

وإنما كل ما أراده الإسلام أن تكون صفة التدين الصفة الأساسية، وأن تكون الصفات الأخرى هي الصفات الثانوية، ولا مانع من الجمع بين الصفات الأربع؛ بل هذا أفضل .

وهناك صفات أخرى يجب أن تتوفر في المرأة هي :

أن تكون ولودًا غير عقيم :

إن من أهداف الزواج في الإسلام الإنجاب ودوام التناسل، ولتحقيق ذلك شجع الإسلام على اختيار زوجة ولود .

عن مُعَقَّل بن يسار ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أصبت امرأة ذات حسب ومنصب إلا أنها لا تلد؛ أفأتزوجها؟ فنهاه، ثم أتاه الثانية فنهاه ﷺ ، ثم أتاه الثالثة فنهاه، فقال ﷺ : «**تَزَوَّجُوا الوَلُودَ الوَدُودَ؛ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ**» رواه النسائي .

وليس معنى ذلك أن الزواج بالعقيم لا يجوز شرعًا، وإنما ذلك غير مرغوب؛ لأن كل إنسان يرغب في أن يكون له ولد إن عاجلا أو آجلا، وربما يطلبه بعد فوات الفرصة فيندم على فعلته ويقدم على زواج آخر، ولأن الإنجاب كما قلنا من أهداف الزواج في الإسلام، ولكن قد يُعْترض ويُقال: كيف تعرف المرأة أنها عقيم؟! نقول: إنه يمكن معرفة ذلك عن طريق الأسرة بأن تكون من أسرة معروفة بالولادة، وكذلك إذا كانت متزوجة من قبل، وكانت أيضًا بريئة من بعض الأمراض التي تؤدي إلى العقم أو إلى الإجهاض .

أن تكون الفتاة من أسرة غير أسرته أو من جنس غير جنسه:

من المعروف عند العرب أنهم كانوا يقولون: (اغتربوا لا تضووا). أي: لا تهزلوا ولتصبحوا أقوياء، وجاء الرسول ﷺ فأكد هذا المبدأ فقال: «**تخيروا لنطفكم، وانكحوا الأكفاء، وأنكحوا إليهم**» رواه ابن ماجه .

ولقد قرر كثير من علماء تحسين النسل أن ضعف الذرية وانحطاطها، يرجع في كثير من الأحيان إلى عامل الوراثة، فكلما كانت الزوجة ذات قرابة أوثق كلما ظهر أثر الوراثة أكثر؛ والسبب في ذلك أن جميع الصفات والاستعدادات السيئة في الأصول القريبة تنتقل إلى الذرية والأعقاب؛ ولهذا قال ﷺ : «**النَاسُ مَعَادِنُ في الخَيْرِ والشَّرِ ، خِيارُهُم فِي الجَاهِلِيَّة خِيارُهُم في الإسْلامِ إذا فَقِهُوا**» رواه البيهقي[1] .

وفي رواية لمسلم (٢٦٣٨): «**النَّاسُ مَعَادِن كَمَعَادِن الفِضَّةِ والذَّهَبِ، خَيَارُهُمْ في الجَاهِلِيَّة خِيَارُهُمْ فِي الإسْلاَمِ إذَا فَقِهُوا**».

ولكي نعرف كيف تتم الوراثة نوضح أن في كل خلية من خلايا الجسم عدد ثابت من أجسام صغيرة تسمى (كروموسومات)، تحمل بدورها أجزاء دقيقة وبترتيب خاص تسمى العوامل الوراثية، هذه العوامل الوراثية هي المسؤولة عن الصفات التي تظهر في الإنسان وفي الأجيال القادمة، ويتكون الجنين عادة في بطن أمه نتيجة اندماج الحيوان المنوي الآتي من الأب مع البويضة الموجودة في الأم، وفي خلايا الحيوان المنوي والبويضة نجد عددًا من (الكروموسومات) يعادل نصف العدد الثابت في النوع؛ فإذا ما تم تزاوج الأب والأم وإخصاب البويضة بالحيوان المنوي الآتي من الأب يتكون الجنين، وبه عدد من (كروموسومات) النوع الثابتة؛ نصفها جاء من الأم ونصفها جاء من الأب، وعلى هذه (الكروموسومات) عوامل وراثية تنتج الصفات الوراثية سواء أكانت جسمانية أو عقلية .

أن تكون بكرًا :

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّه ﷺ قَال: تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**هَلْ تَزَوَّجْت؟**» قُلْتُ: نَعَم، قَالَ ﷺ : «**أَبِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا؟**» قُلْتُ: ثَيِّبًا، قَالَ ﷺ : «**فَأَيْنَ أَنْتَ مِنَ الْعَذَارَى وَلِعَابِهَا ؟**» رواه البخاري .

---

(١) «كشف الخفاء ومزيل الإلباس» (ج٢) (ص٤١٤).

وقال ﷺ : «**عَلَيْكُم بِالأبْكَارِ؛ فإِنَّهُنَّ أَعْذَبُ أَفْوَاهًا، وأنْتَقُ أَرْحَامًا، وأَرْضَى بالْيَسِيرِ**». رواه ابن ماجه.

وشعور الإنسان بطهارة رحم زوجته ونقاوته، وأنه لم يمسه آخر من قبله له قيمة، إلا أن الإسلام يريد من تشجيع زواج البكر، تشجيع الفتيات على الطهارة والعفاف وحفظ الأعراض، ثم إن زواج البكر ينقذ الإنسان من الشكوك في وجود الأمراض السرية واختلاط الأنساب وعفاف الفتاة، وهذا له دور كبير في الاستقرار النفسي والاطمئنان القلبي.

ألا تكون شديدة الغيرة:

وذلك لأن كثرة الغيرة تؤدي إلى كثرة الاستجواب وكثرة الحساب لكل تصرف يلفت النظر وتدخل في القلوب الشكوك، وذلك يعكر صفو الحياة ويزيل منها السعادة، فلو تعطر الزوج وهو خارج من المنزل؛ قالت له زوجته شديدة الغيرة: لماذا تتعطر؟ لابد وأن هناك شيئا ما! لو تحدث في سماعة الهاتف تقول له: مع من تتحدث؟! لماذا تتكلم بصوت خافت؟! هل تتحدث مع رجل أم امرأة؟... وهكذا إذا تأخر خارج البيت تقول له: أين كنت؟ لماذا تأخرت؟ ثم تبدأ بعد ذلك تتسلل الشكوك إلى نفسها، وينقلب البيت رأسًا على عقب؛ ولهذا لما سألوا الرسول ﷺ قائلين: ألا تتزوج من نساء الأنصار؟ فقال ﷺ : «**إنَّ فِيهِم لغيرةٌ شديدةٌ**» رواه النسائي، وصححه الألباني.

لكن لا ينبغي أن يفهم من ذلك أن الإسلام يحارب الغيرة؛ لأن الغيرة ضرورية للمحافظة على الشرف، وإنما غير المرغوب فيها هي الغيرة الشديدة والمفرطة.

قال الشاعر:

إذا الغَيرةُ استَوطَنَتْ منزلاً
وكَانَتْ أوامِرُها نافِذَة
سَتَجْلُو السَّعَادةُ في حِينِها
مِنَ البَابِ أو فَتحَةِ النَافِذَة

أن تكون عاقلة:

قديمًا قيل: العقل زينة، والمرأة العاقلة هي التي ينبغي للإنسان أن يرتبط بها؛ لأن

الحمقاء كما قيل: معاشرتها بلاء وولدها ضائع؛ ولهذا جاء في الحديث الذي رواه مالك في الموطأ عن سعيد بن المسيب ﷺ أنه قال: قال عمر بن الخطاب ﷺ: «أيما رجل تزوج امرأة وبها جنون أو جذام أو برص فمسها فلها صداقها كاملاً، وذلك لزوجها غرم على وليها» ثم إن ضعف العقل يورث؛ فمن أراد أن يكون ولده عاقلاً فلا يتزوج حمقاء.

أن تكون مسلمة:

أهمس في أذن من يقدم على الزواج من غير المسلمين، وأقول له: إن أردت أن تبني بيتًا تشع فيه الفرحة ويغمره الود والسرور، فعليك ألا تسقط شرط الدين في الزواج؛ فكثيرًا ما نجد بعض الشباب المسلم مفتونًا بالحضارة الغربية، حضارة التفسخ والتحلل من جميع الأخلاق والقيم؛ فإذا سافر إلى إحدى هذه البلاد تزوج من كافرة، ثم بعد ذلك يتجرع كأس الذل والهوان، والواقع أصدق دليل على ذلك، فمن آن لآخر تطالعنا الصحف والمجلات ببعض هذه النماذج التي سقطت في هذه الهوة السحيقة؛ فانقلبت حياتها من سعادة وهناءة إلى تعاسة وشقاء، وقد يؤدي الحال بكثير من هؤلاء إلى الانتحار فيموت على كبيرة لم يتب منها والله سبحانه يقول: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا**﴾ (النساء: ٢٩، ٣٠)، والسبب في ذلك أنه ابتعد عن المنهج الإسلامي القويم في اختيار الزوجة المؤمنة الصالحة.

وقد يتساءل القارئ ويقول: لماذا نهى الإسلام عن زواج المشركات؟ وللإجابة عن ذلك نقول: إن الله قد حرم زواج المسلم بمشركة، وذلك في قوله عز وجل: ﴿**وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ (البقرة: ٢٢١).

ونورد هنا رأي صاحب الظلال -رحمه الله- في هذا الزواج يقول: النكاح -وهو الزواج- أعمق وأقوى وأدوم رابطة تتصل بين اثنين من بني البشر، وتشمل أوسع الاستجابات التي يتبادلها فردان؛ فلابد إذن من توحد القلوب والتقائها في عقدة لا تحل،

ولكي تتوحد القلوب يجب أن يتوحد ما تنعقد عليه ويؤثر فيها، ويكيف مشاعرها ويحدد تأثراتها واستجاباتها، ويعين طريقها في الحياة كلها، وإن كان الكثيرون يخدعهم أحيانًا كمون العقيدة أو ركودها؛ فيتوهمون أنها شعور عارض يمكن الاستغناء عنه ببعض الفلسفات الفكرية أو المذاهب الاجتماعية، وهذا وهم وقلة خبرة بحقيقة النفس الإنسانية ومقوماتها الحقيقية، وتجاهل لواقع هذه النفس وطبيعتها، ولقد كانت النشأة الأولى للجماعة المسلمة في مكة لا تسمح في أول الأمر بالانفصال الاجتماعي الكامل الحاسم، كالانفصال الشعوري الاعتقادي الذي تم في نفوس المسلمين؛ لأن الأوضاع الاجتماعية تحتاج إلى زمن وإلى تنظيمات متريثة، فلما أراد الله عز وجل للجماعة المسلمة أن تستقل في المدينة، وتتغير شخصيتها الاجتماعية -كما تميزت شخصيتها الاعتقادية- بدأ التنظيم الجديد يأخذ طريقه، ونزلت هذه الآية : **﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾** (البقرة:٢٢١)، نزلت تحرم أي نكاح جديد بين المسلمين والمشركين؛ فأما ما كان قائمًا بالفعل من الزيجات فقد ظل حتى السنة السادسة للهجرة، حين نزلت في الحديبية: **﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾** (الممتحنة:١٠).

فانتهت آخر الارتباطات بين هؤلاء وهؤلاء، لقد بات حرامًا أن يربط الزواج بين قلبين لا يجتمعان على عقيدة، إنه في هذه الحال رباط زائف واه، إنهما لا يلتقيان في الله تعالى ولا تقوم على منهجه عقدة الحياة، والله الذي كرم الإنسان ورفعه على الحيوان يريد لهذه الصلة ألا تكون ميلاً حيوانيًا ولا اندفاعًا شهوانيًا؛ إنما يريد أن يرفعها حتى يصلها بالله جلّ في علاه، ويربط بينها وبين مشيئته ومنهجه في الحياة طهارة الحياة، ومن هنا جاء النص الحاسم الجازم: **﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾** (البقرة:٢٢١).

فإذا آمن فقد زالت العقبة الفاصلة، وقد التقى القلبان في الله سبحانه وتعالى،

فسلمت تلك الآصرة وقويت بتلك العقدة الجديدة عقدة العقيدة: ﴿وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾(البقرة:٢٢١)، فهذا الإعجاب المستمد من الغريزة وحدها لا تشترك فيه مشاعر الإنسانية العليا، ولا يرتفع عن حكم الجوارح والحواس وجمال القلب أعمق وأغلى حتى ولو كانت المسلمة أمة غير حرة؛ فإن نسبها للإسلام يرفعها عن المشركة ذات الحسب، إنه نسب في الله عز وجل وهو أغلى الأنساب.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾(البقرة:٢٢١)، القضية نفسها تتكرر في الصورة الأخرى توكيدًا لها وتدقيقًا في بيانها، والعلة الأولى هي العلة الثانية: ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(البقرة:٢٢١).

إن طريق المشركين والمشركات إلى النار ودعوتهم إلى النار، وطريق المؤمنين والمؤمنات هو طريق الله، والله عَزَّ وَجَلَّ يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه؛ فما أبعد دعوتهم إذن عن دعوة الله، ولكن أو يدعو أولئك المشركون والمشركات إلى النار؟! ومن الذي يدعو نفسه أو غيره إلى النار؟! ولكنها الحقيقة الأخيرة إلى النار يختصر السياق إليها الطريق، ويبرزها من أولها دعوة إلى النار بما أن مآلها إلى النار، والله سبحانه وتعالى يحذر من الدعوة المردية المهلكة: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ.... وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فمن لم يتذكر واستجاب لتلك الدعوة - أي: فتزوج المسلم من مشركة تدعوه إلى النار، أو تزوجت المسلمة مشركًا يدعوها إلى النار؛ فهو الملوم .

روي عن ثوبان رضي الله عنه قال: لما نزل في الفضة والذهب ما نزل قالوا: فأي المال نتخذ؟ قال عمر رضي الله عنه : فأنا أعلم لكم ذلك، فأوضع -أسرع - على بعيره، فأدرك النبي صلى الله عليه وسلم - وأنا على أثره - فقال: يا رسول الله، أي المال نتخذ؟! قال صلى الله عليه وسلم : «لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُم قَلْبًا شَاكِرًا، وَلِسَانًا ذَاكِرًا، وَزَوْجَةً مُؤْمِنَةً تُعِينُ أَحَدَكُم عَلَى أَمْرِ الآخِرَةِ» رواه ابن ماجه، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح .

الفصل الثاني

أسس اختيار الزوج

لقد تحدثنا فيما سبق عن الأسس التي وضعها الإسلام لاختيار الزوجة، وفي هذا الفصل سوف نتناول أهم الأسس التي وضعها الإسلام لاختيار الزوج، فما فائدة أن تكون الزوجة صالحة وزوجها سيئ الخلق، فلن تكون الأسرة حينئذ سعيدة؛ بل شقية وتعيسة .

إن أهم الأسس التي يجب أن تتوافر في الزوج المسلم أن يكون ذا خلق ودين، روى الترمذي في سننه، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُم مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وخُلُقَهُ فَزَوِّجُوه؛ إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ»**.

إن المقياس الأول الذي يجب أن يحكم، والذي ينبغي أن تكون له كلمة الفصل في هذا الموضوع هو الدين، أجل إن الدين قبل العلم وقبل المال وقبل الجاه وقبل الجمال وقبل الحسب والنسب، سأل رجل الحسن البصري رحمه الله عمن يزوج ابنته؟ فقال: عليك بصاحب الدين؛ فإنه إذا أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها.

عن سليمان بن عمرو بن الأحوص قال: حدثني أبي أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ -فذكر في الحديث قصة- فقال: **«ألا واسْتَوصُوا بالنِّسَاء خَيْرًا؛ فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ، لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ، إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ؛ فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعِ، وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ؛ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيهِنَّ سَبِيلاً، أَلا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُم حَقًّا؛ فَأَمَّا حَقُّكُم عَلَى نِسَائِكُم فَلا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ، وَلا يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُم لِمَنْ تَكْرَهُونَ، أَلا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُم أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ»** قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح .

ومعنى قوله: **«عَوَانٌ عِنْدَكُمْ»** يعني: أسرى في أيديكم، قالت أم المؤمنين عائشة ﵂ : النكاح رقٌّ؛ فلينظر أحدكم أين يضع كريمته.

إن المتدين لا يمكن أن يظلم زوجته التي جعلها الله سبحانه وتعالى تحت سلطته وأخذت منه ميثاقا غليظا وهي التي من نفسه، قال جلت قدرته: **﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ**

أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقًا غليظًا﴾ (النساء: ٢١). وقال جلت حكمته: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾(الروم: ٢١).

وعلى ولي أمر الفتاة أن يتقي الله عز وجل فيها؛ فإنها أمانة عنده، فليعطها إلى من يحسن الحفاظ عليها، فلا يزوجها من ساء خلقه أو ضعف دينه، أو كان ظالمًا أو فاسقًا أو مبتدعًا، أو كان شارب خمر؛ لأن ولي أمر الفتاة إنْ زوجها لواحد من هؤلاء؛ فقد جنى على دينها وتعرض لسخط الله عز وجل؛ لسوء اختياره، وللأسف الشديد نرى بعض أولياء الأمور ينبهر بغنى الزوج أو شهادته العلمية، أو مكانته الاجتماعية فيزوج ابنته له فيحدث لها من الويلات ما لا يعلم مداه إلا الله سبحانه وتعالى، فتلعن الفتاة أباها الذي لم يحسن الاختيار، وكان سببًا في تجرعها كأس الذل والحرمان وشقائها وتعاستها، والواقع يشهد بذلك.

ومن أهم الأسس التي ينبغي مراعاتها في اختيار الزوج تتمثل في الآتي :

الإسلام :

أن يكون مسلمًا، فلا يجوز أن تتزوج المسلمة بغير المسلم؛ لأن القوامة في الأسرة للرجل وله الولاية عليها، ولا ولاية لغير المسلم على المسلمة، وبناء عليه لا يحل لمسلمة الزواج بنصراني أو يهودي أو مجوسي أو هندوسي أو غيرها من الديانات .

قال تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾(البقرة: ٢٢١).

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن﴾(الممتحنة: ١٠).

فالإسلام من أهم الأسس الواجب النظر إليها عند الزواج .

سلامة الدين والخلق :

عندما يطبق الرجل أحكام دينه فيتمثل لأوامر الله، وينتهي لنواهيه فلابد أن يكون أمينًا على زوجته في دينها ومالها وعرضها وما أبشع أن تقع فتاة ورعة تقية في عصمة رجل متحلل لا يراعي الله فيها، ولا يحفظ كرامتها .

قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾(الحجرات:١٣).

قال تعالى: ﴿**وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ**﴾(النور:٣٢).

والفتاة التقية إن تزوجت فاسقًا؛ ضاقت به وضاق بها، أما إذا تزوجت ورعًا مثلها عندئذ تصفو الحياة الزوجية بينهما، وتكن هذه الزوجة في عصمة رجل يرعاها ويحافظ عليها .

قال تعالى: ﴿**الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ**﴾(النور:٢٦).

تبين مما سبق أن الدين هو الأساس الأهم في اختيار الزوج، فلو عزف الآباء عن تزويج بناتهن من ذوي الدين والصلاح؛ انتشر الفساد في الأرض ولأفسد معظم الأزواج زوجاتهن، وهو أمر لا يرتضيه الله سبحانه وتعالى لعباده .

فعن سهل بن سعد الساعدي أنه قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال: «**مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟**» قالوا: هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ، ثم سكت.

فمر رجل من فقراء المسلمين، فقال ﷺ :«**مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟**» قالوا : هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَلاَّ يُنْكَحَ، وإِنْ شَفَعَ أَلاَّ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَلاَّ يُسْتَمَعَ، فقال رسول الله ﷺ : «**هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلِ هَذَا**» رواه البخاري .

فالذي يتبين لنا من الحديث الشريف أن الثاني امتاز عن الأول بالدين والتقوى والصلاح، وإن كان مظهرالأول وشكله أفضل من الثاني .

الاستطاعة:

أن يكون الرجل مستطيع الزواج من الناحية الجنسية والمادية من قدرة على النفقة والمهر ومتطلبات الزواج، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يَامَعْشَرَ الشَّبَابَ، مَنْ اسْتَطَاعَ منْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءُ**» رواه مسلم .

وفي شرح مسلم تعليقًا على الحديث :

واختلف العلماء في المراد بالباءة على قولين يرجعان إلى معنى واحد، أصحهما أن المراد معناها اللغوي، وهو الجماع، والمعنى الثاني : أن المراد بالباءة مؤن النكاح.

وفي حديث لفاطمة بنت قيس قالت: «فلما حللتُ من العدة ذكرت للنبي أن معاوية ابن أبي سفيان، وأبا جهم خطباني، فقال رسول الله ﷺ : «**أما أبو جهمٍ فلا يضعُ عصاه عَن عَاتقه، وأما معاويةُ فصعلوكٌ لا مَالَ لَهُ، انكحِي أُسَامَةَ بنَ زَيْد**».

ويبين الحديث -أن الخاطبين إذا كانا متساويين في الدين والخلق قدم الأكثر استطاعة، وإلا فصاحب الخلق والدين أولى وأفضل ومن هنا قدّم أسامة على معاوية؛ لأن الأخير كان صعلوكًا قليل المال.

ولكن إذا كان الخاطب فقيراً وذا دين وصلاح، فقد حث الإسلام على تزويجه دون مبالاة لفقره .

قال تعالى: ﴿**وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾(النور : ٣٢).

فقد وعد الله هنا الصالحين بالغنى ما داموا يبغون من الزواج العفة وغضَّ البصر وتحصين الفرج. فقد زوج الرسول فاطمة عليًّا، وقد كان أفقر شباب قريش، ولكنه ورع وصالح .

السلامة من العيوب :

فيجب أن يكون الزوج سليمًا من العيوب المنفرة، والأمراض المعدية؛ لأن الزواج سكن

ورحمـة، فعن أبي هريرة ﷺ أن النـبي ﷺ قال: «**لا يُورِدَنَّ مُمْـرِضٌ على مُصِحٍ**»(١).

وعليه فقد ذهب العلماء إلى أن المرأة إذا تزوجت رجـلاً فظهر به عيب كان الخيار في البقاء معه أو تركه وفسخ العقـد؛ لأن ضرره يعود عليها، كأن يكون الزوج مجنونًا، أو به برص أو خرس أو طرش أو مـصاب بمرض ضـارٍ، أو كان عـقيمًـا؛ لأن ذلك من أعظم المنفـرات، والسكوت عنها قـبل الدخول مـن أبشع أنواع الغش، فقـد ثبت أن عمـر ابن الخطاب بعث رجلاً على بعض السقاية فتزوج امرأة، وكان عقيمًا، فقال له عمر: أعلمتها أنك عقيم؟ قال: لا قال : فانطلق فأعلمـها، ثم خيِّرها، إن إخفاء العيوب عن الزوج من الغش، فكيف يجـرؤ مسلم على الغش والرسـول الكريم يقول : «**من غشنا فليس منا**»، رواه مسلم والترمذي وابن ماجه.

الكفاءة:

الكفاءة في اللغة: المماثلة والمساواة، والكُفُؤ هو النظير والمساوي. وهي في الاصطلاح الفقهي: مساواة الرجل للمرأة في أمور مخصوصة كالنسب والدين والحرية وغيرها.

الحكمة من الكفاءة:

إن اعتـبار الكفاءة في الزواج يحـقق مصلحـة الزوج والزوجة؛ لأن مراعـاة الكفاءة يهيء الألفة بـين الزوجين لما يراه كل منهمـا بأنه كُفُؤ للآخـر، وإذا لم تتوفـر الكفاءة بين الزوجين فقد يدب الخلاف بينهما بسبب نظرة الاستعلاء والاحتقار للزوج؛ لكونه غير كُفُؤ لهـا، وهذا يؤدي إلى التنافر وسـوء العشـرة، ثم إن الزواج ليس عـقدًا خاصًـا بالزوجين فقط، بل هو عقد شديد الصلة بين عائلتي الزوجين، فـإذا كان الزوج غير كفؤ للمرأة أدى ذلك إلى أذى وضرر للمرأة، وأوليائها، ويعلل الفقـهاء اعتبار الكفاءة في الزواج بأنها حق للمرأة وللولي؛ دفعًا للعار ولهما إسقاطها.

ولا يصح أن يقال: إن الكفـاءة في الزواج تنافي عدالة الإسلام فالتـفاوت بين الناس في أمور الدنيا أمـر لابد منه حتى يستقر الكون، فـالناس مختلفون في المكانة الاجتمـاعية والمراكز الأدبية، وذلك من مقتضى الفطرة الإلهية .

---

(١) رواه البخاري، كتاب «الطب»، ومسلم، وأبو داود .

قال الله تعالى في كتابه الكريم : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف: ٣٢).

أدلة اعتبار الكفاءة :

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : «تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُم، وأنكِحُوا الأَكْفَاءَ، وأَنْكِحُوا إليهم»[(١)] .

وما رواه الحاكم وصححه من حديث علي رضي الله عنه أن النبي قال يا علي : «ثَلاثٌ لا تُؤَخِّرِهَا: الصَّلاةُ إذَا أَتَتْ، والجَنَازَةَ إذا حَضَرَتْ، والأيم إذَا وَجَدَتْ كُفُؤًا».

من تعتبر له الكفاءة :

تعتبر الكفاءة من جانب الرجل لا من جانب المرأة، بمعنى أن الرجل هو الذي يُشترط أن يكون كُفُؤًا للمرأة، ولا يُشترط أن تكون المرأة كُفُؤًا للرجل فقد جرت العادة أن الزوج لا يعيّر إذا كانت زوجته أقل منه مكانة، بل يرفع من شأنها .

الكفاءة عند الفقهاء :

١- ذهب الإمام مالك إلى أنها تكون في الدين فقط .

٢- يرى الإمام أحمد باعتبارها في أمرين الديانة والحرفة .

٣- ويرى الشافعية أنها في خمسة أمور: الدين - النسب - الحرية - الحرفة - الخلوّ من العيوب .

٤- الحنفية ذهبوا إلى اعتبارها في ستة أمور : الإسلام - النسب - الحرية - المال - الديانة - الحرفة .

توضيح بعض خصال الكفاءة :

١- الدين :

والمراد به هنا التقوى، فلا يكون الفاجر الفاسق كُفُؤًا للمرأة الصالحة؛ لأنه غير مأمون

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب «النكاح» وفيه الحارث بن عمران الجعفري، وهو ضعيف .

على المال والنفس، ويؤيد ذلك قول الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ﴾ (السجدة: ١٨) ثم إن المرأة تعيّر بفسق زوجها، فالاعتزاز بالدين والتقوى فوق الاعتزاز بالنسب والمال.

٢- النسب :

وهو صلة الإنسان بمن ينتمي إليه من الآباء والأجداد، وهو معتبر بالنسبة للعرب؛ لأنهم يتباهون بالأنساب فيعيّرون من تتزوج بمن دونها نسبًا .

٣- الحرية :

فالعبد ليس كُفُؤًا للحرة، والحر ابن العبد ليس كُفُؤًا للحرة بنت الحر .

٤- المال :

وهو أن يكون الزوج قادراً على النفقة عليها، ومتى كان ذلك كان كُفُؤًا لها، ولو كانت ذا غنى فاحش؛ وذلك لأن عجز الرجل عن المهر، والنفقة يعتبر نقصًا في عرف الناس .

٥- الحرفة :

المراد بها عمل يزاوله الإنسان للحصول على رزقه من صناعة أو وظيفة فرجلٌ صاحب حرفة خسيسة ليس كُفُؤًا لامرأة أبوها صاحب حرفة شريفة، وتختلف شرف الحرف باختلاف الزمان والمكان .

٦- حسن العشرة :

وذلك يعرف بالسؤال عنه لدى أهله وأصحابه، والتعرف إلى خصاله وطباعه، فتتجنب الفتاة من عُرف عنه القسوة أو الضرب أو سوء الطباع، أما إذا عرف عنه حسن الطبع، فيجب على وليها أن يسارع في تزويجها منه؛ لأن الرجل الصالح حسن العشرة يخشى الله فيها، ولا يؤذيها أو يضرها .

أسس مشتركة للزوجين عند الاختيار

التقارب في السن :

السن عند الزواج يختلف من زمن لآخر، ومن مجتمع لآخر، ففي الماضي كانوا يزوجون الأطفال، ولكن عدلوا عن ذلك في العصر الحديث، ويفضل الزواج المبكر لمن يقدر عليه من الشباب ويتراوج السن المناسب لزواج البنات من (١٦-٢٠) سنة لغير الجامعيات، ومن (٢٠-٢٥) لغير الجامعيين، ومن (٢٥-٣٠) سنة للجامعيين ذكوراً وإناثًا.

وبالرغم من أن الدراسات لم تثبت علاقة بين التقارب في سن الزوجين والسعادة الزوجية، ولا بين التباعد في سنهما والتعاسة الزوجية، فمن الأفضل أن يكون الزوج أكبر من الزوجة عمراً من سنة واحدة إلى عشر سنوات، فاحتمالات الطلاق تزداد عندما تكون الزوجة أكبر من الزوج، أو يكون الزوج أكبر من الزوجة بأكثر من عشر سنوات؛ لعدم التوافق الجنسي والفكري بينهما.

وقد عبرت رباب ابنة علقمة بن حاتم الطائي عن مشاعر الفتاة الصغيرة نحو الزواج من الشيخ كبير السن، فعندما رفضت الزواج من الحارث بن السبيل الأزدي، وكان غنيًّا طاعنًا في السن، حيث قالت لأمها : (يا أماه أخشى من الشيخ أن يدنس ثيابي، ويبلي شبابي، ويشّمت بي أترابي).

ومن هنا نرى أن التقارب في السن يقرّب الميول والأفكار، أما عندما يكون فرق السن كبيرًا فيكون من الصعب تحقيق التوافق، أو علاج الخلافات .

التشابه في العقيدة والثقافة والخلفية الاجتماعية :

يفضل عند اختيار الزوج أو الزوجة أن يكون هناك تشابه في الثقافة، وفي الخلفية الاجتماعية، وفي العقيدة فاحتمالات استمرار الزواج تزداد عندما يكون الزوجان من مجتمع واحد، ومتشابهين في العادات والتقاليد وأسلوب الحياة، وطريقة التفكير في الأمور الاجتماعية، والثقافية، والدينية .

وتشير الإحصائيات إلى ارتفاع معدلات الطلاق من أجنبية نتيجة للاختلافات السابقة، فتنخفض احتمالات التوافق الزواجي بين الزوجين مما يؤدي إلى الطلاق .

ويذكر الشيخ / مصطفى محمود الرافعي في مقال له بعنوان «الأجنبية» :

(لا تتزوجوا إخواني بأجنبية، إن الأجنبية يتزوج بها مسلم هي مسدس جرائم فيه ست قذائف، من أهمها بوار امرأة مسلمة، وإقحام الأخلاق الأجنبية على طبائعنا، ودسُّ العروق الزائفة إلى دمائنا ونسلنا، وتمكين الأجنبي في بيت من بيوتنا يملكه ويتحكم فيه).

نضج الشخصية والقدرة على تحمل المسؤولية :

إن نجاح الزواج يعتمد اعتمادًا كبيرًا على نضج شخصية الزوجين وقدرتهما على تحمل المسؤولية؛ لذا يفضل سؤال الزوجين عن بعضهما البعض قبل الزواج من ناحية العادات، والأخلاق، والعلاقات الاجتماعية، فقد دلت الدراسات أن الشاب المدلل لا يستطيع تحمل مسؤوليات الحياة الزوجية؛ لأنه اتكالي، كذلك الفتاة المدللة في أسرتها تشعر بالقلق عندما تنتقل إلى بيت الزوجية؛ لخوفها من الفشل في تحمل مسؤوليات البيت والزواج وتوقعها التدليل من زوجها كما كانت أمها تدللها، كما أن الشاب الذي تعوّد على التمرد على سلطة والديه لا يقبل قيود الزواج، ويصعب توافقه مع زوجته، أما الشاب الناضج انفعاليًّا فيكون زوجًا ناجحًا، قادرًا على ضبط نفسه عند الغضب، وعلى تحمل مسؤولياته الأسرية؛ لذا يتفق علماء الاجتماع العائلي أن نضج شخصية الزوج أو الزوجة، وتوفر الصحة الجسمية أهم من الجمال والمال والتعليم في نجاح الحياة الزوجية .

وقفة :

إن اختيار الفرد للشريك يحدد نوعية حياته، فمن الأفضل والأنفع أن نختار جيدًا بدلاً من أن نحاول تغيير الشخصية بعد الزواج، وهذا لا يعني أن شخصية الزوجين لا تتغير على الإطلاق بعد الزواج فالتغير يمكن حدوثه من خلال التجربة، ولكن هذا التغير لا يحدث إلا من خلال سمات وملامح الشخصية الموجودة أصلاً قبل الزواج، إنه من الجميل استعراض الخواص المطلوبة في شريك الحياة، ولكن دون غياب السؤال -زوج أو زوجة من ؟- فالخواص المطلوبة والمرغوبة متغيرة على الدوام، وتعتمد على شخصية وتوقعات الفرد الذي يتخذ القرار، إن الاختيار لا يتضمن فقط شخصية الفرد الآخر، ولكنه يتضمن أيضًا أشياء أخرى مرتبطة به مثل الظروف التي سيعيش في ظلها الزوجان، ومتطلبات مهنتهما، ومكان السكن، وغيرها من الظروف المحيطة بهما .

الإكراه في الزواج :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : «ومن كان مصرًّا على الفسوق لا ينبغي أن يزوج»، على أننا نؤكد على نقطة مهمة وهي أنه لا يصح إكراه المرأة على الزواج ممن لا تحب، والدليل على ذلك: أن النبي ﷺ رد نكاح من أكرهت وجعل الأمر لها[1] .

ففي مسند أحمد، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أبي زوجني ابن أخيه يرفع بي خسيسته؛ فجعل الأمر إليها، قالت: فإني أجزت ما صنع أبي، ولكن أردت أن تعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء .

وعن خنساء بنت خذام الأنصارية: أن أباها زوجها وهي ثيب، فكرهت ذلك، فأتت النبي ﷺ ؛ فرد نكاحها. رواه البخاري .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : «**الأَيِّمُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا، والبِكْرُ تُسْتَأْذَنُ فِي نَفْسِهَا، وَإِذْنُهَا: صُمَاتُهَا**» رواه مسلم .

على أننا نرى - مع هذا - ضرورة استئذان الولي جمعًا بين الأدلة؛ فقد ورد عنه ﷺ أنه قال : «**أَيُمَا امرأةٍ لَمْ يُنْكِحْهَا الوَلِيُّ؛ فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ، فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ، فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ**» رواه ابن ماجه .

هذا فضلاً عما نشاهده اليوم من استقلال بعض الفتيات بتزويج أنفسهن، وهو ما يسمى الآن بالزواج العرفي، وما ينتج عن هذا من نتائج سيئة على الولي والأسرة والمجتمع بالندم والخسران المبين، ووجوب الأخذ بالأحوط حفاظًا على كرامة المرأة أن تمتهن ويستغل الذئاب ضعفها .

---

(١) «نظام الأسرة وحل مشكلاتها في ضوء الكتاب والسنة»، للدكتور : عبد الرحمن الصابوني.

الفصل الثالث

الحقوق المتبادلة للزوجين

وبعد أن ذكرنا في الفصل السابق أسس اختيار الزوجة، وأن الزوج إذا ظفر بذات الدين أصبح بيته بيتًا سعيدًا؛ نتناول في هذا الفصل - إن شاء الله - الحقوق المتبادلة للزوج والزوجة .

اعلم أيها القارئ العزيز أن لكل من الزوجين حقًّا على الآخر؛ فلا تنتظم الحياة الزوجية ولا تستقيم إلا إذا علم كل واحد منهما ما حق الآخر عنده، فالتزم أداءه وعمل على الوفاء به؛ فبذلك تستقيم الحياة الزوجية وتكون الحياة هانئة سعيدة، لا ينقصها أي شيء ما دام كل واحد من الزوجين يعرف حق الآخر عنده، وسوف نتناول هذه الحقوق بشيء من التفصيل، ونبدأ أولاً بحقوق الزوج على زوجته:

الطاعة :

فأول هذه الحقوق الطاعة؛ فعلى الزوجة أن تطيع زوجها في كل ما يأمرها به ما لم يكن معصية لله تعالى فلا تطيعه فيه ؛ لقوله ﷺ : «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ**» رواه البخاري .

فطاعة الزوج تحبب المرأة إليه، وترفع منزلتها عنده، وتجلب لهما جميعًا سعادة وطمأنينة، ويكون من آثارها أن يقتدي الأولاد بأمهم، فينشؤوا متمرنين على طاعة الأبوين قابلي توجيهاتهما؛ بل إن الزوج نفسه يطيع امرأته ويحقق لها رغباتها المشروعة إذا رآها تطيعه، وهذه أولى الفوائد التي تتعجلها المرأة فما ظنكم بحسن ثواب الله وكريم غفرانه .

وقد قيل في منثور الحكم: خير الزوجات: المطيعة الحيية، الفطنة الولود الودود، القصيرة اللسان، المطاوعة العنان .

وعن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لاَ طَاعَةَ فِي المَعْصِيَةِ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ**» رواه البخاري.

ومن الطاعة ألا تنازعه الأمر، ولو كانت تعتقد أن الصواب في جانبها ما لم يكن في الأمر محذور شرعي؛ فالمشادة في الرأي ينشأ عنها منازعات ومشاكل واضطراب في الحياة العائلية قد تفضي إلى حل عقد النكاح، وفي ذلك جناية على نفسها وزوجها وأولادها، وفيه ما فيه من الكراهية الشرعية؛ فإن الطلاق أبغض الحلال إلى الله تعالى .

ونسوق فيما يلي الأحاديث النبوية الشريفة، التي ورد فيها تعظيم حقِّ الزوج على الزوجة؛ فهي أحاديث كثيرة، منها:

١- أخرج الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن أَوفَى قال: قَدِمَ مُعاذ اليمن - أو قال الشام- فَرَأى النصارى تَسْجدُ لبطارقتها وأساقفتها، فَرَوَّأ في نفسه أن رسول الله ﷺ أَحَقُّ أن يُعَظَّم؛ فلما قَدِمَ قال: يا رسول الله، رأيت النصارى تسجد لبطارقتها وأساقفتها، فرأيتُ في نفسي أنك أحق أن تُعظم، فقال ﷺ : **«لو كُنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، ولا تؤدي المرأةُ حقّ الله عز وجل عليها كله حتى تؤدي حقَّ زوجها عليها كله، ولو سألها نفسها على ظهر قَتَبٍ لأعطته إياه»** .

٢- وأخرج الترمذي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : **«أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنَّة»** .

٣- وكان ﷺ يقول: **«إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا؛ قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ»** رواه أحمد.

٤- وعن الْحُصَيْن بن مِحْصَن رضي الله عنه أن عمة له أتت النبي ﷺ في حاجة، ففرغت من حاجتها، فقال لها النبي ﷺ : **«أذات زوج أنت؟»** قالت: نعم . قال ﷺ : **«فأين أنت منه؟»** قال يَعْلَى: **«فكيف أنت له؟»** قالت: ما آلوه إلا ما عجزت عنه. قال ﷺ : **«انظري أين أنت منه؛ فإنه جنتك ونارك»** رواه أحمد .

٥- وعن سليمان بن عمرو بن الأحوص قال: حدثني أبي: أنه شهد حجة الوداع

مع رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ فذكر في الحديث قصة فقال ﷺ : «أَلاَ واسْتَوْصُوا بالنِّساء خَيْرًا؛ فَإِنَّمَا هُنَّ عَوانٌ عِنْدكُم، لَيْس تَمْلِكُون مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلكَ إلاَّ أنْ يَأْتِينَ بفَاحشة مُبينة؛ فإنْ فَعَلْنَ فَاهْجُروهُنَّ في المَضَاجِع واضْربُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّح؛ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً، أَلاَ إنَّ لَكُم عَلَى نِسَائِكُم حَقًّا ولنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا؛ فأَمَّا حَقُّكُم عَلَى نِسَائكُمْ فَلا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ، ولا يَأْذَنَّ في بُيُوتكُم لِمَنْ تَكْرَهُونَ، أَلا وحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ»[1].

٦- وعن أبي هريرة ﷺ قال: قيل لرسول الله ﷺ : أي النساء خير؟ قال ﷺ : «التي تَسُرُّه إذا نَظَرَ، وتُطِيعُه إذا أَمَرَ، ولا تُخَالِفُهُ في نَفْسِهَا ومَالِهَا بِمَا يَكْرَه» رواه النسائي .

الاحتجاب عن الأجانب :

الثاني: على المرأة أن تحتجب عن الأجانب؛ فلا تظهر زينتها لهم، وينبغي ألا يروها على هذه الحالة؛ فإنه لا يرى المرأة غير زوجها ومحارمها، وهم الذين يحرم عليهم نكاحها على التأبيد كأبيها وأخيها وابن أخيها وابن أختها وعمها وخالها وأبي زوجها وابنه؛ قال سبحانه وتعالى في سورة النور: **﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** (النور: ٣١).

وكما لا تمكن الأجانب من رؤيتها فكذلك لا تراهم؛ لأن النظر بريد الزنى وطريقه وفاتحته، فلتتحفظ منه رجالاً ونساء، قال عز وجل: **﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾** .

---

(١) رواه الترمذي في كتاب «الرضاع، وتفسير القرآن» وقال: حسن صحيح، ومعنى «عوان»: أسرى في أيديكم .

قال الحكيم:

كلُّ الحوادثِ مَبْدَؤُهَا من النَّظَر
ومعظمُ النارِ من مستصغرِ الشَّرَرِ
والمرءُ ما دامَ ذا عينٍ يُقَلِّبُها
في أعينِ الغيدِ موقوفٌ عَلَى الخَطَرِ
كم نظرةٍ فعلت في قلبِ صَاحِبِها
فِعلَ السِّهامِ بلا قوسٍ ولا وَتَرِ
يسرٌّ ناظِرَه ما ضرَّ خاطره
لا مرحبًا بسرورٍ عَادَ بِالضَّرَرِ

وفي الحديث: «**النظر سهمٌ مسموم من سهام إبليس؛ فمن تركه لله أورث الله قلبه حلاوة عبادة يجدها إلى يوم القيامة**» رواه مسلم .

فلا ينبغي للمرأة أن تتطلع إلى الناس من شقوق الأبواب، ولا من النوافذ والشبابيك، ولتتحرز جهدها من أن يسمع صوتها أجنبي منها إلا لضرورة، وعليها عدم تليين صوتها وترخيمه؛ لئلا يعمل الشيطان عمله، قال سبحانه وتعالى لنساء النبي ﷺ - وهن القدوة لنسائنا -: ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا**﴾ (الأحزاب: ٣٢) .

وعليها إذا جاء صديق لزوجها وكانت وحدها في البيت ألا تأذن له بالدخول، ولا تسأله عن اسمه، ولا تتصرف إليه ولا تتودد؛ لئلا تقع الفتنة، فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق .

فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**» رواه مسلم، وأبو داود واللفظ له .

وروى البزار والدارقطني من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه:

أن رسول الله ﷺ قال لابنته فاطمة رضي الله عنها: «**أي شيء خير للمرأة؟**» قالت: ألا ترى رجلاً ولا يراها رجل . فضمها ﷺ وقال: ﴿**ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ**﴾(آل عمران: ٣٤) واستحسن كلامها.

خدمة البيت :

على المرأة أن تبذل قصارى جهدها في خدمة بيتها، فتنشط إلى العمل كي تبقى لها صحتها وتحفظ قوتها؛ فإن العمل ينفي عن صاحبه الأمراض والأدواء، فعليها أن تنظف بيتها وتعد الطعام لزوجها وأبنائها، وتقوم بكل تدابير البيت؛ فإنها ربته وصاحبته .

قال ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم: «**كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها**» .

والمرأة الذكية التي تريد أن يكون بيتها سعيدًا؛ عليها ألا تتكاسل عن أداء واجبها نحو خدمة بيتها وزوجها؛ فالكسل في هذه الحالة يؤدي إلى مشاكل كثيرة هي في غنى عنها.

ولكل زوجة مؤمنة نسوق لها قصة السيدة أسماء بنت الصديق رضي الله عنهما؛ لعلها تكون نبراسًا لها في أداء واجبها نحو بيتها وزوجها:

روى البخاري في صحيحه أن السيدة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: «تزوجني الزُّبير وما له في الأرض من مال، ولا مملوك، ولا شيء غير ناضحه وغير فرسه- أي: بعيره الذي يستقي عليه - فكنت أعلف فرسه، وزاد مسلم: وأسوسه، وأدق النوى لناضحه، وأستقي الماء، وأخرز غربه - تخيط الدلو إذا انفتق - وأعجن، وكنت أنقل النوى على رأسي من ثلث فرسخ - وهي نحو من مشي ساعة - حتى أرسل إليَّ أبو بكر بخادم تكفيني سياسة الفرس؛ فكأنما أعتقني» .

فهذه أسماء ذات النطاقين بنت الصديق الأكبر رضي الله عنهما جدها أبو قحافة صحابي،

وأبوها أبو بكر صحابي، وهي صحابية، وأختها أم المؤمنين عائشة صحابية، وزوجها المبشر بالجنة ابن عمة رسول الله ﷺ، وحواريه الذي يعد بألف فارس، وطالما فرج بسيفه الكرب عن وجه رسول الله ﷺ، وأم الزبير صفية بنت عبد المطلب صحابية، وابنا أسماء رضي الله عنهما: عبد الله بن الزبير صحابي، وعروة بن الزبير من فقهاء المدينة السبعة؛ فأسماء رضي الله عنها نور من نور من نور، وتحيط بها هالات النور، ولم تأنف مع هذا كله من خدمة نفسها وزوجها، فما أحرى نساءنا بالاقتداء بها والسير على نهجها رضي الله تعالى عنها .

عدم خروجها من بيت زوجها إلا بإذنه :

فيجب على المرأة ألا تخرج من بيت زوجها إلا إذا أذن لها صراحة، فتخرج حينئذ محتشمة، متطلبة البعد عن الأعين، متحرية جهد استطاعتها أن تسير في الشوارع التي لا ازدحام فيها، دون الأسواق والشوارع الكبيرة والساحات العامة، وبقدر ما تكون فيه من دين وشرف يكون عملها على هذا، أما تبهرجها وتزينها وتعطرها وسيرها في الأسواق، تزاحم الرجال وتستهوي عيونهم وتفتن قلوبهم؛ فهو دليل على ضعف الوازع الديني في نفسها أو انعدامه، وأمارة على نوم الشرف أو موته .

وقد رتب الله تعالى على خروج المرأة بلا إذن زوجها إثمًا كبيرًا، تدل عليه لعنات الملائكة المنهالة عليها؛ فقد جاءت الأخبار النبوية الشريفة بأن الملائكة تلعنها حتى ترجع أو تتوب .

أخرج البيهقي وأبو داود والطيالسي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال- من حديث شريف -: « ... **وألا تخرج من بيته إلا بإذنه؛ فإن فعلت لعنها الله وملائكة الغضب حتى تتوب أو ترجع**». قيل: وإن كان ظالمًا ؟! قال: «**وإن كان ظالمًا**» .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**المرأة عورة؛ فإذا خرجت استشرفها الشيطان**» رواه الترمذي في كتاب «الرضاع» وقال: حديث حسن صحيح .

وأخرج الحاكم، عن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَخَرَجَتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا رِيحَهَا؛ فَهِيَ زَانِيَةٌ، وَكُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ» .

وروى الطبراني من حديث ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «أَقْرَبُ مَا تَكُونُ الْمَرْأَةُ إِلى اللهَ تَعَالَى وَهِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا» .

حفظ مال زوجها :

فعلى المرأة أن تحرص على حفظ مال زوجها وصيانته أيًا كان نوعه؛ فالزوجة الذكية هي التي تحرص على مال زوجها؛ لأن مال زوجها يعود عليها بالخير والمنفعة، فكثيرًا ما كانت إضاعة المرأة مال زوجها موجبة للنفرة وباعثة على الشقاق، أما حفظه فمقوٍ للرابطة زائد للألفة؛ فلا تعطي أحدًا - ولو فقيرًا - شيئًا إلا إذا علمت رضا زوجها أو صرح لها بالإعطاء، وإلا فإنه مأجور وإنها مأزورة .

أخرج البيهقي وأبو داود عن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: « ... ولا تُعْطِي شَيْئًا مِنْ بَيْتِهِ إلاَّ بِإِذْنِهِ؛ فَإِنْ فَعَلَتْ ذَلِكَ كَانَ لَهُ الأَجْرُ وَعَلَيْهَا الوِزْرُ » .

ألا تصوم نفلاً إلا بإذنه :

فعلى المرأة ألا تصوم نفلاً إلا بإذن زوجها؛ فإن صامت دون استئذانه وكان حاضرًا غير مسافر؛ كان حظُّها من صومها جوعها وعطشها، و زيادة على ذلك تأثم ولا يتقبل الله عز وجل منها، ولزوجها الحق في أن يفطرها إن لم تستأذنه، وإذا أفطرها زوجها فإنها تقضي ذلك اليوم؛ لأن الشرع في النفل ملزم إتمامه[1] وتستأذنه في القضاء، أما صوم الفريضة كرمضان فلا يحتاج إلى إذن الزوج .

أخرج البيهقي عن ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال: « . . . أَلاَّ تَمْنَعَهُ نَفْسَهَا وَإِنْ كَانَتْ عَلَى قَتَبٍ، وَأَلاَّ تَصُومَ يَوْمًا وَاحِدًا إلاَّ بِإِذْنِهِ؛ فَإِنْ فَعَلَتْ أَثِمَتْ وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْهَا» .

(١) هذا مذهب الإمام مالك «المدونة الكبرى» ج(١) ص(٢٧٤).

حفظ نفسها في حال غيبة زوجها:

عن ابن عباس ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ**﴾ (التوبة: ٣٤) قال: كبر ذلك على المسلمين، فقال عمر ﷺ: أنا أفرج عنكم. فانطلق فقال: يا نبي الله، إنه كبر على أصحابك هذه الآية! فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ لَمْ يَفْرِضْ الزَّكَاةَ إلاَّ لِيُطَيِّبَ مَا بَقِيَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ، وَإِنَّمَا فَرَضَ الْمَوَارِيثَ؛ لِتَكُونَ لِمَنْ بَعْدَكُمْ**» فَكَبَّرَ عمر، ثُمَّ قَالَ النبي ﷺ لَهُ: «**أَلاَ أُخْبِرُكَ بِخَيْرِ مَا يَكْنِزُ الْمَرءُ؟ المرأَةُ الصَّالِحَة: إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ، وَإِذَا أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِذَا غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ**» رواه أبوداود.

فعلى المرأة أن تحفظ نفسها في حال غيبته في صلاح وانقباض عن الناس؛ فإذا رجع انبسطت إليه، أما إذا فعلت عكس هذا فلا خير فيها، ولكن - وللأسف الشديد - نجد بعض النسوة في عصرنا يفعلن خلاف ذلك؛ فإذا كان زوجها معها تراها منقبضة الأسارير كأنما مات أبواها، فإذا خرج انبسطت أساريرها، وكأن زوجها كابوس يجثم على صدرها، وهذا ما لا يرضاه الله ورسوله.

فالمرأة المؤمنة الصالحة التي تعرف حق زوجها وتؤدي له حقوقه، وتريد أن يكون بيتها سعيدًا، حينما يعود زوجها إلى البيت تبتسم في وجهه، وتكون فرحة بمقدمه متحرية لرضاه، متزينة متنظفة حتى لا تقع عينه منها على ما يكره، وتحضر له طعامه وتخدمه بقلبها وقالبها.

أوصت امرأة ابنتها عند زواجها فقالت: أي بنية، لا تغفلي عن نظافة بدنك؛ فإن نظافته تضيء وجهك، وتحبب فيك زوجك، وتبعد عنك الأمراض والعلل وتقوي جسمك على العمل.

لا تحمّل زوجها ما لا يطيق:

فمن حقّ الزوج على زوجته ألا تحمّله ما لا يطيق من النفقة على بيته؛ فلا تطلب منه ما يزيد على الحاجة، فكثير من النسوة في عصرنا هذا تثقل كاهل زوجها بمصروف البيت، فتجدها كثيرة الطلبات إذا كان لديها أربع أثواب تريد الخامس،

وتقول لزوجها: إن زوجة فلان قد اشترى لهـا زوجها ملابس بكذا واشترى لها ذهبًا بكذا وأنا لست أقل منها ! فـيضطر المسكين أن يستـدين لأجل تلك الزوجة الجشـعة التي همها الوحيد أن يقال عنها: إن فلانة عندها وعندها، ولا تتقي الله عز وجل في زوجها .

ولتعلم من تفعل ذلك أن القناعة تعمر البـيوت وتوقع الألفة والمحبة، وأن الجشع والطمع يضعفان المحبة ويأتيان بالكراهـية؛ فما أحسن المرأة القانعة ذات الخلق الكريم الحسنة التصرف في قليل الرزق؛ ليكفيها وزوجها وأولادها .

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ليس الغِنَى عن كثرة العرض، ولكن الغِنَى غِنَى النفس**» رواه البخاري .

وعلى المرأة أن ترغب عن الكسب الحرام؛ لما فيه من الهلاك والدمار .

فعن أبـي هريرة ﷺ قال: قال رسـول الله ﷺ : «**أَيُّها النَّاسُ، إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إلاَّ طَيِّبًا، وإنَّ الـلهَ أَمَرَ المُؤْمـنين بمَا أَمَـرَ به المُرْسَلين فـقـال: ﴿يَأَيُّهَـا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾**(المؤمنون: ٥١) وقال: ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ (البقرة: ١٧٢) ثم ذكر: «**الرجل يطيلُ السَّفَرَ أشْعَثَ أغبرَ يمد يديه إلى السَّمَاءِ: يارب ، يارب! ومَطْعَمُـهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُه حَرَامٌ، وملبسه حَرَامٌ، وغذي بالحَرَامِ ؛ فأنَّى يُسْتَجَابُ لذلك ؟!**» رواه مسلم .

ويقول الحكيم:

جَمَعَ الحَرَامَ عَلى الحَـلالِ ليُكْثَـره

دَخَلَ الحَـرامُ على الحَـلالِ فَبعثَره

وقد كان نسـاء السلف تقول الواحدة منهن لزوجها: يا عـبد الله، اتق الله فينا، وإياك وكسب الحرام؛ فإنا نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على النار .

وكذلك لا يصح للزوجة امـتعاضها من تحـول زوجها من اليسر إلى عـسر؛ فإن

ذلك قبح منها، بل عليها أن ترضى بالقضاء، وأن تكون لزوجها في شدته كما كانت له في رخائه وأشد؛ فكثير من النساء الفضليات هذا حالهن يصبرن، حيث إن انتظار الفرج من أفضل أنواع العبادة، يأخذن بأيدي أزواجهن ويصبرن على الشدة حتى تنفرج الأزمة وتنقشع الغمة؛ فالله جل شأنه يقول في محكم التنزيل: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: ٥ - ٦) .

ويقول الحكيم:

يا صاحبَ الهَمِّ إن الهمَّ مُنْفَرِجٌ
أبْشِر بخيرٍ فإنَّ الفارجَ اللهُ
اليأسُ يقطعُ أحيانًا بصاحِبِه
لا تيأسَنَّ فإنَّ الكافِيَ اللهُ
إذا بليتَ فَثِقْ باللّهِ وارضَ به
إن الذي يكشفُ البَلْوى هو اللهُ
اللهُ يُحْدِثُ بعدَ العسرِ مَيْسرةً
لا تَجْزَعَنَّ فإنَّ الصانعَ اللهُ
واللّهِ ما لَكَ غيرُ اللّه من أحدٍ
فَحَسْبُكَ اللهُ في كلٍّ لَكَ اللَّهُ

ولتعلم أن النعيم الدنيوي قد يجر أصحابه إلى العناء الأخروي، روى ابن أبي الدنيا، عن النبي ﷺ أنه قال - وقد أصابه جوع يومًا، فعمد إلى حجر فوضعه على بطنه الشريف -: «**أَلاَ رُبَّ نَفْسٍ طَاعِمَةٍ فِي الدُّنْيَا جَائِعَةٌ عَارِيَةٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، أَلاَ رُبَّ مُكْرِمٍ لِنَفْسِهِ وَهُوَ مُهِينٌ، أَلاَ رُبَّ مُهِينٍ لِنَفْسِهِ وَهُوَ لَهَا مُكْرِمٌ**» .

وأسوتها في ذلك أمهات المؤمنين رضي الله عنهن عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها: أنها كانت تقول له: «والله يابن أختي، إن كنا لننظر إلى الهلالِ، ثم الهلالِ، ثم الهلالِ -

ثلاثةَ أهلة في شهرين- وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار". قال: قلت: ياخالة، فما كان يُعيِّشُكم ؟! قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح، فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا». رواه البخاري .

فما بال نسائنا إذا اجتمع أمام الواحدة منهن ثلاثة أصناف من الطعام استاءت وأرادت الرابع ؟! مع أن رسول الله ﷺ لم يجتمع أمامه صنفان من الطعام قط، ليس لأنه لا يجد؛ بل كانت الدنيا بيده، ولكن زهدًا منه ﷺ الذي كان يقول: **«ما أنا والدنيا؟! إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها»** رواه ابن ماجه.

وقد لا تكتفي بذلك؛ بل إنها إذا ظل عندها طعام لا تحتفظ به إلى اليوم التالي؛ بل تضعه في القمامة، فكل هذا و غيره يحمّل زوجها فوق ما لا يطيق، وهذا يأباه العقل السليم، وهو من الإسراف الذي نهى عنه الله ورسوله، قال سبحانه وتعالى: **﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾** (الأعراف: ٣١) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : **«كُلُوا وَاشْرَبُوا، والبَسُوا، وتَصَدَّقُوا مِنْ غَيْرِ إسْرَاف ولا مَخيلة»** رواه البخاري في كتاب اللباس .

القيام بالواجبات الدينية:

فمن الواجب على المرأة أن تستفرغ جهدها في القيام بالواجبات الدينية، من صلاة وصوم وجميع ما أوجب الله تعالى عليها، فيجب أن تكون شديدة الخوف من الله تعالى باذلة جهدها في مرضاته، حريصة على تفهم أحكام الإسلام، ذاكرة قول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه أحمد، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: **«يَامَعْشَرَ النِّسَاء تَصدَّقْنَ وَأَكْثِرنَ؛ فَإنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ؛ لكَثْرَةِ اللَّعْنِ وكُفْرِ العَشِيرِ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍّ مِنْكُنَّ»** . قالت: يا رسول

الله، وما نقصان العقل والدين ؟! قال ﷺ : «**أما نقصان العقل والدين: فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل؛ فهذا نُقصان العقل، وتمكث الليالي لا تصلي، وتُفطر في رمضان ؛ فهذا نُقصان الدين** » .

ما أحسن المرأة إذا كانت تقدم دينها على دنياها، وتؤثر ربها على نفسها؛ إذا كانت كذلك فهي مفلحة .

أخرج ابن حبان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**إذا صلت المرأة خَمْسَها، وصَامَتْ شَهْرَها، وحفظتْ فَرْجَهَا، وأطَاعَتْ زَوْجَها ؛ دَخَلَتْ جَنَّة ربِّهَا**» .

وأخرج ابن حبان - أيضًا - عن الحسن أنه قال: حدثني مَنْ سَمع النبيﷺ يقول: «**أَوَّلُ مَا تُسْأَلُ المرأة يَوْمَ القِيامَةِ عَنْ صَلاتِها، وعَنْ بَعْلِها**» .

فإن المرأة إن فعلت ذلك أصبح بيتها بيتًا سعيدًا؛ لأن طاعة الله عز وجل وتقواه فيها السعادة كلها، قال سبحانه وتعالى: ﴿**لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ (آل عمران: ١٥) .

تقديم حقِّ الزوج على حقِّها :

فمن الواجب على المرأة أن تكون بارة بزوجها، تقدم حقه على حقها وحق قراباتها، وإن من أجمل أنواع البر به إحسانها إلى أمه؛ اعترافًا بجميلها عليه، وشكرًا لها؛ فهي أم زوجها، ولكن للأسف الشديد نجد كثيرًا من النساء يفعلن الآن عكس ذلك؛ فالزوجة تتخذ أم الزوج عدوًا لدودًا لها، وتناصبها العداء لا لشيء سوى أنها حماتها، وهذا - والله - بئس العمل؛ فإذا نشب الخلاف بين الأم والزوجة فإما الصبر على حياة مريرة وحرب دائمة، وإما المصير إلى أحد أمرين أحلاهما مر: وهو حل عقدة النكاح، أو عقوق الأم، ألا فليتق الله النساء والرجال والأزواج والأمهات، وليعيشوا متوادين متراحمين .

ومن البر بالزوج شكره على إنفاقه عليها؛ فإن هذا يشرح صدره ويثلج فؤاده

ويحبب المرأة إليه، ومنه -أيضًا- إحسانها تربية أولاده في صبر وتحمل؛ فتربيهم على الفضيلة وتربيهم على الزهد والتقشف والتجمل، تثقفهم وتعلمهم الإيمان والطهارة والصلاة والأخلاق الفاضلة، التي تحبب إليهم الخير وتبغض إليهم الشر، وتكون لهم ظلاً من الرحمة ظليلاً، ولكن النساء أغلبهن الآن يتركن أولادهن دون تربية ولا نصيحة؛ فكثير منهن يجعلن جلّ وقتهن لمشاهدة التلفاز والانتقال بين الفيلم والمسلسل، وهكذا تضيع الأولاد؛ فربما تضربهم والدتهم على عدم المذاكرة، ولا تضربهم على ترك الصلاة، نشكوا من بيوتنا ونقول: نحن نعيش في جحيم لا يطاق! أولادنا عاقون، ماذا نفعل؟! لمن نلجأ ؟! ونقول لهؤلاء: اتقوا الله في أولادكم، ربوهم على الفضيلة، لا تتركوهم للخادمات؛ فالخادمة لا تربي ولا تزرع الفضيلة، لا تتركوهم نهبًا للتلفاز؛ لأن ما يبث فيه من الرذيلة أضعاف ما يبث فيه من الفضيلة، وإلا سوف تصرخون وتقولون: ضاعت أولادنا، وفقدنا السيطرة عليهم! ونقول لهؤلاء: ماذا تنتظرون من ابن أو بنت نشأت في هذا الجو المليء بما يغضب الله ورسوله ؟!

فالمرأة عليها أن تتقي الله عز وجل وتربي أولادها تربية إسلامية، تعلم أبناءها منذ نعومة أظافرهم الوضوء والصلاة، تعود ابنتها على ارتداء الحجاب؛ بذلك ترفرف السعادة على بيوتنا .

يقول الحكيم:

وينشأُ نَاشِئُ الفِتْيَان فِينَا
عَلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ
وما دَانَ الفَتَى بحجى ولكنْ
يُعَوِّدُه التَدَيُّنَ أقْرَبُوهُ

فعلى المرأة أن تسمع أبناءها الكلام الطيب، وتدعو لهم ولا تدعو عليهم؛ فقد جاء في الحديث الشريف النهي عن الدعاء على النفس والولد والمال .

روى أبو داود، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَدْعُوا على أنْفُسكُم، ولا تَدْعُوا على أولادكُم، ولا تَدْعُوا على خَدَمكُم، ولا تَدْعُوا على أمْوَالكُم؛ لا تُوَافقُوا من اللَّه تبارك وتعالى سَاعةً نيْل فيها عَطَاء فيستجيب لكم**».

ثانيًا: حقوق الزوجة على زوجها:

المهر:

فمن حقوق الزوجة على زوجها أن يوفيها مهرها كاملاً غير منقوص، قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا**﴾ (النساء: ٤).

وأخرج الطبراني في الأوسط أن النبي ﷺ قال: «**أيُّما رَجُلٍ تَزَوَّجَ امرأةً عَلَى مَا قَلَّ أو كَثُرَ، لَيْسَ فِي نَفْسهِ أنْ يُؤدِيَ إليها حقَّهَا؛ لَقِيَ اللهَ يومَ القِيَامَةِ وَهُوَ زَانٍ**».

وأخرج البيهقي عنه ﷺ أنه قال: «**إنَّ مَنْ أعْظَمِ الذُّنُوب عنْدَ الله عَزَّ وَجَلَّ رَجُلٌ تَزَوَّجَ امْرَأةً، فَلَمَّا قَضَى حَاجَتَهُ مِنْهَا طَلَّقَهَا وَذَهَبَ بِمَهْرِهِ**» على أننا نؤكد هنا على نقطة مهمة، ألا وهي المغالاة في المهور؛ فكثير من الآباء إذا أراد تزويج ابنته رفع مهرها؛ ظنًّا منه أنه إذا فعل ذلك يشار إليه بالبنان، وكأنما ابنته سلعة تباع وتشترى، على أن المغالاة في المهور شيء يأباه الإسلام؛ لأن الإسلام دين يسر وليس دين عسر، فالزوج حينما يدخل بزوجته وهو مثقل بالديون فلن يكون زواجه سعيدًا؛ بل سيكون زواجًا تعيسًا، ألا فليتق الله الآباء في بناتهم وفي الشباب الذين يريدون الزواج؛ فيسروا ولا تعسروا .

ونسوق هنا أحاديث الرسول الله ﷺ وأقوال الصحابة رضي الله عنهم في تيسير الزواج وعدم المغالاة في المهور، حتى لا يكون ذلك حائلاً دون إتمام زواج تتوافر فيه الكفاءة والثقة والطاقة على تسيير دفة الأسرة من بعد .

أخرج الترمذي في كتاب النكاح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: «ألا لا تغالوا صدقة النساء ؛ فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله؛ لكان أولاكم بها

نبي الله ﷺ ، ما علمت رسـول الله ﷺ نكح شيئًـا من نسائه، ولا أنكح شيـئًا من بناته، على أكثر من ثنتي عشرة أوقية» قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح .

وجاء في مـسند أحمـد: « . . . جهز النبي ﷺ ابـنته فاطمـة في خمـيل وقربة ووسادة أدم حشـوها ليف» صححه الحـاكم، وأقره الذهبي. وصَحَّ عنه ﷺ أنه قال: **«أعْظَمُ النِّسَاء بَركَةً أيسرهُنَّ صَدَاقًا»** السنن الكبرى للبيهقي .

وقد روى البـخاري عن سهل بن سـعد الساعـدي ﷺ: أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فـقالت: إني وهبت نفسي لك . فقامت طويلاً، فـقال رجل: يا رسول الله، زوجنيها إن لم يكن لك بهـا حاجة، قال ﷺ : **«هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ تُصْدِقُهَا بِهِ؟»** فقال: ما عندي إلا إزاري . فقال رسول الله ﷺ: **« إن أعطيتها إيَّاهُ جَلَسْتَ لا إزار لك؛ فالتَمِسْ شَيئًا»** . فقال: مـا أجد شيئًـا . قال ﷺ : **«التمس ولو خاتمًا من حديد»**. قال: فلم يجد، فـقال رسول الله ﷺ : **«أَمَعَكَ من القُرآن شيء؟»** قال: نعم سورة كذا، وسورة كذا - لسور سمَّاها - فقال رسول الله ﷺ : **«زوجناكها بما معك من القرآن»** .

وقد روى النسائي عن أنس ﷺ قال: **«خطب أبو طـلحة أم سليم، فقالت: والله ما مثلك يا أبا طلحة يرد، ولكنك رجل كافر وأنا مسلمة ولا يحل لي أن أتزوجك؛ فإن تسلم فذاك مهري وما أسألك غيره! فأسلم، فكان ذلك مهرها. قال ثابت: فما سمعت بامرأة قط كانت أكرم مهرًا من أم سليم: الإسلام، فدخل بها فولدت له»** .

ونسوق هنا قصة زواج بنت سيد التابعين سعيد بن المسيب؛ ففيها العظة والعبرة، لمن أراد تزويج ابنته بمهر قليل حـتى لا يثقل كاهل الزوج، فسعيـد بن المسيب رحمه الله رجل فـاضل وعالم جليل ونقي تقي وزاهد عـابد، هذا الرجل هو أحـد فقـهاء المدينة السبعة وهو فقيه الفقهاء وسيد التابعين على الإطلاق، هذا الرجل يضع النقاط على الحروف في تقليل الصداق وترك المغالاة .

سجل التاريخ بأن سعيد بـن المسيب مرت عليه من السنين أربعون سنة ولم يؤذن

المؤذن إلا وهو في المسجد، وقد زوج ابنته المثالية - التي قل أن يوجد مثلها - زوجها على درهمين، وبعد أيام قليلة من الزواج أعطى زوجها عشرين ألف درهم، وقد كان الخليفة عبد الملك بن مروان قد خطبها لابنه الوليد فأبى سعيد أن يزوجه بها، قال أبو وداعة: كنت أجالس سعيد بن المسيب، ففقدني أيامًا فلما جئته قال: أين كنت ؟! قلت: توفيت أهلي فاشتغلت بها، فقال: هلا أخبرتنا فشهدناها ؟! قال: ثم أردت أن أقوم فقال: هلا تزوجت امرأة غيرها ؟ فقلت: يرحمك الله، ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟! فقال: إن أنا فعلت تفعل ؟ ثم حمد الله تعالى وصلى على النبيﷺ وزوجني على درهمين، قال: فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح، فصرت إلى منزلي وجعلت أفكر ممن آخذ وأستدين، وصليت المغرب وكنت صائمًا؛ فقدمت عشائي، وكان خبزًا وزيتًا، وإذا بالباب يقرع، فقلت: من هذا ؟! قال: سعيد، ففكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب، فقلت: يا أبا محمد، هلا أرسلت إليَّ فآتيك ؟ قال: لا؛ أنت أحق أن تؤتى، قلت: فما تأمرني ؟ قال: رأيتك رجلاً عزبًا قد تزوجت؛ فكرهت أن تبيت الليلة وحدك، ثم دفعها في الباب فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب، ثم صعدت إلى السطح فناديت الجيران فجاؤوني وقالوا: ما شأنك ؟! فقلت: زوجني سعيد ابن المسيب اليوم ابنته، وقد جاء بها على غفلة، وها هي ذي في الدار ! فنزلوا إليها وبلغ أمي، فجاءت وقالت: وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها ثلاثة أيام ! فأقمت ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع فإذا هي أجمل النساء وأحفظهن لكتاب الله تعالى، وأعلمهن بسنة رسول اللهﷺ وأعرفهن بحق الزوج، قال: فمكثت شهرًا لا يأتيني ابن المسيب ولا آتيه، ثم أتيته بعد شهر وهو في حلقته، فسلمت عليه فرد علي ولم يكلمني حتى انفضَّ مَنْ في المسجد، فلما لم يبق غيري قال: ما حال ذلك الإنسان؟ قلت: هو على ما يحب الصديق ويكره العدو. فرحم الله سعيد بن المسيب؛ فإنه لم يزوج ابنته من أجل المال والرياء والسمعة، وإنما زوجها من أجل الدين والستر والخلق، نعم مات سعيد بن المسيب وماتت ابنته ومات

زوجها، وبقيت الذكرى حية عطرة يفوح أريجها ويتألق نجمها في سماء الدنيا، فهل نجد في آباء اليوم كسعيد بن المسيب يخفف عن الشباب ما يعانونه عند الزواج؟!! وهل نجد في شباب اليوم مثل أبي وداعة في علمه وخلقه وتقواه، قال جلت قدرته: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢-٣) .

وعلى كل حال في تاريخنا الحديث قصص كثيرة تشبه قصة ابن المسيب وأبي وداعة، ولكن تحتاج إلى من يجمعها من أفواه الرجال، فضلاً عن بطون الكتب .

النفقة:

قال -سبحانه وتعالى-: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ (النساء: ٣٤) وحين أوجب الإسلام النفقة على الرجل، لم يكلفه فوق طاقته، ولم يحدد فيها كمًّا معينًا؛ بل جعلها أمرًا نسبيًّا يراعى فيه حال كل امرئ وطاقته الخاصة، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (الطلاق: ٧) .

فليس من المروءة أن ينفق الرجل على نفسه بسعة وعلى زوجته وبنيه في بخل وتقتير؛ فإن فعل ذلك ما كانت هناك سعادة بينه وبين شريكة حياته، فكثيرًا ما نجد بعض الأزواج يذهب إلى أفخر المطاعم ويأكل ما لذَّ وطاب، وإذا طلبت زوجته بعض المال فلا يعطيها ما يكفيها وأولادها بالمعروف، وهذا الزوج وأمثاله قد فعل ما فيه ضرر ببيته، وقد تتحول حياته مع أسرته للخطر؛ فقد تضطر الزوجة في نهاية المطاف إلى طلب الطلاق نتيجة لبخله وتقتيره .

فالله سبحانه وتعالى قد أمر الزوج بالإنفاق على زوجته بالمعروف، وقد أمره سبحانه بالإحسان في هذا، وأن يوصل إلى المرأة حقَّها من نفقة ومأكل وملبس عن رضا من الزوج وطيب نفس؛ فهي شريكته في حياته ورفيقته في عمره، وهي أم أولاده، وهي قرينته التي تفرح لفرحه وتحزن لحزنه وتوده وترحمه؛ فأي تقصير يبدو من الزوج في أداء هذا الحق ففيه مؤاخذة .

وقد روي عن وهب، عن جابر ﷺ قال: «إن مولى لعبد الله بن عمرو ﷺ قال له: إني أريد أن أقيم هذا الشهر ههنا ببيت المقدس! فقال له: تركت لأهلك ما يقوتهم هذا الشهر؟ قال: لا. قال: فارجع إلى أهلك فاترك لهم ما يقوتهم؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كَفَى بالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوت» مسند أحمد.

وعن حكيم بن معاوية عن أبيه: «أن رجلاً سأل النبي ﷺ: ما حق المرأة على الزوج قال: «**أَنْ يُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمَ، وأَنْ يَكْسُوهَا إِذا اكْتَسَى، وَلاَ يَضْرِبَ الوَجْهَ، وَلاَ يُقَبِّحَ، وَلاَ يَهْجُرَ إلاَّ فِي البيتِ**» رواه ابن ماجه.

وأخرج ابن حبان في صحيحه عنه ﷺ أنه قال: «**إنَّ اللَّه سائل كل رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ أَحَفِظَ أم ضَيَّع؟! حتى يسأل الرجل عن أهل بَيْتِه**».

وروى الترمذي أنه ﷺ قال في حجة الوداع: «**ألا واستوصوا بالنساء خيرًا؛ فإنما هُنَّ عَوان عندكم ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة؛ فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربًا غير مُبَرِّح؛ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا إن لكم على نسائكم حَقًّا ولنسائكم عليكم حَقًّا، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهنَّ في كسوتهنَّ وطعامِهنَّ**».

ومن الإحسان إليها أن يطعمها مما يأكل، ولا يخصّ نفسه بطعام شهي دونها، ويصنع لها الحلوى أو يشتري لها حلوى ويطعمها إياها؛ فإن ذلك يدخل السرور إلى قلبها.

ومن الإحسان - أيضًا - أن يأكل أهل البيت كبارًا وصغارًا على مائدة واحدة، قال سفيان الثوري - رحمه الله -: «بلغني أن الله وملائكته يصلون على أهل البيت يأكلون في جماعة».

ويحسن بالزوج أن يأمر زوجته بالتصدق بما يمكن أن يفضل عنهم مما يحبون، قال تباركت أسماؤه: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾ (آل عمران: ٩٢).

ولا ينتظر حتى يكاد يفسد ثم يتصدق به، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (البقرة: ٢٦٧).

ولا مانع من إنفاق الفضل قبل أن تعافه النفس أو تمل منه، فهذا خير من إلقائه في القمامة؛ لأن في ذلك ازدراء بالنعمة، ويحسن بالزوج أن يحتسب نفقته على أهله وأولاده ناويًا القيام بأمر الله تعالى وإعفافهم وصيانتهم عن التطلع إلى الناس.

أخرج البخاري في صحيحه عنه ﷺ أنه قال: «إِذَا أَنْفَقَ الرجلُ عَلَى أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا فَهِيَ لَهُ صَدَقَةٌ».

وأخرج مسلم في صحيحه، عن النبي ﷺ أنه قال: «دينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ الله، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا: الذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ».

أن تكون النفقة حلالاً:

فمن حق الزوجة على زوجها أن تكون النفقة حلالاً، وهذا أهم ما يجب التحري فيه أن يطعم نفسه وأهله وأولاده حلالاً، فلا يجوز أن يهدم دينه ويهلك نفسه بالإنفاق عليهم من المال الخبيث والكسب الحرام؛ فإنه شؤم وعار في الدنيا ودمار وعذاب في الآخرة وعقاب، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: ٦).

ووقاية النفس والأهل النار تكون بتحري الحلال والبعد عن الحرام، فعن زيد ابن أرقم قال: كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج - أي: قد كاتبه على مال - و كان يجيئه كل يوم بخراجه، فيسأله: من أين أتيت به؟ فإن رضيه أكله و إلا تركه. قال: فجاءه ذات ليلة بطعام - و كان أبو بكر صائمًا - فأكل منه لقمة و نسي أن

يسأله، ثم قال له: من أين جئت بهذا ؟ فقال: كنت تكهنت لأناس بالجاهلية و ما كنت أحسن الكهانة، إلا أني خدعتهم . فقال أبو بكر: أف لك؛ كدت تهلكني ! ثم أدخل يده في فيه فجعل يتقيأ و لا يخرج، فقيل له: إنها لا تخرج إلا بالماء، فدعا بماء فجعل يشرب و يتقيأ حتى قاء كل شيء في بطنه . فقيل له: يرحمك الله، كل هذا من أجل هذه اللقمة ؟! فقال ﷺ: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها؛ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ» فخشيت أن ينبت بذلك في جسدي من هذه اللقمة !. رواه البيهقي في شعب الإيمان .

وفي الصحيحين: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُول عَنْ رَعِيَتِهِ» وفي الصحيحين- أيضًا -: «والرَّجُلُ رَاعٍ في أهْلَهِ ومَسْؤُول عَنْ رَعِيته» .

تعليمها :

فمن حق الزوجة على زوجها أن يسعى في تعليمها لدينها؛ لتعرف واجباتها وتأخذ بأسباب النجاة، ولتحسن القيام على بيتها بالإصلاح وعلى أولادها بالتربية الحسنة، فيعلمها سورتي (النساء والنور)؛ ففيهما الكثير مما يتعلق بأمور النساء وآداب المنزل، فهذا حق واجب على الزوج، وقد قرر أهل العلم بالشرع أن الرجل إذا كان قائمًا على أهله بالتعليم الصحيح؛ امتنع على المرأة الخروج من البيت لسؤال العلماء،وكذلك إذا كان ملمًا بالإجابات الصحيحة للأسئلة الشرعية، أما إذا لم يكن هذا أو ذاك فلها - بل عليها - أن تخرج للاستفتاء والسؤال، ويأثم الرجل بمنعها، ومهما حصل من إهمال منها أثمت هي وشاركها هو في الإثم؛ لأن تعلم أمور الدين من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق من أوجب الواجبات، فيجب على كل زوج مسلم أن تكون عنده مكتبة دينية لا أقول: مليئة بأمهات الكتب، ولكن بالكتب المهمة في العبادات والعقائد والأخلاق والسير، فنجد للأسف الشديد الكثير من الأزواج يحرصون كل الحرص على اقتناء أجهزة التلفاز والفيديو، وإذا كان ولابد هوائي ضخم - الدش- ولا يحرص على اقتناء كتاب في الفقه أو العبادات؛ حتى يؤدي

عبادته أداء صحيحًا ويعلم زوجته وأبناءه أهم أمور دينهم؛ فالله سبحانه سوف يسأله يوم القيامة عنهم، قال ﷺ: «**والرَّجُلُ رَاعٍ في أهْلَه ومَسْؤول عَنْ رَعِيته**» . لن يسأل يوم القيامة عن المسلسلات والأفلام؛ لماذا لم يحط بها علمًا؛ بل سيسأل كيف انشغل بهذه المسلسلات عن أهله وأولاده؟ فماذا يقول لربه ذلك المضيع لزوجه وأولاده، الذين سوف يتعلقون برقبته يوم القيامة ويشكونه لربه؟! ألا فليتق الله هذا الزوج وأمثاله فيما استرعاه الله عز وجل .

فقد أخرج ابن حبان في صحيحه عنه ﷺ أنه قال: «**إنَّ الله سَائلٌ كُل راعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، أَحَفِظَ أَمْ ضَيَّعَ؟ حَتَّى يَسْأَلَ الرَّجُلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِه**» .

فمن أوجب الواجبات وآكد الفروض: فرض تلقينها اعتقاد أهل الحق، وتنقية قلبها وعملها من البدع، وتعليمها الوضوء والغسل والطهارة والصلاة وأحكام الحيض والنفاس والاستحاضة؛ إن العبادة بلا علم كالكتابة على ماء .

قال حميد بن عبد الرحمن: سمعت معاوية خطيبًا يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «**مَنْ يرد اللهُ به خَيْراً يُفَقِّهه في الدين، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ، واللهُ يُعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِه الأمةُ قَائمَةً عَلَى أَمْرِ اللَه، لا يَضُرهُم مَنْ خَالَفَهُم، حَتَّى يأتي أَمْرُ الله**» رواه البخاري .

قال علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه في قوله تعالى: ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ (التحريم:٦): أدبوهم وعلموهم. وقال قتادة: تأمرهم بطاعة الله وتنهاهم عن معصيته، وتقوم عليهم بأمر الله وتأمرهم به وتساعدهم عليه؛ فإذا رأيت معصية نهرتهم وزجرتهم .

إن ما يدمي القلوب ويحزن النفوس أن ترى رجلاً يؤنب ابنه ويضربه على أنه قصر في استذكار دروسه ولا يؤنبه ولا يضربه على ترك الصلاة، من أجل ذلك أصبحت بيوتنا جحيمًا لا يطاق؛ وذلك لأننا تركنا هدي ربنا وسنة نبينا ﷺ فأصبحنا نتخبط، لا ندري من أين نسير ؟ وكيف ننجو ؟ النور أمامنا ولا نراه،

الطريق واضح المعالم ولا نسلكه، أصبحنا نقلد الكفرة الفجرة ولا نتمثل بحياة الصحابة والتابعين - عليهم رضوان الله أجمعين - والله عز وجل يقول: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ (الفرقان:٢٧) ولات ساعة مندم .

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ (طه: ١٢٤-١٢٦) .

فيا رجال الإسلام، علموا أهليكم الأخلاق، وتاريخ الإسلام، وسيرة الرسول ﷺ ، وتراجم أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين - عليهن رضوان الله تعالى- إن هذا يزكي أنفسهن، ويجعلهن فاضلات قانتات عابدات متعلقات بأهداب الفضيلة، ومكارم الأخلاق وهناءة السعادة الزوجية والهناءة البيتية والعيش الطيب، والراحة التي تنسيك أيها الزوج المسلم ما يصيبك خارج البيت من همٍّ وكدر، إنك تنقلب إلى هناءة وسرور، وتذكر قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ (الطور:٢١) .

حفظ أسرار الزوجية :

إن مما لها عليه ألا يتحدث إلى الناس بما يجري بينه وبين زوجته حال قضاء الوطر؛ فإنه مما لا ينبغي ولا يليق وليس من المروءة في شيء، فإن حفظ الأسرار واجب، ولاسيما مثل هذا السر الذي يتعلق بحرم المرء وعرضه، فإن التساهل في صيانة هذا السر برهان على ضعفه العقلي وخبث الضمير، ورذالة الخلق وتعمد الأذى للمرأة والحطّ من كرامتها وكرامة أهلها، وأقل ما فيه أنه نكث بعهد الزوجية وهو أمتن العهود وأغلظ المواثيق، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (النساء:٢١) .

إنها خيانة يترتب عليها أن يحل الشقاق محل الوفاق، والنفرة مكان الألفة،

والوحشة موضع الأنس، ولما له من عظيم الضرر جاء الشرع الشريف بتجريمه وذم من يفعله.

أخرج مسلم وأبو داود وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ منْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ الله مَنْزِلَةً يوم القيامة: الرجلُ يُفْضِي إلى امْرأَته وتُفْضِي إليه، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا**».

وروى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد: أنها كانت عنده فقال ﷺ: «**لعل رجلاً يَقُولُ ما يفعل بأهله، ولَعَلَّ امْرَأَةً تُخْبِرُ بِمَا فَعَلَتْ مَعَ زَوْجِهَا**». فأرم القوم - أي: سكتوا - فقلت: أي والله يا رسول الله؛ إنهن ليقلن وإنهم ليفعلون. قال ﷺ: «**فَلاَ تَفْعَلُوا؛ فإنَّمَا ذلك مثل الشيطان لقي شَيْطَانَة فَغَشِيَهَا والناس يَنْظُرُون**».

وفي رواية أخرى قال رسول الله ﷺ: «**هَلاَّ أَغْلَقَ أَحَدُكُم بَابَهُ وَأَرْخَى سِتْرَهُ ولَمْ يُحَدِّث أحدًا بِمَا فَعَلَ فِي بَيْته؛ فإنَّمَا مَثَلُ مَنْ فَعَلَ ذَلكَ مَثَلُ شَيْطَانٍ وَشَيْطَانَة لَقِيَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَه فِي وَسَطِ الطَّرِيقِ فَقَضَى حَاجَتَهُ مِنْهَا وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إلَيه**».

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: «لا تقوم الساعة حتى يتسافد الناس في الطريق تسافد الحمير؛ فيأتيهم إبليس فيصرفهم إلى عبادة الأوثان».

أن يغار عليها:

فمما لها عليه أن يغار عليها غيرة تقي عرضه أن يتدنس وشرفه أن ينثلم، وإن الغيرة أخص صفات الرجل الشهم الكريم، وإن تمكنها منه ليدل على رسوخه في مقام الرجولة الحقة الشريفة، ومن هنا كان كرام الرجال وأفذاذ الشجعان يمتدحون بالغيرة على نسائهم والمحافظة عليهن، وإن من شر صفات السوء ضعف الغيرة وموت النخوة، ولا يركن إلى ذلك إلا الأرذلون.

فالإسلام حمى كرامة المرأة؛ فحظر عليها الاختلاط بالرجال والخلوة بالأجنبي، وإن كان تقيًا وشريفًا، حتى ولو كان قريبًا منها كابن عمها وابن خالها أو قريبًا من زوجها وهو المدعو بالحمو - كَعَمِّه وابن عمه وابن خالته - حتى أخيه.

سئل سيدنا رسول الله ﷺ عن دخول الحمو على المرأة، فقال ﷺ : «**الْحَمُوُ الموتُ!**» .

أي أنه معادل للموت، وذلك لما يسببه من مشاكل ومصائب تؤدي في نهاية الأمر إلى خراب البيوت، وحدوث ما لا يحمد عقباه، وهذا ما تطالعنا به الصحف والمجلات كل يوم .

لقد حمى الإسلام كرامة المرأة؛ فمنعها الخروج من بيتها لغير ضرورة، وحظر عليها أن تخطو في الأسواق متعطرة متزينة، كل ذلك لحمايتها من العبث بها، وامتداد الأبصار إليها؛ لتبقى كرامتها محفوظة وعرضها مصونًا وشرفها مخفورًا، ولا فرق في هذا المنع بين عالمة وجاهلة وغنية وفقيرة، إنه حكم عام يتناولهن جميعًا، وإن تساهل الأزواج في هذا يخرم مروءتهم ويلوث شرفهم ويقدح في شهامتهم .

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه: «ألا تستحيون ؟! ألا تغارون ؟! يترك أحدكم امرأته تخرج بين الرجال !» .

ويجب أن ننبه هنا على نقطة مهمة وهي أن الغيرة حقيقة تكون عند ظهور علامات الفساد، وهو كل ما خالف نهي رسول الله ﷺ وهنا أمرها محمود، أما الغيرة دون ظهور علامات الفساد فهي مذمومة؛ لأنها تجعل الزوج أو الزوجة مظنة الاتهام دائمًا، وهذا أمر ينغص الحياة الزوجية، ويبعد السعادة والأمان عن الزوجين، ويجعلهما في شقاء وتعاسة، وغالبًا ما يؤدي ذلك إلى الفساد والخراب، ولقد أوضح الرسول الكريم ﷺ في الحديث الذي أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**منَ الغَيْرَةِ مَا يُحِبُّ اللَّهُ ومِنْهَا مَا يَكْرَهُ؛ فَأَمَّا مَا يُحِبُّ اللَّهُ فَالغَيْرَةُ فِي الرِيبَةِ، وَأَمَّا مَا يَكْرَهُ فَالغَيَرَةُ فِي غَيْرِ رِيبَةٍ**».

وهذه الغيرة تكون من سوء الظن، وهو أمر منهي عنه شرعًا، أما الغيرة التي لها أسبابها ومبرراتها فلا شيء فيها، وهي محمودة شرعًا .

أخرج البخاري، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « **دَخَلْتُ**

الجَنَّةَ - أو أَتَيْتُ الجَنَّة - فَأَبْصَرتُ قَصْرًا، فقلت: لمن هذا ؟! قالوا: لعمرَ بنِ الخَطَّاب، فأَرَدْتُ أنْ أَدْخُلَهُ، فَلَمْ يَمْنَعنِي إلا علْمِي بِغَيرتكَ» . فقال عمر بن الخطاب ﷺ: بأبي أنت وأمي يا نبي الله، أو عليك أغار ؟! .

وأخرج البخاري، عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَر مِنَ الله، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الفوَاحِشَ، وَمَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ المَدْحُ مِنَ الله**» .

قال الإمام الغزالي في الإحياء: الاعتدال في الغيرة هو ألا تتغافل عن مبادئ الأمور التي تخشى غوائلها، ولا يبالغ في إساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن؛ فقد نهى رسول الله ﷺ أن تتبع عورات النساء، وفي لفظ آخر: «**ألا تبغت النساء**» ولما قدم رسول الله ﷺ من سفره قال قبل دخول المدينة: «**لا تطرقوا النساء ليلاً**» .

وكان الحسن ﷺ يقول: «أتدعون نساءكم يزاحمن العلوج في الأسواق ؟! قبح الله من لا يغار !» ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**إن من الغيرة ما يحب الله عزَّ وجَلَّ، ومنها ما يبغض الله عَزَّ وجَلَّ، ومن الخيلاء ما يحب الله عزَّ وجَلَّ، ومنه ما يبغض الله عَزَّ وجَلَّ؛ وأما الغيرة التي يحب الله عزَّ وجَلَّ،، فالغيرة في الريبة، والغيرة التي يبغض الله عَزَّ وجَلَّ فالغيرة في غير ريبة، والاختيال الذي يحب الله عَزَّ وجَلَّ اختيال الرجل بنفسه عند القتال وعند الصدقة، والاختيال الذي يبغض الله عزَّ وجَلَّ الاختيال في الباطل**» رواه أبوداود والنسائي وابن حبان .

وقال الشاعر في الغيرة المذمومة - والتي تكون في غير محلها -:

إذا الغيرةُ اسْتَوْطَنَتْ مَنْزِلاً
وكَانَتْ أوامِرُها نَافِذَة
سَتَجْلُو السعادةُ في حِينِهَا
مِنَ البَابِ أو فَتْحَة النَّافِذَة

مخالقتها بخلق حسن:

مما لها عليه من الحقوق: أن يخالقها بخلق حسن ويعاشرها بالمعروف؛ فإن فعل فقد ذهب حسن الخلق بخيري الدنيا والآخرة، وإن الرجل ليبلغ بحسن خلقه منازل

في الجنة لا يبلغها بعمل آخر، ولذلك قال ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه: «**أَكْمَلُ المؤمنينَ إيمانًا أَحْسَنُهُم خُلُقًا، وخِيارُكُم خِيَارُكُم لِنِسَائِهِم خُلُقًا**» رواه الترمذي.

وسئل ﷺ عن أكثرِ مَا يُدْخِلُ النَّاس الجَنَّة، فقال ﷺ: «**تَقْوَى اللهِ وحُسْنُ الخُلُقِ**» رواه مسلم.

فحسن الخلق جامع للمكرمات كلها، ومَنْ حَسُنَ خُلُقه مع أهله؛ عاش في بحبوحة من السعادة وغمره الهناء والسرور.

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي**» رواه ابن ماجه والترمذي.

وآخر ما أوصى ﷺ ثلاث كلمات، ظل يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفي كلامه، جعل يقول - كما رواه النسائي وابن ماجه -:

«**الصَّلاةَ الصَّلاةَ ومَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم، لا تُكَلِّفُوهُم مَا لا يُطِيقُونَ، اللهَ اللهَ في النِّسَاءِ؛ فَإِنَّهُنَّ عوَانٌ** - أي: أسيرات - **في أيديكم، أَخَذْتُمُوهُنَّ بعهد اللَّه، واستَحْلَلْتُم فُرُوجَهُنَّ بكَلِمَةِ الله** - وفي رواية الشيخين - قال ﷺ: «**استَوصُوا بالنِّسَاء؛ فإنَّ المَرأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وإنَّ أعوجَ ما في الضلعِ أعلاهُ؛ فَإنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وإنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاستَوصُوا بِالنِّسَاءِ خيرًا**»(١).

ومن العجب العجاب أن ترى الرجل خارج منزله يضحك ويكون مسرورًا؛ فإذا دخل بيته على زوجه وأولاده اكفهر وجهه، وجمدت الابتسامة على شفتيه؛ فنقول لهذا وأمثاله من أشباه الرجال: من أولى ببسط الوجه، أهل بيتك أم أصحابك ؟! ألا فليتق الله هؤلاء في أهليهم، فحري بالمسلم أن يكون ودودًا لطيفًا مع أهله مثلما كان رسول الله ﷺ وأصحابه الغر الميامين.

احتمال أذاها:

فالزوج المسلم عليه أن يتحمل أذى زوجته، ويتغافل عن كثير مما يبدر منها؛

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٤٦٨).

رحمة بها وشفقة عليها، وقد أمر الله عز وجل بمعاشرة النساء بالمعروف؛ فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٩).

إن احتمال الأذى من المرأة عند طيشها وغضبها من الخلق الكريم، وقد كان ﷺ أعظم الناس احتمالاً؛ حلمًا وكرمًا منه ﷺ.

ولقد بين رسول الله ﷺ أن أحسن الناس خلقًا أحسنهم خلقًا مع نسائهم فقال: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُم خُلُقًا، وخِيَارُكُم خِيَارُكُم لِنِسَائِهِم».

يقول الحكيم:

إذا كنتَ في كُلِّ الأمور مُعَاتِبًا
صديقَكَ لَمْ تَلْقَ الَّذِي لا تُعَاتِبُه
فَعِشْ وَاحِدًا أَوْ صِلْ أخَاكَ فَإِنَّه
مُقَارِفُ ذنبًا مَرَّةً ومُجَانِبُه
إذا أنتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا على القَذَى
ظَمِئْتَ وأيّ الناسِ تَصْفُو مَشَارِبُه
ومَنْ ذَا الذي تَرضَى سَجَاياهُ كُلُّها
كَفَى المرءُ نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهُ

إن الإسلام أمر بإعطاء حق الزوجة، كما أمر بإعطاء حق نفسه وحق الله في العبادة؛ فقد قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «**يَا عَبْدَ اللَّه، أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيلَ؟** قلت: بلى يا رسول الله. قال: **فَلَا تَفْعَل، صُمْ وَأَفْطِر، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإِن لِعَيْنِكَ عليك حقًّا وإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حقًّا**» رواه البخاري.

بالإضافة إلى هذا فقد نهى الرسول ﷺ عن شتم المرأة، وعن ضرب وجهها، وعن هجرها أمام الناس، ولو استحقت الضرب والهجران؛ فقد قال ﷺ عندما

سُئل: مـا حق الزوجة علـى الزوج؟ قال ﷺ: «**تطعـمهـا إذا طعمت وتكسـوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت**» رواه أحمد وأبو داود.

هذا وقد توجد عند الزوجـة صفة من الصفات لا تعـجب الزوج؛ فلا ينبغي في هذه الحالة أن ينظر إليها من هذه الصفة فقط؛ فتبدو في نظره كل صفاتها سيئة، فقد توجد مقـابلها صفة أخـرى حسنة، وهذا ما أشار إليـه الرسول ﷺ في قوله: «**لا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً؛ إنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ**». أو قال: «**غَيْرَهُ**». رواه مسلم.

ثم إنه يجب أن يعرف أن المرأة لا تكون مـثالية في سلوكـها وتصرفاتهـا كلها؛ فالتكوين البيـولوجي الذي قدره الله سبحانه وتعالى جـعلها أكثر ضعفًـا في عزيمتها وإرادتها وشخصيتها بوجه عام.

وهذا ما يجعلها تقصر في أعمالها ولا تتـمها، ولا تقوم بواجبها كما ينبغي، في هذه الحالة تحمل هذا النقص منها ما أمكن، ولكن لا ينبغي في نفس الوقت أن تترك على حريتها في كل تصرفاتها؛ فتعـوج أكثر وتهمل أعمالها ولا تؤديها بالدرجة التي تسـتطيع أداءها، وإلى هذا المعنى أشـار الرسول ﷺ في قـوله: «**إنَّ المرأةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ؛ فَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وبِهَا عَوَجٌ، وَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا، وَكَسْرُهَا طَلاَقُهَا**» رواه مسلم.

المداعبة والممازحة:

مما لها عليه أن يمازحها ويداعبها؛ فإن المداعبة تطييب لقلبها وإراحة لنفسها وجبر لخاطرها، وإن في ذلك تنشيطًا إلى العمل عن رغبة في إرضاء الزوج وحبٍّ له.

وكان ﷺ يمزح مع النساء؛ تطييبًا لهن، روى أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث عائشة رضي الله عنها بسند صحيح: أنه ﷺ كان يسابقها في العدو، فسبقته يومًا، وسبقها في بعض الأيام، فقال ﷺ: «**هذه بتلك**»، وفيما رواه الحسن بن سفيان في مسنده، عن أنس رضي الله عنه: أنه ﷺ كان من أفكه الناس مع نسائه.

أخرج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إن من أَكْمَلِ المؤمنين إيمانًا: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وأَلْطَفُهُم بِأَهْلِهِ» .

على أن المرء إذا مازح أهله أن يقول صدقًا، ولا يكذب، متأسيًا برسول الله ﷺ الذي صح عنه أنه قال - وهو الصادق المصدوق -: «إني لأمزح، ولا أقول إلا صدقًا» .

فقد قال ﷺ لعمته صفية يومًا: «لن تدخل الجنة عجوز» . فبكت، فقال لها ﷺ وهو يضحك: « الله تعالى يقول : ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا﴾» (الواقعة:٣٥-٣٧) .

ويجب على الرجل أن يكون معتدلاً في مزاحه معها، فلا يزيد إلى أن تجترئ عليه؛ فإن ذلك يفسد خلقها، ويزيل مهابته من قلبها .

العدل :

مما لها من الحقوق عليه: العدل بينها وبين أزواجه الباقيات، إن كان متزوجًا بأكثر من واحدة؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا﴾ (النساء:٣) فالعدل في الآية السابقة هو العدل الواجب في القسم بين النساء من طعام وكسوة ومنزل ومبيت .

والعدل في قوله عز وجل: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ (النساء:١٢٩) هو العدل في الحب الخارج عن اختيار المرء، ولا يلزم منه نفي استطاعة العدل في القسم الداخل في اختياره يدل عليه ختام الآية: ﴿فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء:١٢٩) .

والمعلقة: هي التي لا يحسن زوجها عشرتها؛ فلا هي مطلقة فتتزوج، ولا يحسن زوجها عشرتها .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل ويقول: «**اللهم هذا قسمي فيما أملك؛ فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**» يعني: المحبة القلبية، رواه أبو داود.

وذلك لأن السيدة عائشة رضي الله عنها كانت أحب إليه من سائر أزواجه رضي الله عنهن وصفوة القول أن التعديد جائز بشرط العدل، والجور فيه حرام.

فقد أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذَا كَانَ عِنْدَ الرجل امرأتان فلم يعدل بينهما؛ جاء يوم القيامة وشقه ساقط**» أي: ليعرف أهل الجمع أنه كان في الدنيا جائرًا.

فالعدل يحقق الاستقرار للأسرة، وينشر عليها السعادة والهناءة والسرور.

الاستمتاع:

إن الإسلام أمر بإعطاء حق الزوجة، كما أمر بإعطاء حق نفسه وحق الله في العبادة؛ فقد قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «**يَا عَبْدَ اللَّه، أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَيلِ؟** قلت: بلى يا رسول الله. قال ﷺ: «**فَلا تَفْعَل، صُمْ وَأَفْطِر، وَقُمْ ونَمْ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حقًا، وإن لِعَينِكَ عليك حقًا وإنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حقًا**» رواه البخاري.

ولقد حرم الإسلام على الزوج أن يتعمد هجر الزوجة وإرهاقها؛ لذا كان الإيلاء- الحلف على عدم قربان الزوجة مدة أربعة أشهر فأكثر - أمرًا تأباه الشريعة؛ وبناء على ذلك قرر الإسلام أن المعاشرة الزوجية حق لكل من الزوجين، ولا يجوز لأحدهما أن يقصر في حق صاحبه في هذه الناحية، كما أكد حق كلا الزوجين في الاستجابة لهذا الدافع، ورغب في المعاشرة الزوجية إلى حد اعتبارها قربة وعبادة تستحق الأجر والثواب من الله تعالى.

فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**... وفي مباضعتك أهلك صدقة**». فقال أبو ذر: أيؤجر أحدنا في شهوته ؟! قال ﷺ: «**أرأيت لو وضعته في**

غير حل، أكان عليك وزر ؟ قال: نعم . قال : أفتحتسبون بالشر ولا تحتسبون بالخير ؟» رواه أحمد.

وهناك قصة طريفة حدثت أيام عمر بن الخطاب ﷺ، فعن محمد بن معن الغفاري قال: أتت امرأة إلى عمر بن الخطاب ﷺ فقالت: يا أمير المؤمنين، إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل، وأنا أكره أن أشكوه، وهو يعمل بطاعة الله عز وجل! فقال لها: نِعْمَ الزوج زوجك . فجعلت تكرر هذا القول، ويكرر عليها الجواب . . . فقال له كعب الأسدي: يا أمير المؤمنين، هذه المرأة تشكو زوجها في مباعدته إياها عن فراشه، فقال عمر: كما فهمت كلامها؛ فاقض بينهما . فقال كعب: عليّ بزوجها . فأُتِي به، فقال له: إن امرأتك هذه تشكوك! قال: أفي طعام أو شراب ؟ قال: لا . فقالت المرأة:

يأيها القاضي الحكيمُ رُشْدُهُ

أَلْهَى خَلِيلِي عن فِرَاشِي مَسْجِدُهْ

زَهَّدَهُ في مَضْجَعِي تَعَبُّدُه

فَاقْض القَضَا كَعْبٌ لا تَرْدُدُهْ

نَهارُهُ ولَيْلُه ما يَرقُدُه

فَلَسْتُ في أَمْرِ النِّسَاءِ أَحْمَدُه

فقال زوجها:

زهدني في النِّسَاءِ وفي الحِجَل

أني امرؤٌ أذْهَلَنِي مَا نَزَلْ

فِي سُورةِ النَّحْلِ وفي السَّبْعِ الطُّوَلْ

وفِي كِتَابِ اللَّهِ تَخْوِيفٌ جَلَل

فقال كعب:

إن لهـــا عليك حـــقًّـــا يا رَجُلْ

نَصِـيبَـهـا في أرْبعٍ لِمَنْ عَـقَلْ

فَأَعْطِهـــا ذَاكَ ودَعْ عَنْــكَ العِلَلْ

ثم قـال: إن الله عز وجل قـد أحل لك من النساء مـثنى وثلاث ورباع؛ فلك ثلاثة أيام وليـاليهن تعبـد فيـهن ربك. فقال عـمر: والله مـا أدري من أي أمر بك أعجب؟ أَمِـنْ فهمك أمـرهما أم مِنْ حـكمك بينهمـا ؟! اذهب فقـد وليتُكَ قـضاء البصرة.

أن تصل أرحامها:

مما لها عليه السـماح لها بزيارة أهلها إذا أرادت ذلك، والسمـاح لأهلها بزيارتها في بيتها في أوقات معلومة؛ لأن ذلك من صلة الرحم وهو واجب في الإسلام؛ فإذا منع أبويها من زيارتهـا، فليس له الحق في أن يمنعها من زيارتهم ولو مـرة واحدة في الشهر؛ لأنه إن فعل ذلك يأثم.

عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ[1] قال: «**إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم: هذا مـقام العائذ بك من القطيعـة. قال: نعم؛ أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطـع من قطعك؟ قـالت: بلى. قـال فـهـو لك**». ثم قـال رسـول الله ﷺ: **اقـرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾** (محمد: ٢٢، ٢٣).

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ فِي رِزْقِهِ، أَو يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ؛ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**» أخرجه البخاري.

وعن عائشـة ﷺ قالت: قـال رسول الله ﷺ: «**الرَّحِمُ مُعَلَّقَـةٌ بِالعَرْشِ، تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ**» رواه مسلم.

---

(١) رواه البخاري (٥٥٢٨) كتاب الأدب.

مساعدتها ومعاونتها عند الحاجة:

فالزوج الذي يريد أن يكون بيته سعيدًا يرفرف عليه الود والوئام، عليه أن يساعد زوجته، ولا سيما عند الحاجة وخاصة في الحالات المرضية، ويتأسى في ذلك بالرسول ﷺ الذي يقول: «**خِيَارُكُم خِيَارُكُم لِنِّسَائِهِم**» رواه ابن ماجه والترمذي.

ولهذا لما سُئِلت عائشة ﷺ عن عمل الرسول ﷺ في البيت قالت: «كان يكون في مهنة أهله؛ فإذا سمع الأذان خرج». رواه البخاري.

التلطف والمؤانسة:

وليست حاجة المرأة من زوجها مادية تقتصر على النفقة والكسوة ونحوها فحسب؛ بل لها حاجة نفسية أن يتلطف بها ويطيب نفسها ويدخل السرور عليها، فهذا من تمام المعاشرة بالمعروف، ولا يظن أن هذا مما ينافي وقار الرجل ويسقط من هيبته؛ فقد كان سيد البشر محمد ﷺ يسابق أم المؤمنين عائشة زوجه ﷺ فتسبقه مرة ويسبقها أخرى ويقول ﷺ: «**هذه بتلك**» رواه أحمد وأبو داود.

احترام ملكيتها الخاصة وألا يتصرف فيها إلا بإذنها:

لقد احترم الإسلام المرأة بعد أن كانت لا ترث ولا تملك في الجاهلية؛ بل كانت تُوَرَّث وتُمْتَلك، فقرر الإسلام لها نصيبًا من الإرث، وجعل المهر واجبًا، فيجب على الزوج أن يحترم لها ملكيتها ولا يتصرف فيها إلا بإذنها، قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا**﴾ (النساء: ٤).

فالإسلام قد احترم هذه الملكية -كما ذكرنا آنفًا- قال عزوجل: ﴿**لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ (النساء: ٣٢).

■ الفصل الرابع ■

ذكر الله عز وجل

قد يتساءل القارئ ويقول: ما الصلة بين ذكر الله سبحانه وتعالى وموضوع الكتاب؟! وللإجابة عن ذلك نقول : إن ذكر الله عز وجل هو أساس السعادة في الدارين، وما دام ذكر الله جل شأنه وتباركت أسماؤه وجلت قدرته من أسباب السعادة في الدارين؛ لذلك كان ولابد أن يكون فصلاً من هذا الكتاب، والذي يدور حول السعادة الأسرية .

فكثير من الأسر المسلمة تشكوا من المشاكل، لأتفه الأسباب يثور الزوج في وجه زوجته، وتتجهم الزوجة في وجه زوجها، وترى كثيرًا من البيوت تعلوها الكآبة والضجر، الزوج يخرج من بيته ويتمنى ألا يعود إليه وكذلك الزوجة؛ فهل يا ترى فكر كل واحد منهما ما سبب ذلك؟ وما العلة الكامنة وراء ذلك الشقاء وهذه التعاسة؟ والإجابة عن ذلك سهلة يسيرة؛ لقد خلت بيوتنا من ذكر الله سبحانه وتعالى، وامتلأت بالغناء الماجن وأفلام الفيديو الداعرة - إلا من رحم ربي- فتحقق وعيد الله عز وجل حيث قال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ (طه:١٢٤-١٢٦) .

نسينا ذكر الله تعالى وامتلأت آذاننا بما يغضب الله عز وجل فولَّت السعادة مدبرة، وأقبلت التعاسة مسرعة، وصار كل منا يعيش في شقاء؛ إذن ما الحل؟!.

الحل يكمن في الرجوع إلى ذكر الله سبحانه والابتعاد عن سماع هذا الهراء المسمى بالغناء، وأن نملأ أسماعنا وأعيننا من كتاب الله عز وجل، وأن نرطب ألسنتنا بذكر الله جل جلاله؛ لقوله ﷺ لعبد الله بن بُسر : «لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[1] .

---

(١) رواه ابن حبان، وابن ماجه، وأحمد، والترمذي، وقال: حسن غريب، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد.

قال عز من قائل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد:٢٨) .

يقول صاحب الظلال في تفسير هذه الآية: ذلك الاطمئنان بذكر الله في قلوب المؤمنين حقيقة عميقة، يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم فاتصلت بالله، يعرفونها ولا يملكون بالكلمات أن ينقلوها إلى الآخرين الذين لم يعرفوها؛ لأنها لا تنقل بالكلمات إنما تسري في القلب، فيستروحها ويهش لها، ويندى بها ويستريح إليها، ويستشعر الطمأنينة والسلام، ويحس أنه في هذا الوجود ليس مفردًا بلا أنيس؛ فكل ما حوله صديق، إذ كل ما حوله من صنع الله الذي هو في حماه، وليس أشقى على وجه هذه الأرض ممن يحرمون طمأنينة الأنس إلى الله، ليس أشقى ممن ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكون؛ لأنه انفصم من العروة الوثقى التي تربطه بالله خالق الكون، ليس أشقى ممن يعيش لا يدري لِمَ جاء ولِمَ يذهب؟! ولِمَ يعاني ما يعاني في الحياة؟! ليس أشقى ممن يسير في الأرض يوجس من كل شيء خيفة؛ لأنه لا يستشعر الصلة الخفية بينه وبين كل شيء في هذا الوجود، ليس أشقى في الحياة ممن يشق طريقه فريدًا وحيدًا شاردًا في فلاة، عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هادٍ ولا معين، وإن هناك للحظات في الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكنًا إلى الله مطمئنًا إلى حماه، مهما أوتي من القوة والثبات والصلابة والاعتداد . . . . ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كله؛ فلا يثبت لها إلا المطمئنون بالله . قال الله عز وجل : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد:٢٨) [١] والله -عز وجل- قد ذكر أثر الذكر في قلوب المؤمنين، فقال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال:٢) .

---

(١) «في ظلال القرآن» ج(٦)، ص(٢٠٦٠) .

وقال تباركت أسماؤه : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر:٢٣) .

بل لقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بذكره في أكثر من آية من آيات القرآن الكريم، قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:٤١) .

وقال جلت حكمته : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة : ١٠) .

وقال جل شأنه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (المنافقون:٩)، ولو كان لذكر الله حد معين لما أمر به المؤمنين عند لقاء الأعداء، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال:٤٥) .

قال القرطبي: لو رَخَّص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا، يقول الله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (آل عمران:٤١)، ولَرُخِّصَ للرجل يكون في الحرب، يقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال:٤٥) .

ولقد أعد الله مثوبة كبيرة للذاكرين والذاكرات، قال سبحانه : ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(الأحزاب :٣٥)[(١)] .

ومَنْ منا لا يريد المغفرة ودخول الجنة ؟ والصحابة الكرام الأطهار -كما ورد في كتب السيرة -عندما يمر الواحد بين دورهم يسمع دويًّا كدوي النحل؛ من كثرة ذكر الله عز وجل، هذا يستغفر، وذاك يقرأ القرآن، وهؤلاء يقومون الليل، ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة التي كانت حياته كلها ذكرًا لله عز وجل حتى إذا

(١) «تفسير القرطبي» ج(٨)، ص(٢٤) .

نام لسانه لا ينام قلبه عن ذكر الله، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:٢١) .

واعلم أيها الزوج المسلم وأيتها الزوجة المسلمة أن قراءة القرآن الكريم من أفضل الأذكار تلفظًا به تلاوة، ونورد هنا بعض الأحاديث النبوية الشريفة في فضل تلاوة القرآن الكريم وتعلمه .

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ المُؤْمن الذي يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الأُتْرُجة؛ ريحُهَا طَيبٌ وطَعْمُها طَيِّبٌ، ومَثَلُ المؤمنُ الذي لاَ يقْرَأُ القُرآنَ كَمَثَلِ التَمْرَة؛ لا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ المُنَافق الذي يَقْرَأُ القُرآنَ كَمَثَلِ الرَيْحَانَة؛ ريحُهَا طَيِّبٌ وطَعْمُهَا مُرٌ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الذي لاَ يَقْرَأُ القُرآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَة؛ لاَ رِيحَ لَهَا وَطَعْمها مُر»(١) .

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعلَّمَهُ»(٢) .

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الذي يَقْرَأُ القُرآنَ وَهُوَ حَافظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَة الكِرَامِ البَرَرَة، وَمَثَلُ الذي يَقْرَأُ القُرآنَ وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ وَهُوَ عَلَيْه شَدِيدٌ فَلَهُ أَجْرَانِ»(٣)

ونختم هذا الفصل بهذين الحديثين الشريفين في فضل الذكر:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله عز وجل: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدي بِي، وأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي؛ فَإِنْ ذَكَرَنِي في نَفْسه ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي في مَلأ ذَكَرْتُهُ في مَلأ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُم، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبتُ إليه ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إليه بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» متفق عليه .

وعنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سَبَقَ المُفَرِّدُون» قالوا: ومَا المفرِّدونَ يا رَسُولَ الله؟! قال ﷺ: «الذَاكِرونَ الله كَثِيرًا والذَاكِرات» رواه مسلم .

---

(١) رواه الستة، وعند أبي داود «الفاجر» بدل «المنافق» .

(٢) أخرجه البخاري باب: «اغتباط صاحب القرآن»، والترمذي، وابن حبان، وأبو داود .

(٣) رواه البخاري، باب: «تفسير سورة عبس»، وابن حبان .

وتتمة للفائدة رأيت أن أذكر فضائل بعض السور الكريمة؛ حتى يتعهدها المرء وزوجه بالقراءة في البيت؛ حتى تحل عليهم السكينة وتغشاهم الرحمة ويطرد عنهم الشيطان، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «**لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ؛ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ**» رواه مسلم .

وفي الصحيحين، عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**مَن قرأ هاتين الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**[1]» ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾ (البقرة: ٢٨٥-٢٨٦)» ومعنى «كفتاه»: قيل: من شر الشياطين؛ فلا يكون له عليه سلطان[1] .

وخلاصة القول أن القرآن كله نور ورحمة وهداية، فعلينا أن نملأ بيوتنا بتلاوته حتى نطرد الشياطين؛ فبذكره سبحانه وتعالى تحل السعادة مرفرفة، وتنزل علينا السكينة، وتغشانا الرحمة، ويذكرنا الله عز وجل فيمن عنده .

---

(١) «التذكار في افضل الأذكار» للقرطبي ص(٢٢٥) .

■ الفصل الخامس ■

نماذج للقدوة

سوف أذكر لمن يريد أن يبني بيتًا سعيدًا بعض النماذج للقدوة الصالحة؛ كي يقتدي بها في تسيير دفة الأسرة إلى شاطئ السعادة وبرِّ الأمان، ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة؛ مصداقًا لقوله سبحانه وتعالى : **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾** (الأحزاب: ٢١) .

النموذج الأول: الرسول ﷺ:

فقد كان ﷺ يحافظ على شعور وكرامة أزواجه، ومما يروى في ذلك: محافظته على شعور وكرامة السيدة صفية بنت حُيَيّ بن أخطب أم المؤمنين رضي الله عنها زوج رسول الله ﷺ فقد كانت من يهود بني النضير، وقد حدث خلاف بينها وبين السيدتين عائشة وحفصة زوجتي رسول الله ﷺ فقالتا لها : «نحن أكرم على رسول الله ﷺ منك ! فشكت ذلك للحبيب المصطفى ﷺ فقال لها : «**ألا قلت فكيف تكونان خيرًا مني وزوجي محمد ﷺ وأبي هارون، وعمي موسى؟!**» .

ومما روي عنه ﷺ أنه هجر السيدة زينب أم المؤمنين شهرين كاملين عقوبة لها وتأديبًا؛ لأنها لقبت السيدة صفية باليهودية، فعن عائشة رضي الله عنها: « أن بعيرًا لصفية اعتل وعند زينب فضل من الإبل، فقال رسول الله ﷺ لزينب : «**إنَّ بَعِير صَفِيَّة قَدْ اعْتَلَّ؛ فلو أنك أعْطَيْتيها بَعيرًا**» . قالت : أنا أعطي تلك اليهودية ! فتركها، فغضب رسول الله ﷺ شهرين - أو ثلاثًا - حتى رفعت سريرها وظنت أنه لا يرضى عنها، قالت : فإذا أنا بظله يومًا بنصف النهار، فدخل رسول الله ﷺ فأعادت سريرها»[1] .

وروى البخاري وأبو داود وابن ماجه، عن أنس رضي الله عنه : «أن رسول الله ﷺ

---

(١) «قبسات من حياة الرسول ﷺ» للشيخ أحمد محمد عساف (ص٢٦٤) .

كان عند بعض نسائه -قال : أظنها عائشة - فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين مع خادم لها بقصعة فيها طعام - وفي رواية : فضربت عائشة بيدها فكسرت القصعة فضمها، وفي رواية: فأخذ رسول الله ﷺ الكسرتين فضم إحداهما إلى الأخرى، وجعل فيها الطعام ويقول ﷺ : **«غَارَتْ أُمكُم، كُلُوا !»** فأكلوا حتى فرغوا، فدفع القصعة وحبس المكسورة في بيته وقال ﷺ : **«طعامٌ بطعامٍ، وإناءٌ بإناء»** .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : « ما رأيت صانعًا طعامًا مثل صفية، صنعت لرسول الله ﷺ طعامًا فبعثت به، فأخذني أَفْكَلٌ - أي: رعدة شديدة - فكسرت الإناء، فقلت : يا رسول الله، ما كفارة ما صنعت؟ قال ﷺ : **«إناءٌ مِثْلُ إناء، وطعامٌ مِثْلُ طَعَامٍ»** .

ورُوي عن عائشة رضي الله عنها قالت : (زارتنا سودة يومًا، فجلس رسول الله ﷺ بيني وبينها؛ إحدى رجليه في حجري والأخرى في حجرها، فعملت له حريرة من النخالة، أو قال : خزيرة -من اللبن- فقلت : كلي فأبت، فقلت : لتأكلين أو لألطخن وجهك ! فأبت، فأخذت من القصعة شيئًا فلطخت به وجهها، فضحك رسول الله ﷺ فرفع رسول الله ﷺ رجله من حجرها لتستقيد مني، وقال لها: **«لَطخِي وَجْهَهَا»**. فأخذت من الصحفة شيئًا فلطخت به وجهي، ورسول الله ﷺ يضحك).

وروى أبو داود، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : (استأذن أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فسمع صوت عائشة رضي الله عنها عاليًا، فأهوى إليها أبو بكر ليلطمها وقال : أراك، ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ ! فأمسكه رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر مغضبًا، فقال رسول الله ﷺ : **«كيف رأيتني، أنقذتك من الرجل؟»**. فمكث أبو بكر أيامًا ، ثم استأذن بعد أن اصطلح رسول الله ﷺ وعائشة، فقال : أدخلاني في سلمكما كما أدخلتماني في حربكما . فقال رسول الله ﷺ : **«قد فعلنا»**) .

وسئلت عائشة رضي الله عنها : ما كان رسول الله ﷺ يصنع في بيته ؟ قالت : كان

بشرًا من البشر: يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخيط ثوبه، ويخدم نفسه، ويخصف نعله، ويعمل ما تعمل الرجال في بيوتهم، ويكون في مهنة أهله -يعني: خدمة أهله- فإذا سمع المؤذن خرج إلى الصلاة وفي لفظ: فإذا حضرته الصلاة قام إلى الصلاة.

النموذج الثاني للقدوة: فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين رضي الله عنها:

إن المرأة المسلمة في هذا العصر تعيش فراغًا في كل شيء.. فراغًا في القدوة.. فلا تجد من تقتدي بها في أخلاقها ودينها. فراغًا في الإيمان.. فلا تجد من يذكرها بالله تعالى ويطعم روحها من معاني القرآن والسنة. فراغًا في الوقت.. فتشكو من كثرة الأوقات وقلة الأعمال.. وفي مقابل ذلك تواجه هجمة شرسة لهدم حرمتها، وإبراز عورتها، وتضييع كرامتها، بألفاظ براقة، ودعايات خداعة، تنادي بحقوقها ومساواتها بالرجل .

تصوروا فتاة لا تجد القدوة الحسنة التي تعلمها وتهذبها وتربيها لا في البيت ولا في المدرسة ولا الكلية، وتعاني ضعفًا في الإيمان، والجهل بأحكام الدين، يصاحب ذلك الفراغ وتوفر المال، ثم يأتيها جند إبليس من كل حدب وصوب يزينون لها الخروج والغزل والتبرج واللهو، يوهمونها أن ذلك من حقوقها وأن فيه سعادتها وراحتها وملء فراغ وقتها وقتل الملل الذي في حياتها. ألا يدعوها كل ذلك إلى الانجراف إلى مواطن الخطر، وفساد الخلق، وضياع الحياء والدين؟

نحن في هذه الكلمة العابرة نحاول أن نبرز لأختنا المسلمة القدوة والأسوة التي تبحث عنها فلا تجدها، نجتهد في أن نقدم صورة مشرقة لفتاة مؤمنة صادقة تصلح أن تكون قدوة لكافة الفتيات والزوجات. هذه الفتاة لم يتجاوز عمرها العشرين، كانت صابرة دينة خيرة صينة قانعة شاكرة لله، بشرها النبي الكريم ﷺ بالجنة مع السيادة فيها، فهي سيدة نساء العالمين في زمانها. فمن هي؟

كيف نالت هذه الدرجة الرفيعة، في الوقت الذي يتهاوى فيه كثير من النساء، والشيطان يتخذهن غرضًا وهدفًا لكل مفسد .

قال ﷺ : «**أريتُ النَّارَ، فَإذَا أكْثَرُ أَهْلَها النِّسَاءَ**» رواه البخاري. لم تكن لتصل إلى ما وصلت إليه بالتبرج والسفور وتضييع حق الله عليها. لم تكن لتصل إلى الجنة والسيادة على نسائها وهي تخالل الشباب، غارقة في شهواتها. لم تكن لتنال ذلك، وهي تقتدي بالكافرات، وتركب كل ما يزينه الشيطان لها. لم تكن كذلك إلا وهي صاحبة مبادئ وإيمان، صاحبة طاعة وعبادة لربها، قرة عين لزوجها، قائمة بحقه وحق بيتها، حافظة لعرضها وعفتها وجمالها، بعيدة عن أعين الرجال، محتشمة صادقة مؤمنة خاشعة، فأيما فتاة أرادت أن تلحق بركبها، فلتركب مطيتها، ولتقتد بسيرتها، ولتتخذها أسوة .

قال ﷺ : «**فَاطمَةُ سَيدَةُ نسَاءِ أهل الجنة**»، إنها ابنة رسول الله ﷺ ، الطاهرة النقية الطائعة المتعبدة الكارهة للتبرج والسفور، الصابرة على ما أصابها ﵂. ولدت قبل البعثة بقليل، وتزوجها علي ﵁، في السنة الثانية للهجرة، وولدت له الحسن والحسين، كان أبوها رسول الله ﷺ يكرمها ويحبها لصدقها ودينها وصبرها.

قالت عائشة ﵂: «**فأقبلت فاطمة تمشي ما تخطئ مشيتها مشية رسول الله ﷺ ، فقام إليها أبوها وقال: «مرحبا بابنتي»**. ما قام لها وما أحبها إلا لعظم شأنها عند ربها.

لم تكن فتاة ككل الفتيات، ولم تكن امرأة ككل النساء، لم تفخر على النساء والقرينات بأبيها، ولم تتعالى على زوجها بمنزلة أبيها، بل كانت ﵂ نعم الزوجة لزوجها، تقوم على خدمته، وتسعى في رضاه، وتأتمر بأمره وتقف عند نهيه .مثال رائع لكل زوجة مع زوجها. . جاءت تشكو إلى رسول الله ﷺ ما تلقى في يديها من الرحى إذا طحنت، وفي نحرها إذا حملت القربة، حتى أصابها الضر والجهد، وتسأله خادمًا، فجاءها رسول الله ﷺ وعلي ﵁ معها، وقد دخلا في فراش إذا

غطيا رؤوسهما تكشفت أقدامهما وإذا غطيا أقدامهما تكشفت رؤوسهما، فقال لهما: «**ألا أدلكما على خير مما سألتما إذا أخذتما مضاجعكما أو آويتما إلى فِراشكمَا فسبحَا ثلاثًا وثلاثين واحمدا ثلاثًا وثلاثين وكبراَ أربعًا وثلاثين، فـهو خير لكما من خَادمٍ**» رواه أحمد، انظر : صحيح الجامع

فرضـيت وقنعت وصبـرت على الفقـر والشدة، رضي الله عنهـا، وهي بذلك ترسل رسالة حيـة إلى كل امرأة رضيت بالدعة والخمـول، وآثرت الخروج من البيت والتسكع في الطرقات تاركة عمل بيتهـا وواجباتها، إن ذلك ليس من سبيل المؤمنات العاقلات السـابقات، وتعلّم كل امرأة تتخذ خـادمة في بيتها أن تسـبيحها وتحـميدها وتكبيـرها لله تعالى هي وزوجهـا خير من خادم، وأعـون على قضاء حـوائج البيت وأعماله، لو كانوا يعلمون.

أما عن طاعتها لزوجهـا، فقد كانت تعلم وهي التي تربت في بيت النبوة والدين أن طاعة الزوج من موجبات دخول الجنة: « **إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت بَعْلها، دخلت من أي أبواب الجنة شاءت**» رواه ابن حبان . لما مرضت أتى أبو بكر فاستأذن فقـال علي ﷺ: يا فاطمة، هذا أبو بكر يستأذن عليك فقـالت: «أتحب أن آذن له؟» قال: «نـعم»، فأذنت له. قـال الذهبي: «علمت السنة ﷺ، فلم تأذن في بيت زوجـها إلا بأمـره». . ونساء اليـوم يغلب عليـهن عصـيان الزوج، والتـعـدي على حـقوقـه، كـمـا أن الأزواج كـذلك لهم نصـيب من ظلم الزوجات، لكن عليًا وفاطمة ﷺ كانا خـير زوجين لبعضهما، كانا يلتـمسان رضا بعضـهما. . لما أراد علي ﷺ أن يتـزوج عليهـا ابنة أبي جهل، غضـبت، وغضب لغضبهـا رسول الله ﷺ، وقد كان يغضب لغضـبها، ويقول: «**فاطمة بضْعَة مني، فمـن أغضبهـا فقـد أغضبني**» فتـرك علي ﷺ الخطبة رعاية لهـا، فما تزوج عليها ولا تسرى حتى مـاتت. . والتعدد حلال بنص الكتـاب، لكن رسول الله ﷺ كره أن تجـتمع ابنتـه وابنة عدو اللـه أبي جهل تحت رجل واحـد؛ لما في ذلك من الأذى لفاطمة ﷺ والعار، ولأنها أصيبت في أمها ثم أخواتها واحدة بعد واحدة، فلم يبق

لها من تستأنس به ممن يخفف عليها الأمر إذا تزوج عليها، فلذا كرهت، ولأجلها كره رسول الله ﷺ ذلك. وقد كانت رضي الله عنها تحب الحشمة والستر وتكره التبرج والخلاعة والسفور، قالت لأسماء بنت عميس رضي الله عنها: «إني أستقبح ما يصنع بالنساء، يطرح على المرأة الثوب، فيصفها» تقصد إذا ماتت ووضعت في نعشها، قالت: «يابنة رسول الله، ألا أريك شيء رأيته بالحبشة؟» فدعت بجرائد رطبة فحنتها، ثم طرحت عليها ثوبًا، فقالت فاطمة: «ما أحسن هذا وأجمله، إذا مت فغسليني أنت وعلي، ولا يدخل علي أحد». هذه الطاهرة النقية تشعر بقلق خشية أن يبدو شيء من وصف جسدها وهي ميتة، فكيف بها وهي حية؟ وهذه رسالة بليغة لكل مسلمة رضيت أن تظهر زينتها ووصف جسدها لكل ناظر، وسارت أمام الرجال متبرجة سافرة، لم يصب أحد بمثل مصابها؛ ماتت أمها خديجة رضي الله عنها، ثم إخوتها وأخواتها جميعًا ولم يبق لها من أهلها إلا أبوها.

وفي يوم جاءت إليه ﷺ فأسر لها بقرب رحيله، فبكت بكاءً مرًّا، تخيلت نفسها وقد فقدت أعز الناس وصارت وحيدة من أهلها، فلما رأى رسول الله حزنها وبكاءها أسر لها بأنها أول من يتبعه من أهله، فزال حزنها وكربتها، وداخلها السرور، فضحكت، وقد ذكر ابن حجر أن من أسباب فضلها على غيرها من النساء صبرها على وفاة أبيها، فإن كل بنات رسول الله متن في حياته فكن في صحيفته إلا هي فقد مات في حياتها فكان في صحيفتها، يدل على ذلك أنه لما رأى حزنها وبكاءها على قرب وفاته بشرها فقال: «**أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نساء أهل الجَنَّة؟**» يعني إن صبرت واحتسبت، وفي رواية عند الطبري أنه قال لها: «**أحسب أني ميت في عامي هذا، وأنه لم ترزأ ـ تصب ـ امرأة من نساء العالمين مثلما رزئت، فلا تكون دون امرأة منهن صبراً**»، فبكيت، فقال: «**أنت سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم، فضحكت**» ولما ثقل بالنبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب. فقالت: واكرب أبتاه فقال: «**ليس على أبيك كرب بعد اليوم**»، فلما مات حزنت عليه، وبكته وقالت: يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه ياأبتاه، أجاب ربا دعاه .يا أبتاه، جنة الفردوس مأواه.. وقالت بعد دفنه: «يا أنس،

كيف طابت نفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله ﷺ ؟!». وعاشت بعده حزينة مكروبة مريضة سبعين ليلة ثم ماتت بعده بشهرين أو ثلاث. كانت زاهدة رضي الله عنها، ماتت وعمرها ثمان وعشرون رضي الله عنها، فهي أسوة حسنة لكل مسلمة في أخلاقها وصبرها وطاعتها وحشمتها وعفتها، هدى الله النساء للسير على سنتها.

النموذج الثالث للقدوة: امرأة شريح القاضي :

يحدثنا التاريخ أن شُرَيحًا القاضي قابل الشَعْبِيَّ يومًا، فسأله الشعبي عن حاله في بيته، فقال له : من عشرين عامًا لم أر ما يغضبني من أهلي . قال : وكيف ذلك ؟! قال شُريح: من أول ليلة دخلت على امرأتي رأيت فيها حسنًا فاتنًا وجمالاً نادرًا قلت في نفسي: فلأطهر نفسي وأصلي ركعتين شكرًا لله، فلما سلمت وجدت زوجتي تصلي بصلاتي وتسلم بسلامي، فلما خلا البيت من الأصحاب والأصدقاء قمت إليها فمددت يدي نحوها، فقالت : على رسلك يا أبا أمية، كما أنت، ثم قالت : الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأصلي على محمد وآله، إني امرأة غريبة لا علم لي بأخلاقك؛ فبين لي ما تحب آتيه، وما تكره فأتركه، وقالت : إنه كان لك في قومك من تتزوجه من نسائكم، وفي قومي من الرجال من هو كفء لي، ولكن قضى الله أمرًا كان مفعولاً، وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله به - إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان - أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولك، قال شُريح : فأحوجتني والله ياشعبيُّ إلى الخطبة في ذلك الموضع، فقلت: الحمد لله، أحمده وأستعينه وأصلي على النبي وآله وأسلم وبعد؛ فإنك قلت كلامًا إن ثبتِّ عليه يكن ذلك حظك، وإن تدعيه يكن حجة عليك، أحب كذا وكذا، وأكره كذا وكذا، وما رأيت من حسنة فانشريها، وما رأيت من سيئة فاستريها، فقالت : كيف محبتك لزيارة أهلي ؟ قلت : ما أحب أن يملني أصهاري، فقالت : فمن تحب من جيرانك أن يدخل دارك فآذن له، ومن تكره فأكره ؟ قلت : بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم سوء . قال شُريح : فبت معها بأنعم ليلة، وعشت معها حولاً لا أرى إلا ما أحب، فلما كان برأس الحول جئت من مجلس القضاء فإذا فلانة في البيت، قلت :

من هي ؟ قالوا : ختنك - أي : أم زوجك - فالتفتت إليّ وسألتني كيف رأيت زوجتك ؟ قلت : خير زوجة . قالت: يا أبا أمية، إن المرأة لا تكون أسوأ حالاً منها في حالين : إذا ولدت غلامًا أو حظيت عند زوجها؛ فوالله ما حاز الرجال بيوتهم شرًا من المرأة المدللة؛ فأدب ما شئت أن تؤدب، وهذب ما شئت أن تهذب، فمكثت معي عشرين عامًا لم أعتب عليها في شيء إلا مرة، وكنت لها فيها ظالمًا، كنت إمام قومي فسمعت الإقامة وقد رأيت عقربًا، فعجلت فحركت عن قتلها وكفأت الإناء عليها وقلت : لا تحركي الإناء حتى أجيء، فعجلت فحركت الإناء فضربها العقرب، فجئت وهي تلوي، فلو رأيتني يا شعبي وأنا أفرك إصبعها في الماء والملح وأقرأ عليها، وكان لي جار لا يزال يضرب امرأته، فقلت :

رأيتُ رِجَالاً يضربونَ نساءَهُم
فشُلَّتْ يُمْنِي حينَ أَضْرِبُ زَيْنبًا
أأضْربُ من غَيْرِ ذَنْبٍ أَتَتْ بِه
فما العدلُ مِنّي ضَرْبُ مَنْ لَيْسَ مُذْنِبًا

هكذا فلتكن النساء .

الفصل السادس

قوامة الرجل

إن من أسباب السعادة بين الزوجين أن تكون القوامة بيد الزوج، قال سبحانه: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٣٤).

فقوامة الرجل لا تخل بحقوق المرأة، ولا تحرمها من كرامتها، ولا تنتقص من إنسانيتها شيئًا؛ بل بالعكس من ذلك، فقد بينت الآية الكريمة أن لكل واحد من الزوجين على صاحبه حقًّا، وأن الزوج مختص بحق له عليها ليس لها عليه مثله، بقوله سبحانه وتعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾.

قال القرطبي في تفسيره: فزيادة درجة الرجل بعقله، وقوته على الإنفاق وبالدية والميراث والجهاد[١].

ومعنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة:٢٢٨) أي: قيامهم عليهن بالتأديب والتدبير والحفظ والصيانة؛ لما فضل الله به الرجل على المرأة في العقل والرأي، وبما ألزمه الله تعالى من الإنفاق عليها[٢].

وشأن قوامة الرجل على المرأة والأولاد والبيت شأن الرئاسة اللازمة لكل جماعة مهما قل عددها، وليس أحوج من الأسرة لهذه القيادة؛ فهي في أمس الحاجة إلى

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (ج٣) (ص١٢٥).

(٢) «أحكام القرآن» للجصاص (ج٢) (ص١٨٨).

قوامة رشيدة ورئاسة قوية حازمة؛ لأن الحيـاة الزوجية حياة اجتماعية، وأنه لابد لكل اجتمـاع من رئيس؛ لأن المجتمعين تختلف آراؤهم ورغـباتهم في بعض الأمور، ولا تقوم مـصلحتهم إلا إذا كان لهم رئيس يرجع إليـه في الخلاف؛ لئلا يعمـل فرد ضد الآخر فتنفصم عروة الوحدة الجامـعة ويختل النظام، والإسلام يدعو إلى هذه الرياسة ويطلبها، يقول ﷺ فيما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : «**لا يَحِلُّ لثلاثة نفر يكونون بأرض فَلاةٍ إلا أمروا عليهم أحدهم**» رواه أحمد[١] .

وليس أجدر من الرجل للقيام بهذه المسـؤولية؛ لأنه أعلم بالمصلحة وأقدر على التنفيذ بقوته وماله، ولأنه لا يندفع في الغالب مع عواطفه ووجدانه، أما طبيعة المرأة فيلاحظ فيها إرهاف العاطفة وسـرعة الانفعال والتأثر، وقد خُلِقت هذه الصفات في المرأة؛ لتكون مصدر عطف وحنان على أولادها، كما أعـدتها الفطرة الإلهية للحمل والولادة؛ لذلك كانت طبيعتها لا تقـوى على الكفاح الخارجي، أما الرجل فقد وهبه الله عز وجل قـوة في البدن تمكنه من الكـفاح والعمل خـارج المنزل والقيـام بمشاق الأمـور، وقد فطر الـله سبـحـانه وتعالـى الرجل على هذا الطبع؛ ليـجـعله كُفُـؤًا لاختصاصه بالرياسة والرعاية، وفرض عليـه السعي لتحصيل موارد الأسرة، كما يقع عليه عبء تدبير النفقات التي تتطلب مجهودًا لا تقوى عليه المرأة .

إذن فلا ضـير من قوامة الرجل على الأسـرة؛ فهو أحق بها وأهل لهـا، وأقوى وأقدر على فهم الحياة، وما يجب لها بحكم اخـتلاطه في المجتمع العام كما أنه أقدر على ضبط عواطفه وتغليـب حكم عقله؛ فهذه الصفات وغيـرها تؤهله للرئاسة أكثر من سواه .

والقوامة التي فرضها الإسلام للرجال على النساء هي إذن قيادة، يجب أن يتوافر فيهـا ما يتوافر في كل قيادة رشـيدة؛ فالقائد يجب أن يكون أفضل من في الجـماعة التي يقودها، وأن يكون أهلاً للمسؤولية .

---

(١) «نيل الأوطار» (ج٩) (ص١٥٧).

وهذه القوامة التي منحها الله عز وجل للرجال دون النساء لها تبعات يجب أن يقوم بها الرجل، من هذه التبعات - كما ذكرنا آنفًا.

أولها :

الإنفاق على أسرته؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: **﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾** (النساء: ٣٤) .

ثانيها :

تعليم زوجته أمور دينها من صلاة وطهارة، وغير ذلك من الأمور التي تجهلها المرأة؛ فإن كان جاهلاً بهذه الأشياء فليأذن لها في سؤال العلماء في ذلك؛ فإن منعها يأثم، كما أنصح مثل هذا الزوج وغيره مما لا يعرف أحكام دينه أن يسأل العلماء، وأن يخبر زوجته بما أفتوه في ذلك، وأن يستمع لإذاعة القرآن الكريم؛ فإن فيها برامج مفيدة له ولزوجه ولأولاده، وخاصة إذا كان أميًا وزوجته أميَّة، فطلب العلم واجب عليه وعليها؛ لقوله ﷺ : « **طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**» رواه مسلم .

ثالثها :

تربية أولاده تربية حسنة؛ لأنه سيسأل عنهم يوم القيامة؛ لقوله ﷺ : «**إن الله سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ حَفِظَ أَمْ ضَيَّعَ؟ حتى يَسْأَلُ الرَّجُلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ**» أخرجه ابن حبّان في صحيحه . وسنفرد لذلك فصلاً إن شاء الله تعالى .

رابعها:

ألا يسيئ الزوج استعمال سلطة القوامة التي منحها الله عز وجل له على زوجته، فيستغل مشروعيتها في إيذاء الزوجة وإلحاق الضرر بها؛ فإذا ما أطاعته فيما هو حق ومعروف، وليس في معصية وكانت فيه أمينة له حافظة لماله وعرضه وسمعته في حضوره وغيبته؛ فليس له أن يؤذيها باليد أو باللسان، قال سبحانه وتعالى : **﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ**

وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً﴾ (النساء: ٣٤).

ففي الآية تلقين زجري لسيئ الأخلاق والسلوك من الأزواج، الذين يحاولون قهر زوجاتهم بالعنف والشتائم بدون داع أو مبرر [١].

شبهات وأباطيل حول قوامة الرجل والرد عليها:

يقول المتقولون على الإسلام: إن الإسلام يجعل الرجل قوامًا على المرأة: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾، قد فرض وصايته عليها، وسلبها بذلك حريتها وأهليتها، وثقتها بنفسها.

ونقول: ليس الأمر كما يرون ويفهمون من القوامة، فليس قوامة الرجل في الإسلام قوامة السطوة والاستبداد والقوة والاستعباد، ولكنها قوامة التبعات، والالتزامات والمسؤوليات، قوامة مبينة على الشورى والتفاهم على أمور البيت والأسرة، قوامة ليس منشؤها تفضيل عنصر الرجل على عنصر المرأة، وإنما منشؤها ما ركب الله في الرجل من ميزات فطرية تؤهله لدور القوامة لا توجد في المرأة، بينما ركب في المرأة ميزات فطرية أخرى، تؤهلها للقيام بما خلقت من أجله، وهو الأمومة ورعاية البيت وشؤونه الداخلية.

فهو أقوم منها في الجسم، وأقدر على الكسب والدفاع عن بيته وعرضه، لا شك في ذلك، وهو أقدر منها على معالجة الأمور، وحل معضلات الحياة بالمنطق والحكمة وتحكيم العقل، والتحكم بعواطفه لا شك في ذلك أيضًا، والأمومة والبيت في حاجة إلى نوع آخر من الميزات الفطرية، في حاجة إلى العاطفة الدافقة والحنان الدافئ، والإحساس المرهف، لتضفي على البيت روح الحنان والحب، وتغمر أولادها بالعطف والشفقة.

وإذا سألنا هؤلاء المدعين: أيهما أجدر أن تكون له القوامة بما فيها من تبعات:

---

(١) «سمو التشريع الإسلامي في معالجة النشوز بين الزوجين» د. كوثر كامل علي (٧١).

الفكر والعقل، أم العاطفة والانفعال؟ لا شك أنهم يوافقوننا أن الفكر هو الأجدر؛ لأنه هو الذي يستطيع تدبير الأمور، بعيدًا عن الانفعال الحاد الذي كثيرًا ما يلتوي بالتفكير، فيحيد به عن الصراط المستقيم، فالرجل بطبيعته المفكرة لا المنفعلة، وبما هيأه الله له من قدرة على الصراع واحتمال أعصابه لنتائجه وتبعاته، أصلح من المرأة في أمر القوامة على البيت، بل إن المرأة نفسها لا تحترم الرجل الذي تسيّره، فيخضع لرغباتها بل تحتقره بفطرتها، ولا تقيم له أي اعتبار.

والرجل أيضًا أب الأولاد، وإليه ينتسبون، وهو المسؤول عن نفقتهم ورعاية سائر شؤونهم، وهو صاحب المسكن، عليه إيجاده وحمايته ونفقته.

ونسأل هؤلاء أيضًا، أليس من الإنصاف والعدل أن يكون من حُمّل هذه التبعات وكُلف هذه التكاليف من أمور البيت وشؤونه، أحق بالقوامة والرياسة، ممن كُفلت لها جميع أمورها، وجعلت في حل من جميع الالتزامات؟ لا شك أن المنطق وبداهة الأمور، يؤيدان ذلك.

فرياسة الرجل إذن إنما نشأت له في مقابل التبعات التي كلف بها، وما وهبه الله من ميزات فطرية، تجعله مستعدًا للقوامة.

ثم إن القوامة التي جعلها الإسلام للرجل، لا استبداد فيها، ولا استعباد للمرأة؛ بل هي مبنية على الشورى والتفاهم بين الشريكين.

وقد نبه الإسلام الرجال لذلك، ووجههم إلى تحقيق معنى القوامة التي يعنيها قال الله تعالى: **﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾** (النساء: ١٩)، وقال ﷺ: **«خيركم خيركم لأهله»**، ويُشعر الرجال أن النساء بحاجة إلى الرعاية، لا إلى التسلط والتشدد: **«استوصوا بالنساء خيرًا؛ فإنهن عوان عندكم»**، قال هذا في حجة الوداع، وهو من آخر ما قال ﷺ عن النساء، ويقول ﷺ: **«خياركم، خياركم لنسائهم»**، ويوصيهم بالصبر والاحتمال، والصبر والاحتمال من مقومات القوامة: **«لاَ يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»** رواه مسلم.

وجماع القول أن نظرية الإسلام في المرأة أنها إنسان قبل كل شيء، والإنسان له

حقوقه الإنسانية، وأنها شقيقة الرجل، خلقت من نفس عنصره الذي خلق منه، فهو وهي سيان في الإنسانية، «**إنما النساء شقائق الرجال**»، هكذا يقول رسول الله ﷺ، ويقول الله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا**﴾ (الروم: ٢١).

وإذا استشعر الزوج ذلك، وامتثل ما أمره الله، وأمره رسوله به، لا شك أنه سينصف المرأة، ومن شذ عن ذلك، واستبدّ، وتعالى، وجار على المرأة، فإن الإسلام لا يرضى منه ذلك، ولا يؤخذ الإسلام بجريرة الشواذ، العاصين لأوامره ولا يمكن أن يحكم على الإسلام وصلاحه بأفعالهم.

التمرد على قوامة الرجل على المرأة :

لا يقول دعاة تحرير المرأة - أو أدعياء تحريرها على الأصح -: إن قوامة الرجل على المرأة لا تتفق مع مبدأ حرية المرأة ومساواتها بالرجل، التي ننادي بها، ونروم تحقيقها.

بل يقولون: إن القوامة تمثل بقايا من عهد استعباد المرأة وإذلالها، يوم أن كانت المرأة كمًّا مهملاً في البيت، ونكرة مجهولة في المجتمع، وأَمَة ذليلة مهينة للزوج.

أما اليوم، وبعد أن نالت المرأة حقوقها، واستردت مكانتها، وحطمت أغلال الرق والاستعباد، وتساوت مع الرجل في كل الحقوق والالتزامات، وحصلت على قسط وافر من التعليم كما حصل هو، بل ودرست نفس المنهج الذي درسه، ونالت الشهادة التي نالها، وحصلت على خبرة جيدة في تدبير شؤون الحياة، اكتسبتها بمشاركتها للرجل في أعماله الخاصة به، وبمشاركتها في الحياة العامة في المجتمع، وشاركته في التزامات البيت والأسرة، فلا ميزة تميزه عليها، لا في الإعداد والمقدرة، ولا في الالتزامات المادية للبيت، لذا فليس من المستساغ ولا من العدل - والحالة هذه- أن ينفرد الرجل بالسلطة ورياسة الأسرة من دونها.

وللرد على أولئك نقول:

ما دمتم متفقين معنا على ضرورة أن يكون هناك قيّم توكل إليه الإدارة العامة

لتلك الشركة القائمة بين الرجل والمرأة، وما ينتج عنها من نسل، وما تستتبعه من تبعات، ما دمتم كذلك فإن هناك أوضاعًا ثلاثة يمكن أن تفترض بشأن القوامة على الأسرة:

فإما أن يكون الرجل هو القيم، أو تكون المرأة هي القيم، أو يكونا معًا قيمين.

أما الافتراض الثالث فإنا نستبعده منذ البدء؛ لأن التجربة أثبتت أن وجود رئيسين في العمل الواحد أدعى إلى الإفساد من ترك الأمر فوضى بلا رئيس، والقرآن يقول في الاستدلال على وحدانية الخالق سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢) ويقول: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (المؤمنون: ٩١)، فإذا كان هذا الأمر بين الآلهة المتوهَّمين، فكيف هو بين البشر العاديين؟

وعلم النفس يقرر أن الأطفال الذين يتربون في ظل أبوين يتنازعان على السيادة، تكون عواطفهم مختلفة، وتكثر في نفوسهم العقد والاضطرابات.

بقي الفرضان الأول والثاني، وقد اختار الإسلام الفرض الأول وهو أن يكون الرجل هو القيم، لسببين:

أحدهما: أن الرجل بناءً على ما ركب فيه من خصائص وما يتمتع به من قدرات جسمية وعقلية، فقد كلف بالإنفاق على الأسرة، وكلف بدفع المهر في الزواج، وليس من العدالة والإنصاف أن يكلف الإنسان الإنفاق دون أن يكون له القوامة والإشراف.

والسبب الثاني: أن المرأة مرهفة العاطفة، قوية الانفعال، وأن ناحية الوجدان لديها تسيطر سيطرة كبيرة على مختلف نواحي حياتها النفسية، وذلك حتى يكون لها من طبيعتها ما يتيح لها القيام بوظيفتها الأساسية وهي الأمومة والزوجية على خير وجه.

وإذا نحن سألنا هؤلاء القوم: أيهما أجدر أن تكون له وظيفة القوامة بما فيها من تبعات الفكر أم العاطفة؟ لا شك أنهم سيجيبون - إن كانوا مجردين عن الهوى

والغرض - بأن الفكر هو الأجدر؛ لأنه هو الذي يدبر الأمور بعيدًا عن فورة الانفعال، واندفاع العاطفة، ويقدر العواقب ويستخلص النتائج بكل روية واتزان، وهذه الصفات هي الصفات الأساسية المطلوبة لوظيفة القوامة وتحمل المسؤولية.

وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذين السببين الرئيسيين لاختيار الإسلام الرجل للقوامة بقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ (النساء: ٣٤).

فإن قالوا: لا نسلم لكم ذلك إذ إن السببين لم يعودا قائمين الآن فالإنفاق على البيت تشارك المرأة فيه اليوم وتتحمل منه قسطها، وأما العاطفة والانفعال وسيطرة الوجدان على تصرفاتها، وما قلتم من تفوق الرجل بقدرته العقلية، فإن ذلك يصدق على المرأة في الماضي، المرأة غير المتعلمة، المرأة القابعة في بيتها، المنعزلة عن الحياة.

أما المرأة اليوم، وقد تعلمت كما تعلَّم الرجال، وتثقفت ثقافتهم، وعملت عملهم، وشاركت في واجبات المجتمع، وتفاعلت معه، واختلطت بالناس، فإن هذا كفيل بأن يزيل تلك الصفات عن المرأة ويوجد فيها من الصفات والمزايا ومن القدرات العقلية ما يجعلها قادرة على تصريف الأمور بحكمة وروية بعيدة عن العاطفة والانفعال تمامًا كما هي حال الرجل.

قلنا لهم: أما مشاركتها في الإنفاق فإن أصل وظيفة المرأة في الإسلام أن تكون في البيت إلا لضرورة، ولذا كفل لها الإسلام النفقة والرعاية، وأسقط عنها بعض الواجبات الدينية التي تحتاج في أدائها إلى الخروج من البيت، إمعانًا منه في قرارها في بيتها.

لذا فإن خروجها من البيت لا لضرورة ولكن لأجل أن تعمل كما يعمل الرجل حتى يكون لها دخل مثله يعتبر خروجًا على أوامر الدين، وتمردًا على تعاليمه لا يقره الإسلام ولا يرضاه، فلا يصلح لأن يكون سببًا في إسقاط شرعة شرعها الله تبارك وتعالى وأقامها: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ (النساء: ٣٤)، وحتى لو فرضنا وسلمنا

بأنها صارت شريكة له في الإنفاق على البيت، فإن هذه المشاركة لا تؤهلها لأن تكون القوَّامة على البيت؛ لأنها بطبيعتها لا تستطيع مواصلة القيام بأعمال القوامة في كل الأوقات، لأن ما يعتورها من موانع فطرية كالحمل، والولادة، والحيض، تعطل قيامها جسميًّا وعقليًّا بما تتطلبه القوامة من أعمال.

ونظام الأسرة يستلزم تقرير الرئاسة عليها لواحد من الاثنين: الزوج أو الزوجة، ولا يغني عن هذه الرئاسة ولا عن تكاليفها أن نسمي الزواج شركة بين شريكين متساويين، وتوفيقًا بين حصتين متعادلتين، فإن الشركة لا تستغني عمن يتخصص لولايتها، ويُسأل عن قيامها، وينوب عنها في علاقتها بغيرها، وليس من المعقول أن تتصدى الزوجة لهذه الولايات في جميع الأوقات، إذ هي عاجزة عنها - على الأقل في بعض الأوقات - غير قادرة على استئنافها حيث تشاء.

وأما عن أثر التعليم والعمل والمشاركة في النشاطات الاجتماعية والاحتكاك بالناس على خصائص المرأة وقدرتها وتهيئتها لتحمل المسؤولية .

فيجاب عنه بأن خصائص المرأة التي أشرنا إليها إنما هي خصائص فطرية جِبلِّية أزلية نابعة من طبيعة تكوينها، وخاضعة لمؤثرات خارجية عن ذات المرأة، حتى يمكن تغييرها أو إزالتها بما تكتسبه المرأة من تربية أو تعليم أو خبرة في مجال الحياة العملية، وإنما هي خصائص جِبلِّية - كما قلنا - قائمة بها لا تنفك عنها، خصائص قاهرة لا يد للإنسان في تحويرها ولا قدرة، إلا حين يستطيع تحويرًا في تركيب الدماغ وبنية خلاياه، أو حين يبدل في وظائف الأعضاء، فيذوق بأذنه أو يسمع بأنفه.

وذلك لأن طبيعة وظيفتها التي خلقت من أجلها، وهي الزوجية، والأمومة تتطلب تلك الخصائص، وهي لن تنفك عنها ما بقيت أنثى تحمل وتلد وتربي.

فالإسلام عندما جعل القوامة للرجل على المرأة، لم يرد أن يستبد الرجل بالمرأة، ولا بإرادة الأسرة، ولم يرد أن تكون تلك القوامة أداة تسلط عليها واستعبادًا لها وإنما أرادها قوامة مبنية على المشاورة والتعاون والتفاهم والتعاطف المستمر بين الزوج والزوجة، وكل توجيهات الإسلام في هذا تهدف إلى إيجاد هذه الروح

داخل الأسرة، وإلى تغليب الحب والتفاهم على التسلط والنزاع، فالقرآن يقول: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء: ١٩)، والرسول ﷺ يقول: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ»، فيجعل ميزان الخير في الرجل طريقة معاملته لزوجته.

وأيضًا: إن هذه القوامة في الإسلام لها مدى تقف عنده وتنتهي إليه، فهي لا تمتد إلى حرية الدين، فليس له أن يكرهها على تغيير دينها إذا كانت الزوجة كتابية، ولا أن يجبرها على اتباع مذهب معين أو رأي معين في الاجتهادات الفقهية في الإسلام إذا كانت مسلمة، ما دام المذهب أو الرأي الذي تتبعه لا يخالف الحق في الشريعة، ولا تمتد القوامة إلى حرية المرأة في أموالها الخاصة بها، ولا في المساواة بينها وبينه في الحقوق التي أراد الله فيها المساواة، وليس لها طاعته في ارتكاب معصية، وكما قال ﷺ: «لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ عزَّ وَجَلَّ».

فإذا كانت قوامة الرجل لا تمتد إلى الحقوق الأساسية، فماذا يخيف المرأة في قوامة الرجل؟، وماذا يرهب دعاة التمرد على قوامة الرجل من تلك القوامة؟، وماذا يريدون للمرأة أفضل وأكرم وأقدس من تلك المكانة التي بوأها الإسلام إياها، وتلك الرعاية والحماية والتكريم التي أحاطها الإسلام بها - إن كانوا حقًّا ينشدون خير المرأة وصلاحها وفلاحها-؟

ولكننا لا نراهم يريدون ذلك، بل إن ما يهدفون إليه هو تحطيم ذلك الحصن المنيع للمرأة - قوامة الرجل- الذي جعله الإسلام لها حمى وسترًا وملاذًا بعد الله عزَّ وجلَّ، يحميها عاديات الزمن وصروف الحياة، ويكون سدًّا منيعًا دون دعاة التحلل والانحراف، وما يريدونه من تغرير بالساذجات من النساء، ليسهل عليهم غوايتهن.

ولما فشلوا في تحطيم ذلك الحصن بأيديهم استخدموا في ذلك عواطف النساء، فألبوهن وحرضوهن على تحطيم تلك القوامة وصوروها لهن - ظلمًا - وبأنها قيد من قيود الرق والاستعباد لهن، فاندفعت المرأة بكل ما أودع فيها من غريزة الاندفاع خلف أولئك الناعقين، تصدقهم وتنفذ ما يريدون، حتى تم لهم ما أرادوا، فتمردت

المرأة على قوامة الرجل، وخرجت عليها، وأصبحت لها مطلق الحرية بعد سن الثامنة عشرة - كما تنص على ذلك أكثر القوانين الغربية والمستغربة - في أن تنفصل عن أسرتها، وأن تعمل ما تشاء، وتسكن أين تشاء، وتعيش كيف تشاء.

وحينئذ تفردوا بها، عُـزَّلاً من أي سلاح، وراحوا يتفننون في وسائل إغرائها وإغوائها، وهي تلهث خلف ذلك السراب، وتركض وراء تلك المغريات، ولا تعلم المسكينة أن هذا حُبالة وشرك نُصب لها لإخراجها من مكمنها الحصين، حتى سقطت مستسلمة، فسقطت كرامتها، وهان مطلبها وسهل الوصول إليها، بل وغدت هي تجري خلف الرجل، وتسقط تحت أقدامه تغريه بها، وتحببه إلى نفسها، وتستجدي قربه وحبه، بعد أن كان هو يخطب ودّها، ويبذل الغالي الثمين في سبيل الحصول عليها، بل ويعمل شتى الحيل ليرى وجهها أو كفها أو حتى أنملتها.

المساواة بين المرأة والرجل في الحقوق:

من النظريات التي بنى عليها المجتمع الغربي الحديث المساواة بين الرجل والمرأة، المساواة في كل شيء، في الحقوق والواجبات، وفي الالتزامات والمسؤوليات، فيقوم الجنسان بأعمال من نوع واحد، وتقسم بينهما واجبات جميع شعب الحياة بالتساوي.

وبسبب هذه الفكرة الخاطئة للمساواة، انشغلت المرأة الغربية، بل انحرفت عن أداء واجباتها الفطرية ووظائفها الطبيعية، التي يتوقف على أدائها بقاء المدنية، بل بقاء الجنس البشري بأسره، واستهوتها الأعمال والحركات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وجذبتها إلى نفسها بكل ما في طبعها وشخصيتها من خصائص، وشغلت أفكارها وعواطفها شغلاً، أذهلها عن وظائفها الطبيعية، حتى أبعدت من برنامج حياتها، القيام بتبعات الحياة الزوجية، وتربية الأطفال وخدمة البيت، ورعاية الأسرة، بل كُرّه إلى نفسها كل هذه الأعمال، التي هي من وظائفها الفطرية الحقيقية، وبلغ من سعيها خلف الرجل طلبًا للمساواة إلى حد محاكاته في كل حركاته وسكناته، لبس الرجل القصير من اللباس فلبست المرأة مثله، ونزل البحر

فنزلته، وجلس في المقهى والمتزه فجلست مثله بدافع المساواة، ولعب الرياضة فلعبت مثله، وهكذا.

وكان من نتيجة ذلك أن تبدد شمل النظام العائلي في الغرب الذي هو أس المدنية ودعامتها الأولـية، وانعدمت - أو كادت - الحياة البيتـية، التي تتوقف على هدوئها واستـقرارها قوة الإنسان، ونـشاطه في العمل، وأصـبحت رابطة الزواج - التي هي الصورة الصـحيحـة الوحيدة لارتبـاط الرجل والمرأة، وتعاونهمـا على خدمة الحـياة والمدنية - أصبحت واهية وصورية في مظهرها ومخبرها.

وجاء التصوير الخاطئ للمساواة بين الرجال والنساء بإهدار الفضائل الخلقية، التي هي زينة للرجال عامة، وللنســاء خاصة فقاد المرأة إلى التبذل وفـساد الأخلاق، حتى عادت تلك المخزيات التي كان يتحرج من مقـارفتها الرجال من قبل، لا تستحي من ارتكابها بنات حواء في المجتمع الغربي الحديث.

هكذا كان تصورهم الخـاطئ للمساواة، وهكذا كانت نتائجـه على الحياة، وعلى كل مقومات الحياة الفاضلة، والعـجيب أن يوجد في عالمنا الإسلامي اليوم من ينادي بهذه الأفكار، ويعمل على نشـرها وتطبيقها في مجتـمعنا الإسلامي، على الرغم مما ظهر واتضح من نتائجها، وآثارها السيئة المدمرة، ونسي أولئك أو تناسوا أن لدينا من مباديء ديننا ومقومات مجتمـعنا وموروثات ماضينا ما يجعلنا في غنى عن أن نستورد مبادئ وتقاليد وأنظمة لا تمت إلى مجـتمعنا المسلم بصلة، ولا تشده إليها آصرة، ولا يمكن أن ينجح تطبيقهـا فيه؛ لأن للمجتمع المسلم من الأصالة والمقـومات، وحرصه عليها ما يقف حائلاً دون ذلك التطبيق، أو على الأقل كمال نجاحه، كما نسي أولئك المنادون باستيراد هذه النظم والنظريات، ونسي معهم أولئك الواضعون لهذه النظم من الغربيين أو تناسوا الفروق الجـوهرية الدقيقة العميقة التي أوجدهـا الخالق سبحانه بين الذكر والأنثى من بني البشـر مما يتعذر بل يستحيل تطـبيق نظرية المساواة الكاملة بين الذكر والأنثى في جميع الحقوق والواجبات والالتزامات والمسؤوليات.

وهاهم ينادون بالمساواة بين المـرأة والرجل بينما القرآن الكريم يقـرر خلاف ذلك فيقول تبارك وتعالى نقلاً لكلام امرأة عمران: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (آل عمران: ٣٦).

وهاهي شهادة من أحد مفكري الغـرب واضعي نظرية المساواة، يقول كاريل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول):

(إن ما بين الرجل والمرأة من فروق، ليست ناشئة عن اختلاف الأعضاء الجنسية، وعن وجود الرحم والحمل، أو عن اختلاف في طريقـة التربية، وإنما تنشأ عن سبب جد عميق، هو تأثيـر العضوية بكاملها بالمواد الكيماوية، ومـفرزات الغدد التناسلية، وإن جهل هذه الوقائع الأساسية هو الذي جـعل رواد الحركة النسائية يأخذون بالرأي القائل: بأن كلاً من الجنسين الذكور والإناث يمكن أن يتلقوا ثقافة واحدة وأن يمارسوا أعمالاً متماثلة، والحقيقة أن المرأة مختلفة اختلافًا عميقًا عن الرجل، فكل حُجَيرة في جسمها تحمل طابع جنسها، وكذلك الحال بالنسـبة إلى أجهزتها العضوية، ولا سيما الجهاز العصـبي، وإن القوانين العضوية (الفيزيولوجيـة) كقوانين العالم الفلكي، ولا سبيل إلى خرقها، ومن المستحيل أن نسـتبدل بها الرغبات الإنسانية، ونحن مضطرون لقبولها كما هي في النساء، ويجب أن ينمين استعداداتهن في اتجاه طبيعتهن الخاصة، ودون أن يحاولن تقليد الذكور، فـدورهن في تقدم المدنية أعلى من دور الرجل، فلا ينبغي لهن أن يتخلين عنه).

ويقول الأستاذ المودودي: (... فـهذا علم الأحياء، قد أثبتت بحوثه وتحـقيقاته أن المرأة تختـلـف عن الرجل في كل شيء، من الصـورة والسـمت، والأعـضـاء الخارجية، إلى ذرات الجسم والجـواهر الهيولينية (البروتينية) لخلاياه النسـيجية، فمن لدن حـصـول التكوين الجنسي في الجنـين يرتقي التـركـيب في الصنفين في صـورة مختلفة، فهـيكل المرأة ونظام جسمها، يركب تركيبًا تسـتعد به لولادة الولد وتربيته،

ومن التكوين البدائي في الرحم إلى سن البلوغ، ينمو جسم المرأة، وينشأ لتكميل ذلك الاستعداد فيها، وهذا هو الذي يحدد لها طريقها في أيامها المستقبلة).

وإذا تقرر هذا الاختلاف الدقيق في التكوين بين الذكر والأنثى، فمن الطبيعي والبديهي أن يكون هناك اختلاف في اختصاص كل منهما في هذه الحياة، يناسب تكوينه وخصائصه التي ركبت فيه، وهذا ما قرره الإسلام وراعاه، عندما وزَّع الاختصاصات على كل من الرجل والمرأة، فجعل للرجل القوامة على البيت، والقيام بالكسب والإنفاق، والذود عن الحمى، وجعل للمرأة البيت، تدبر شؤونه، وترعى أطفاله، وتوفر فيه السكينة والطمأنينة، هذا مع تقريره أن الرجل والمرأة من حيث إنسانيتها على حد سواء، فهما شطران متساويان للنوع الإنساني، مشتركان بالسوية في تعمير الكون، وتأسيس الحضارة، وخدمة الإنسانية، كل في مجال اختصاصه، وكلا الصنفين قد أوتي القلب والذهن، والعقل والعواطف، والرغبات والحوائج البشرية، وكل منهما يحتاج إلى تهذيب النفس، وتثقيف العقل، وتربية الذهن، وتنشئة الفكر، لصلاح المدنية وفلاحها، حتى يقوم كل منهما بنصيبه من خدمة الحياة والمدنية، فالقول بالمساواة من هذه الجهات صواب لا غبار عليه، ومن واجب كل مدنية صالحة أن تعني بالنساء عنايتها بالرجال، في إيتائهن فرص الارتقاء والتقدم، وفقًا لمواهبهن وكفاءتهن الفطرية.

ثم إن ما يزعمون أنه مساواة بين الرجل والمرأة، ويحاولون إقناع المرأة بأن القصد منه مراعاة حقوقها، والرفع من مكانتها، إنما هو في الحقيقة عين الظلم لها، والعدوان على حقوقها، وذلك لأنهم بمساواة المرأة بالرجل في الأعباء والحقوق، حملوها أكثر مما حمَّلوا الرجل، فمع ما خصصت له المرأة من الحمل والولادة، والإرضاع وتربية الأطفال، ومع ما تتعرض له في حياتها، وما تعانيه من آلام الحيض والحمل والولادة، ومع قيامها على تنشئة أطفالها، ورعاية البيت والأسرة، مع تحملها لهذا كله، يحمّلونها زيادة على ذلك، مثل ما يحمل الرجل من الواجبات، ويجعلون عليها مثل ما عليه من الالتزامات التي أعفي الرجل لأجل القيام بها من جميع

الالتزامات، فيفرض عليها أن تحمل كل التزاماتها الفطرية، ثم تخرج من البيت كالرجل لتعاني مشقة الكسب، وتكون معه على قَدْرِ المساواة في القيام بأعمال السياسة والقضاء، والصناعات، والمهن، والتجارة، والزراعة، والأمن، والدفاع عن حوزة الوطن.

وليس هذا فحسب، بل يكون عليها بعد ذلك، أن تغشى المحافل والنوادي، فتمتع الرجل بجمال أنوثتها، وتهيئ له أسباب اللذة والمتعة.

وليس تكليف المرأة بالواجبات الخارجة عن اختصاصها ظلمًا لها فحسب، بل الحقيقة أنها ليست أهلاً كل الأهلية، للقيام بواجبات الرجال، لما يعتور حياتها من المؤثرات والموانع الطبيعية التي تؤثر على قواها العقلية والجسمية، والنفسية، وتمنعها من مزاولة العمل بصفة منتظمة، وتؤثر على قواها وهي تؤديه.

ثم إن قيام المرأة بتلك الأعمال، فيه مسخ لمؤهلاتها الفطرية والطبيعية، يقول (ول ديوارنت) مؤلف قصة الحضارة:

(إن المرأة التي تحررت من عشرات الواجبات المنزلية ونزلت فخورة إلى ميدان العمل بجانب الرجل، في الدكان والمكتب، قد اكتسبت عادته وأفكاره وتصرفاته، ودخنت سيجاره، ولبست بنطلونه).

وفي هذا خطر كبير، يؤدي إلى انحطاط المدنية والحضارة الإنسانية، ثم ما هي المنفعة والفائدة التي تحقق للمدنية والحضارة من قيام المرأة بأعمال الرجال؟ إن فيها كل المضرة والمفسدة؛ لأن الحضارة والحياة الإنسانية، حاجتهما إلى الغلظة والشدة والصلابة، مثل حاجتهما إلى الرقة واللين والمرونة، وافتقارهما إلى القواد البارعين والساسة والإداريين، كافتقارهما إلى الأمهات المربيات، والزوجات الوفيات، والنساء المدبرات لا غنى للحياة عن أحدهما بالآخر.

فماذا في المساواة - بمفهومهم - من محاسن، تجنيها المرأة والمجتمع؟ وما هو عذر أولئك المنادين بالمساواة، بعد أن دُحضت حجتهم؟، نحن لا نشك أنهم

يدركـون- أو عقـلاؤهم على الأقل - كل الموانع الفطرية، والطبـيـعيـة والعقليـة، والجسمية الحائلة دون مساواة المرأة بالرجل، ومـقتنعون بها كل الاقتناع، ولكن اللهفة الجنسيـة المسعـورة لا تسـتطيع الصـبر عـلى رؤية الطُّعم المهـدِّئ لحظة من الزمن، فاصطنعت هـذه الشعارات كي تضـمن وجود المرأة أمامـهم في كل وقت، وفي كل مكان في البـيت وفي المكـتب وفي المصنع وفي الشـارع وفي كل مكان يتـجـه إليـه الرجل، أو يوجد فيه، ليروي غُلَّته ويطفئ حرقته الجنسية البهيمية.

والمرأة بما تحس به في قرارة نفسها من ضيق بالأنوثة، مع تصور الرفعة في مكانة الرجل، تندفع وراء هذه الشعارات، دون روية أو تمحيص لها، تنشـد إشباع رغبتها، في أن تكون رجلاً لا أنثى، فإذا أبت الطبـيعة (طبيعتهـا) عليها ذلك فلا أقل من أن تكون رجلاً، يقيم مضطرًا في جسم أنثى، وعليهـا أن تعمل على إرضاء هذا النزوع في نفسها بكل وسـيلة، وأن تحقق لهذا الكائن المتمرد في صـدرها كل ما يرضيه من شارات الرجل الطبيعي.

الخلاصة:

فنطاق القوامة كما أوضحنا سابقًا محـصور في مصلحة البيت، والاستقامة على أمر الله، وحقوق الزوج، أما ما وراء ذلك فليس للرجل حق التدخل فيه، كمصلحة الزوجة الماليـة، وغيره، وليس على المرأة طاعـة زوجها إلا في حـدود ما أحله الله، فإن أمرها بمعصـية فلا طاعة لمخلوق في معصيـة الخالق، وما لم تخل المرأة بحق الله تعالى، أو بحق زوجها، فليس عليها إلا سبيل التكريم والاحترام.

خطر مميت:

وقد يظن قـوم أن في تنازل الرجل عن قوامـته لزوجتـه إسعـاد لها، وهذا ظن خاطئ؛ ذلك لأن المرأة بفطرتها تحب أن تأوي إلى ركن تلجـأ إليه، حتى وإن تحدثت بعض النساء أمام صويحباتها بفخر أن زوجها يطيعها، ولا يعصي لها أمرًا، مما يوحي بضعف قوامته عليها، فإنها في داخل نفسها تشعر بضعف وخلل في بنية الأسرة.

وعلى العكس منهـا، تلك المرأة التي تظهر الشكوى من زوجهـا ذي الشخصـية القوية، والقوامة التامة، فإنها وإن باحت بذلك، تشعر براحة توائم فطرتها، وسعادة تناسب ما جبلت عليه.

وأرى من أجل استقرار الحياة الزوجية أن تطالب المرأة زوجها بالقيام بقوامته على الأسرة كما تطالبه بالنفقة.

ومما لا شك فيه أن انهيار قوامة الرجل داخل البيت، وتحويل الدفة إلى المرأة، له عيوب كثيرة لعل من أهمها:

١ـ تسلط المرأة على الرجل، حتى يصبح القرار بيدها.

٢ـ سوء تربية الأولاد.

٣ـ انتشار المعاصي والمنكرات، وأخطرها التبرج.

٤ـ فقـدان القدوة داخل البـيت، وتتربى البنات الصـغار على قوة الشـخصـية، والأولاد الصغار على الجبن والخوف وضعف الشخصية.

هذا وفي بعض الحـالات تكون النسـاء أعقل وأحـكم وأجدر على إدارة شـؤون الأسرة والأولاد من بعض الـرجال الذين فقـدوا مقومـات القوامـة، وإن حدث هذا فبسبب سوء الاختيار وعدم التكافؤ. وهذا على خلاف القاعدة والشاذ لا حكم له.

الفصل السابع
الكرم وعدم البخل

إن الكرم من الأخلاق العريقة القديمة التي عرفها منذ الأزل أصحاب النفوس العظيمة فأكدوها في تعاملاتهم، ومدحوا بها ساداتهم، وجعلوها دليل الرفعة والفخار وغاية المجد؛ لما فيها من الإيثار وعلوِّ الهمم والأقدار، وكانت عندهم نقيض اللؤم والشنار، وفي فقدها كل مذمة وعار فالكرم عادات السادات وشيمة الأحرار وعادة السادات سادات العادات، وشيمة الأحرار أحرار الشيم .

قال أحد الحكماء : أصل المحاسن كلها الكرم، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام، وسخاؤها بما تملك على الخاص والعام، وجميع خصال الخير من فروعه .

كان الكرم أحد هذه القيم النبيلة التي اهتم بها الإسلام وأمر بها فلقد عرف الله سبحانه وتعالى نفسه لعبادة؛ فالكرم اسم من أسمائه تعالى (الكريم) وصفة من صفاته عز وجل؛ لأنه هو الذي انفرد بالملك والغنى وتوحد بالعظمة والثناء والسنا واختص بالجاه والسلطان فهو إذا عُصِي غفر وإذا اطلع أمهل وستر، وإذا وعد وَفَّى، وإذا أوعد عفا لا يضيع من لجأ إليه، ولا يثلم من توكل عليه يداه مبسوطتان بالخيرات، وله خزائن الأرض والسموات، لا ينازع في قسمة رزقه، ولا يراجع في تدبير خلقه، فهو الكريم بالإطلاق، وكما أنه الكريم نادى عباده بحب الكرم وبذل المال رضاء وجهه وابتغاء رضاه، ونهاهم عن الشح والبخل .

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران ١٣٣- ١٣٤) وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ (فاطر: ٦٧) وقال: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٩٢).

وقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١) ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٢) ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (الليل: ٥-١٠).

كما تعددت الأحاديث النبوية لهذه الأمة تدعوا المسلمين للبذل والسخاء وتبين لهم أنه طريق من طرق النجاة . فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ تعالَى جَوادٌ يُحبُ الجُودَ، ويُحبُّ مَعَالي الأخلاق ويكْرَهُ سفْسافَها**» رواه الترمذي وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا من يوم يُصْبِحُ العبادُ فيه إلا مَلَكَان يَنْزِلانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، ويَقُولُ الآخَرُ: اللهُمَّ أعْطِ مُمْسكًا تَلَفًا**» رواه البخاري، وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**مَا من مُسْلم ينفق من كل مال له زوجين في سَبيل الله إلا اسْتَقْبَلَتْهُ حَجَبَة الجَنَّة كُلُّهُمْ يَدْعُوهُ إلى مَا عنْدَهُ**» رواة أحمد، وعن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «**إنَّ في الجَنَّة غُرفًا تُرى ظُهُورها من بطونها، وبطونها من ظهورها**» فقال أعرابي: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «**هي لمن أطاب الكَلاَمَ، وأَطْعَمَ الطَعَامَ، وأَدامَ الصِّيَام، وصَلَّى بالليلِ والنَّاسُ نيام**» رواه الترمذي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل للنبي ﷺ يا رسول الله: أي الصدقة أفضل ؟ قال: «**أنْ تَصَدَّقَ وأنت صحيحٌ شحيحٌ تَخْشَى الفقْرَ وتَأمَلُ الغِنَى، ولا تُمْهلُ حَتَى إذا كَانَتْ الحُلْقُومَ قُلْتَ لفُلان كَذَا ولفُلان كَذَا، وَقَدْ كَانَ لفُلان**» رواه أحمد، كما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لاَ يَجْتَمِعُ شُحٌ وإيمَانٌ في قَلْبِ عَبْد أبداً**» صحيح الجامع (٧٦١٦)، وفي حديث آخر: «**شَرُّ مَا في رَجُلٍ شُحٌّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ**» رواه أبو داود وفي حديث آخر: «**واتَّقُوا الشُحَّ فإنَّ الشُحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**» رواه مسلم

كما كان رسول الله ﷺ أعظم قدوة عملية للمسلمين في هذا الشأن فعن جوده وكرمه حدِّث ولا حرج .

- فعن جابر رضي الله عنه قال: (ما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء قطُّ فقال: لا) رواه البخاري في الأدب.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس) رواه البخاري وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم أَجْوَدَ الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه كل ليلة في رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود من الريح المرسلة) رواه البخاري .

وأتاه رجل فسأله فأعطاه غنمًا سدت ما بين جبلين فرجع إلى قومه وقال: أسلموا فإن محمدًا يعطى عطاء من لا يخشى الفقر .

وبعد كل ما سبق إن من الأمور التي تسبب التعاسة والشقاء للأسرة بخل الزوج، فترى بعض الرجال يؤثرون أنفسهم بالطعام الفاخر واللباس الأنيق دون أهليهم وأولادهم، فترى الواحد منهم ينفق أمواله على أصدقائه، ويبخل بماله على أولاده وزوجته ؛ بل قد يتعدى الأمر إلى إنفاق المال فيما يغضب الله عزَّ وجَلَّ من شرب للدخان أو لعب للميسر أو شرب للخمر، أو غير ذلك من الأفعال التي لا يقرها دين ولا عقل، ألا فليعلم هذا الزوج وأمثاله أن الله عزَّ وجَلَّ سيسأله يوم القيامة عن أهل بيته، روى ابن حبّان في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع؟ حتى يسأل الرجل عن أهل بيته**» .

بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل النفقة التي ينفقها الزوج على زوجته من الصدقات التي يؤجر عليها، روى أحمد في مسنده، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «**ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة ، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة ، وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة**» .

بل إن الزوج ما ينفق على أهله وأولاده نفقة يبتغي بذلك وجه الله صلى الله عليه وسلم إلا وأعطاه الله ثواب تلك النفقة، روى البخاري في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « . . . **وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بِهَا ، حتى ما تجعل في فِيِّ امرأتك**» .

ولقد حذَّر الإسلام من البخل تحذيراً شديدًا، وخاصة بخل الرجل على أهله وأولاده، روى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «**كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت**» .

والله عزَّ وجَلَّ قد جعل الإنفاق كل على حسب طاقته، قال جل شأنه: ﴿**لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا**﴾ (الطلاق:٧) .

أما إذا كان طبعًا فيه لا مفرَّ منه فللزوجة أن تأخذ - بالمعروف - ما لا بد منه مما هو ضروري ؛ لما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن هندًا بنت عتبة رضي الله عنها قالت : «يارسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم ! فقال ﷺ : «**خذي ما يكفيك وولدَكِ بالمعروف**» .

■ الفصل الثامن ■

قيام المرأة بواجبها نحو بيتها

إن من أخص الأعمال الواجبة على المرأة : العمل داخل البيت وإدارة شؤونه وتدبيره ورعاية الأولاد؛ فإن ذلك مما يجلب السعادة على البيت فعلى المرأة أن تطرد الكسل عن نفسها، وتقوم بإدارة شؤون بيتها ورعايته على خير وجه، ولها في نساء النبي ﷺ أمهات المؤمنين ونساء الصحابة رضي الله عنهن الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة؛ فلقد ورد من الآثار الصحيحة ما يدل على أنهن كن يقمن بخدمة البيت من كنس وطبخ وتربية أولاد .

ونساء هذا الزمان لسن أفضل ولا أحسن من أمهات المؤمنين وأزواج الصحابة رضي الله عنهم ، ولقد سبق وذكرنا فيما مضى قصة السيدة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما مع زوجها الزبير رضي الله عنه، ونورد هنا ملخص القصة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فعنها رضي الله عنها قالت: (تزوجت الزبير بن العوام وما له في الأرض من مال، ولا مملوك ولا شيء غير فرسه وناضحه الذي يحمل له الماء، فكنت أعلف فرسه وأستقي الماء وأخرز غربه -أي: أضبط دلوه بالخرز - وأعجن ولم أكن أحسن أخبز، وكان يخبز لي جارات لي - وكن نسوة صدق - وكنت أنقل النوى من أرض الزبير. قالت : حتى أرسل إليَّ أبو بكر بعد ذلك بخادم يكفيني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني) .

وروي: (أن فاطمة سيدة نساء العالمين رضي الله عنها أتت النبي ﷺ ؛ تشكو إليه ما تلقى في يدها من الرحى، وبلغها أنه جاءه رقيق، فقال ﷺ : **«ألا أدلكما على خير مما سألتما : إذا أخذتما مضاجعكما - أو أويتما إلى فراشكما - فسبحا ثلاثًا وثلاثين، واحمدا ثلاثًا وثلاثين، وكبرا أربعًا وثلاثين؛ فهو خير لكما من خادم»**) رواه البخاري .

ولكن من العدل أن تقسم أعباء الحياة بين الزوجين؛ فإذا ألقي على كاهل الزوج واجب العمل لكسب نفقات الأسرة والكدح الخارجي، كان على الزوجة القيام على

شؤون المنــزل وتدبيره، عــملاً بقول الــرسول ﷺ : « . . . **والمرأة راعيـة في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها** . . . » رواه البخاري من حديث طويل .

وينبغي للرجل أن يكون عونًا لأهله بحسب استطاعـته وقدرته وظروفه المناسبة؛ فلقد سئلت السيدة عائشة ﵂ : «ما كان النبي ﷺ **يصنع في أهله؟ قالت : كان في مهنة أهله**» رواه البخاري .

فهذا أكرم خلق الله وخــاتم رسل الله ﷺ **يخيط ثوبه ويخصف نعله ويحلب** شاته، ونحن لنا في رسول الله ﷺ الأسوة الحـسنة والقدوة الصالحة، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾ (الأحزاب:٢١) .

وليس معـيبًـا لمن وسع الله رزقه أن يتـخذ خادمًـا، ولكن يجب أن يكون هذا الخادم وفق الضوابط الشرعـية، وهذه مسألة تكلم فيها كثيـر من العلماء، ولقد اتخذ الرسول ﷺ وجمع من أصحابه خدامًا لهم، ولم يكن هذا معيبًا عندهم .

الفصل التاسع
المودة والرحمة بين الزوجين

ألا فلينظر كل من الرجل والمرأة بعين البصيرة إلى قول الله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١) .

نعم؛ لقد جعل الله سبحانه وتعالى المودة والرحمة بين الزوجين؛ فالله عز وجل قد خلق النساء من جنس الرجال، وجعل بدء خلق المرأة من جسد الرجل؛ ليتحقق الوفاق ويكتمل الأنس، وجعل بين الجنسين المودة - أي: المحبة - والرحمة - أي: الشفقة- ليتعاون الجنسان على أعباء الحياة وتدوم الأسرة على أقوى أساس وأتم نظام، ويتم السكن والاطمئنان والراحة والهدوء؛ فإن الرجل يمسك المرأة ويتعلق بها إما لمحبته لها أو لرحمة بها، بأن يكون لها منه ولد أو محتاجة إليه في الإنفاق أو للألفة بينهما وغير ذلك[١] .

إن هذه المودة والرحمة تكون بين الزوجين حينما يسيران على منهج الله عز وجل، فنحن نجد الطلاق في هذا العصر يحدث كثيرًا وبصورة مخيفة إلى حد لا يمكن السكوت عليهما، وقد يتساءل القارئ : أين المودة والرحمة في علاقة كلا الزوجين بعضهما ببعض؟! نقول لهذا السائل : لو أن كلا الزوجين اتقى الله عز وجل في الآخر؛ لرفرفت عليهم السعادة وحل الهناء والوئام، ولكننا نجد كثيرًا من الأزواج والزوجات كل واحد منهما يطالب بحقوقه دون أن يعطي حق غيره عليه؛ فمن أين إذن توجد المودة والرحمة؟! فهدية من الرجل لزوجته أو فسحة جميلة مع ابتسامة من الزوجة لزوجها، والعمل على إرضائه بهذه الأشياء وغيرها يحلّ التفاهم محل الشقاء، والانسجام محلّ الخلاف، والله سبحانه وتعالى حينما يتقرب إليه العبد ويؤدي ما عليه من الحقوق؛ سيجعل حياته هنيئة سعيدة، ولن تكون المودة والرحمة

(١) «التفسير المنير» وهبة الزحيلي (ج١٢)، (ص٦٩).

إلا بابتعاد كل منهما عما ينفر صاحبه وسعيه إلى ما يرضيه، وتفانيه في أداء الواجب والتسامح والصفح عن الهفوات .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى الرجال أن يعاشروا أزواجهم بالمعروف، ورغبهم في الصبر عليهن، ووعدهم على ذلك بالخير الكثير؛ حيث يقول جل جلاله: ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ (النساء:١٩) .

والنساء مأمورات أيضًا بذلك، ولكن الخطاب للرجال؛ لأن مظنة الظلم منهم أكثر لسلطانهم وقوتهم على حين أنه من المرأة أقل لضعفها[1]، ولهذا السبب أيضًا وجه الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه الأمر إلى الرجال ليحسنوا عشرة أزواجهم، حيث قال ﷺ في حجة الوداع : « . . . **فاتقوا الله في النساء؛ فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله** » رواه مسلم .

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو مضت ليلة الزفاف، فهل مضى معها الحب والذكريات؟ وهل توقفت نبضات المودة والرحمة بينهما؟ إن الجواب نجده في هذه الآية الحكيمة: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (الروم: ٢١)

فلا وجود للبغض، فقد قال ﷺ : «**لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقًا رضي منها خلقًا آخر**» رواه أحمد ومسلم

بل حب وتسامح من قبل الزوجين، ولا داعي لوجود المنغصات فإن وجد شيء منها فلا بد من إزالته، وذلك بالرجوع إلى العهد الذي بينهما: عهد المودة والرحمة، عهد المحبة والاستقرار، فالمشاحنات اليومية، والخلافات المستمرة لا وجود لها بين زوجين أحبا بعضهما حبًا خالصًا لا تشوبه شائبة .

---

(١) «العلاقات الأسرية في الإسلام» د. محمد عبد السلام أبو النيل .

ولقد استنكر رسول الله ﷺ ما يحدث من بعض الرجال من إيذاء زوجاتهم ثم يريدونهن أن يمتثلن لشهواتهم فقال ﷺ : «**يعمد أحدكم فيجلد امرأته جلد العبد فلعله يضاجعها من آخر يومه**» رواه البخاري ومسلم .

إن النبي ﷺ ينكر هذا العمل، الذي يميل إلى الحيوانية، لا إنسانًا محبًّا يشعر بالمودة والرحمة، والزوجة . . تلك الإنسانة الوديعة التي لا تستطيع أن تدافع عن نفسها بقوة الجسد، بل لها قلب ينبض بالحنان، وروح تسمو إلى الرأفة والألفة، فماذا تفعل إن حدث هذا معها؟!

إنها ستشعر بفقد حبها وكرامتها ومكانتها عند زوجها، وإن فقدت ذلك، تاهت مع التائهات.

ومن توطيد رسول الله ﷺ لهذا الحب بين الزوجين قوله: «**هلاّ بكرًا تلاعبها وتلاعبك**» (رواه الشيخان) .

فاستمرار الملاعبة، دليل على استمرار الحب، ورسوخ الرحمة في قلبيهما، وقد وصف رسول الله ﷺ الزوج الذي لا يداعب زوجته بالجفاء فقال: «**ثلاثة من الجفاء. . . -ومنها- أن يجامع الرجل زوجته ولا يُقَبِّلَهَا**» (رواه الديلمي) إنه جفاء حقًّا؛ لأن إشباع الغريزة لا يكفي.

وهكذا وضع الإسلام ركائز عظيمة ليبني عليها الحب الصادق، وليبقى الزوجان في سعادة دائمة، واطمئنان نفسي مستمر.

الحب وحق الزوج:

حينما يكون الحب قائمًا بين الزوجين، يصبح الشعور بالحب قويًّا من كلا الطرفين تجاه الآخر، فالزوجة حينما تكون علاقة حبها قوية مع زوجها، ستطبق جميع الحقوق التي وجبت عليها، وما هذه الحقوق إلا صورة عملية، وإشعار لزوجها بالحب الذي استقر في قلبها، لهذا يقول رسول الله ﷺ : «**الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**» رواه مسلم .

الحب وحق الزوجة :

كما أن الزوجة تظهـر حق زوجها بحبها له، كذلك على الزوج أن يظهـر حقها بحبه لها، فما هذه الحقوق ؟

إن أول حق للزوجـة، هو تلك المعاشرة الحـسنة من قبل الزوج، ويتـضح هذا من خلال قول الله تعالى: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾(النساء: ١٩) فالمعاشرة الحسنة هي أساس اطمئنان النفس، وركن من أركان الحب الذي يظهره الزوج لزوجته، فمهما قدم لها من حقوق، وكان فظًّا معها في معاملته فسيبقى الاطمئنان والارتياح النفسي مفقودًا بينهما، ويدلنا على هذا قول نبي الرحمة ﷺ : «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**» .

الحب وحق الأولاد :

إن النسل هدف أصيل من أهداف الحياة الزوجية، فحينما يكون الحب متبادلاً بين الزوجين لا بد من تقوية لهذا التبـادل، وذلك بسعيهما وبدافع الرغبـة منهما التي لها جذورها في نفـسيهما لـوجود طفل بينهما، يرمـقانه بعين الرحمة والحنان ويضـمانه بروح المحبة والاطمئنان، ويبـذلان قصارى جهدهما لإسعـاد هذا الطفل؛ لكي يشعر بالحب والألفة، بالسعادة والسلام.

كل ذلك يتحقق حينما يكون هدفهما مـوحدًا ومتجانسًا، فيغرس الحب في قلب الطفل كما غرس في قلبيهما .

ويقول الدكتور محمود بن الشريف في كتابه «الحب في القرآن» :

وقد تهبُّ رياح حقد وكراهية فتثير في أرجاء البيت عواصف وزوابع، وقد تظلل سماء البيت سحابة قاتمة سوداء تعكر الصفـو وتنذر بالقطيعة والتفرق، وقد تمر فترات تتقلب خلالها القلوب فتنقلب آيات المحـبة والرحمة إلى بغض ونفور، وتضيق نفس الزوج أو الزوجة بالمنزل ومن فيه وما فيه، وإن لم يثـبت البنيان العائلي أمام ما اعتراه من هذه الطوارئ والمفـاجآت؛ تركت أخـاديد عمـيقـة في بنائه، إن لم تكن الحـياة الزوجية وقت ذاك مدعمة بحسن العشرة .

والقرآن الكريم قد عالج هذه الحالات التي تعتري نفسية الأزواج.. فوضع لهم ذلك المبدأ ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ والمعاملة باللطف واللين، فإن استبدت بهم النوازع وتحجرت العواطف وتملكتهم الكراهية.. ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا..﴾ وكما يكمن البرء في مر الدواء. وتحمل الشدة في طياتها بوادر الفرج، فقد يكون وراء الكراهة ما وراءها من جليل الخير وجزيل النعم ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(النساء: ١٩) على أن حسن المعاشرة لا يطالب به الرجل وحده، ولا المرأة وحدها، بل هو قدر مشترك بينهما يطالب به كل منهما.

إن كلمة رقيقة من أحدهما للآخر.. أو دعابة مستملحة، أو هدية في مناسبة - وما أكثر المناسبات في الحياة الزوجية - أو مشاركة رمزية من الزوج في أعباء المنزل وأعماله.. وإن هذه الأشياء التي تبدو لدى بعضهم أشياء تافهة صغيرة لها وقع في النفوس، ولها نفع وأي نفع.

الحب يبني الأسرة المسلمة:

يقول الأستاذ محمد قطب في كتابه «منهج التربية الإسلامية»:

ومن أجل تحقيق التوازن في سد حاجات الإنسان النفسية والبدنية اعتبر الإسلام الغريزة الجنسية إحدى الطاقات الفطرية في هذا التركيب ويجب أن يتم تنظيم وضبط تصريفها لا إطلاقها ولا كبتها.

إن استخراج هذه الطاقة من جسم الإنسان ضروري كما أن اختزانها غير سوي وفيه مضرة.. ولكن بشرط الانتفاع بها وتحقيق مقاصدها الإنسانية.

وأول تلك المقاصد: عقد أواصر المودة والرحمة بين الرجل والمرأة.

وثانيها: تكوين الأسرة محضن الأمن والراحة والسعادة، ومفرخ الأجيال، ومصنع الرجال ومناط المسؤولية الاجتماعية، وهي مباءة جديدة يتسع فيها معنى الحب ويكبر، ويزداد نموًا وتألقًا وإشراقًا.

وثالثها: إخصاب الحياة باستمرار النوع الإنساني وتكاثره ومن ثم يتسلسل الحب مودة ورحمة وتعاطفًا من الأسرة الصغيرة إلى الأسرة الاجتماعية الكبيرة .

ورابعها : استفراغ الطاقة الجنسية في أسلوب بعيد عن البهيمية المحضة والفوضوية المطلقة تحقيقًا للراحة النفسية والحسية عند الطرفين .

وخامسها: أن يظل الحب عنوانًا مهيمنًا يسمو بروح الإنسان وجسده عن دنيوية وحيوانية الجنس . اهـ .

إذن فالميل الفطري نحو الجنس الآخر إذا نبت منه الحب فلا بد أن يروى هذا النبت بالنكاح؛ ليثمر لنا خير الفرد والأسرة والمجتمع النكاح هو النهاية الطبيعية للمحبين .

روى ابن ماجه والحاكم عن ابن عباس ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: «**لم يُر للمتحابين مثل النكاح**». المعنى أنك أيها المحب لم تر ما تزيد به المحبة مثل الزواج فإذا رأى رجل امرأة فأخذت بمجامع قلبه فنكاحها يورثه مزيدًا من المحبة، ولذا قال العلماء: أعظم الأدوية التي يعالج بها العشق النكاح فهو علاجه الذي لا يعدل عنه لغيره ما وُجد إليه السبيل. راجع: «فيض القدير» للمناوي.

ومن القواعد الحياتية المسلَّم بها في دنيا الناس أن لكل داء دواء، ولكل مرض علاجًا، سواء كان في البدن أم في النفس، في الجسم أم في أعماق الوجدان.

وحيث إن الحب عاطفة أصيلة في الكيان النفسي للإنسان، بل هي مدار كل الرغبات والانفعالات والصلات، ومرتكز التجاذب أو الابتعاد، تتأثر بالموجودات والمتطلبات تبعًا لصفاء النفس وإشراقها سموًا، أو عتمتها وإخلادها إلى الأدنى هبوطًا فهي بين استقامة وانحراف .

والاستقامة علامة صحة وسلامة، والانحراف مؤشر مرض وابتلاء... وكلما كان الانحراف أشد كان الداء أظهر وأكثر فتكًا.

وفي القاموس الطبي : إن صحة وصدق التشخيص نصف العلاج، فإذا وضع الطبيب يده على المرض سهل عليه علاج المريض، وهانت عليه مداواته.

والله تعالى، الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، والذي ركب فيه طاقاته وقدراته، وهو أعلم به منه.. وقد يسر للإنسان سبيل الوصول إلى تمام العلاج من داء الهوى، صراطًا ميسرًا وجرعة كافية، سواء كان ذلك الحب المألوف المعهود، أم الحب بمعناه الأوسع الأعم، فمن تنكب الطريق... أو ازداد من الجرعات فقد أخطأ طريق المداواة، وتفاقمت العلة عنده، وأنذرت بالخطر الشديد حاضرًا ومستقبلاً في دنياه وآخرته.

ومن نافلة القول أن نكرر الحديث النبوي الشريف القائل : «**لم يُرَ للمتحابين مثل النكاح**» إذ إن إلحاح الغريزة وسُعرها أشبه بالسياط تلسع البدن وتستحثه، ألا ترى معي كيف أن الحوذيَّ يقرع بهيمته تارة بالعصا، وطورًا يلاحقها بالسياط لتسرع في السير، فتركض وتجري لاهثة تعبة، وقد يكون العبء ثقيلاً فتسقط من الإعياء، وقد تقضى ! ومن العدل والحق أن يخفف الحمل، وأن يتئد في السير، فيضمن الوصول وعدم الخسارة.

وعن رسول الله ﷺ قال : «**إذا أحدكم أعجبته المرأة فوقعت في قلبه فليعمد إلى امرأته فليواقعها فإن ذلك يرد ما في نفسه**» رواه مسلم وغيره .

هذا بالنسبة للمتزوج المحب.. أما العازب فماذا من أمره ؟

قال ﷺ : «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**» رواه البخاري ومسلم .

والحديث من الوضوح إلى درجة لا تتطلب جهدًا عقليًا لإدراك معناه ومغزاه.

علمًا بأن الفردية مكروهة ممقوتة، شرعًا وعقلاً، فهي لا تنطوي على خير أو استقامة، ولا تؤدي إلى أي واحد منهما و(**لا رهبانية في الإسلام**).

« ... **وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني**» (رواه البخاري ومسلم) .

ويروي لنا التاريخ قصص بيوت كثيرة في الإسلام بُنيت على أساس الحب الصادق فأثمرت خير الثمار.

■ الفصل العاشر ■

النظافة

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف:٣١)، ويقول ﷺ : «الطهور شطر الإيمان» رواه مسلم .

وعن صالح بن أبي حسان قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: «إن الله طيِّبٌ يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريمٌ يحبُ الكرم، جَواد يحب الجود؛ فنظِّفوا -أراه قال: أَفْنِيَتَكُم- ولا تشبهوا باليهود». قال: فذكرت ذلك لمهاجر بن مسمار فقال: حدثنيه عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، عن النبي ﷺ مثله إلا أنه قال: «نَظِّفوا أَفْنِيَتَكُم») قال أبو عيسى: هذا حديث غريب(١) .

وقال ﷺ : «اغسلوا ثيابكم، وخذوا من شُعوركم، واستاكوا وتزينوا وتنظفوا؛ فإن بني إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم» الجامع الصغير .

فالإسلام قد أولى النظافة جل عنايته؛ لما فيها من وقاية الإنسان من الأمراض والأوبئة، وليبدو في منظر حسن وصورة جميلة محببة إلى النفس، والنظافة إحدى أسباب السعادة بين الزوجين، فإذا أهمل كل واحد منهما نظافة جسمه ونظافة ثيابه، فإن منظره يكون بشعًا ورائحته نتنة، فينفر الآخر منه، فلا يحب أن يقترب منه ويرغب فيه، وبذلك يتحول عنه إلى غيره؛ ولهذا ينبغي أن يتزين كل واحد لصاحبه بالصورة التي يحب أن يظهر فيها، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «إني أتزين لامرأتي كما كانت تتزين لي»(٢) .

وكان الرسول ﷺ يأمر دائمًا أصحابه بأن يظهروا أمام الناس بالمنظر المحبب، فقد جاء إليه مرة رجل ثائر شعر الرأس، فأشار إليه بإصلاح شعره، وما كان الرسول ﷺ يظهر أمام الناس إلا نظيف الملبس مُسَرَّح شعر الرأس واللحية، فالمرأة الذكية

---

(١) «تاج العروس» (ج٣) (ص١٦٢) .

(٢) «الجامع لأحكام القرآن الكريم» (ج٥) (ص٩٧).

هي التي عندما يعود زوجها من عمله تستقبله، وقد ارتدت أجمل الثياب، وتضع أفضل العطور، وتبدو في أحسن هيئة وأجمل صورة؛ فهذا -بلاشك- يدخل الفرحة والسرور إلى قلب الزوج، وتعينه بذلك على غض بصره ما دام له زوجة تتجمل له، وتتزين، وليس هذا للمرأة فقط، بل على الرجل -أيضًا- أن يتزين لزوجته .

قال يحيى بن عبد الرحمن الحنظلي: (أتيت محمد بن الحنفية فخرج إليَّ في ملحفة حمراء ولحيته تقطر من الغالية -نوع من الطيب- فقلت : ما هذا؟ قال: إن هذه الملحفة ألقتها عليَّ امرأتي ودهنتني بالطيب، وإنهن يشتهين منا ما نشتهي منهن).

كما يجب على المرأة أن تعتني بنظافة بيتها، فتجعل سلة تلقي فيها المهملات، ثم تُلقى في المكان المخصص للقمامة؛ لأن رسولنا الكريم ﷺ قد حثنا على ذلك، فقال: «**إن الله طيب يُحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جَوَادٌ يُحب الجود، فنظِّفُوا أَفْنِيَتَكُم ولا تَتَشَبَّهُوا باليهود**» قال أبو عيسى: حديث غريب، ويبدو أن اليهود ما كانوا يهتمون بالنظافة في ذلك الوقت .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : «**الإسلام نظيف فتنظفوا؛ فإنه لا يدخل الجنة إلا نظيف**»[١] .

وننبه على نقطة هامة فقد تظن بعض النسوة أن من النظافة ترقيق الحاجبين فتقع في أمر قد نهى الشرع عن فعله عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: (لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ مَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ) رواه البخاري

وعن مسروق : (أن امرأة جاءت إلى ابن مسعود فقالت : أنبئت أنك تنهى عن الواصلة ؟ قال : نعم، فقالت : أشيء تجده في كتاب الله أم سمعته عن رسول الله ﷺ ؟ فقال : أجده في كتاب الله وعن رسول الله ﷺ ، فقالت: والله لقد تصفحت ما بين دفتي المصحف فما وجدت فيه الذي تقول، قال : فهل وجدت فيه

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط، وفيه نعيم بن مورع وهو ضعيف. راجع: [مجمع الزوائد] باب: النظافة .

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] ؟ قالت : نعم، قال : فإني سمعت رسول الله ﷺ نهى عن النامصة، والواشرة، والواصلة، والواشمة، إلاّ من داء، قالت المرأة : فلعله في بعض نسائك ؟ قال لها : ادخلي، فدخلت ثم خرجت، فقالت : ما رأيت بأسًا، قال : ما حفظت إذن وصية العبد الصالح ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨] رواه أحمد.

ويجب على الزوجة أن تهتم بنظافة أطفالها بتقليم أظفارهم والعناية بهم بعد خروجهم من الحمام؛ حتى لا تتكاثر الميكروبات في الأماكن الحساسة لدى الذكر أو الأنثى، وأن يستحم الأطفال على الأقل مرة كل ثلاثة أيام؛ لأنهم غالبا ما تتعلق الأتربة بأجسامهم وملابسهم نتيجة للعبهم مع أقرانهم أو بمفردهم كما يجب على الأم أن تبعدهم عن الحيوانات الأليفة وخاصة القطط؛ حتى لا يصابوا بالحساسية نتيجة ملامستهم. هذا ما كان عن النظافة الحسية .

أما طهارة الجوارح عن الجرائم والآثام فطهارة العين تكون من الخيانة والنظر إلى الحرام، وطهارة الفرج تكون من الزنى واللواط والسحاق والاستمناء قال سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ..﴾ (النور: ٣١).

وطهارة اللسان تكون من الغيبة والنميمة والسب واللعن وفحش القول والكذب. فعن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «**وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا**» رواه البخاري .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : (كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير فقلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال ﷺ : «**لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا**

أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٨]، ثم قال ﷺ : «**ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟**» قلت: بلى يارسول الله، قال ﷺ : «**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله**» ثم قال: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟**» قلت: بلى فأخذ بلسانه فقال: «**كف عليك هذا**»، قلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به قال: «**ثكلتك أمك يا معاذ وهل يُكبُّ الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟!**» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وطهارة الأذن تكون بكفها عن سماع المحرمات من غناء وموسيقى وغيبة ونميمة قال جلت قدرته: **﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾** (الإسراء: ٣٦).

وطهارة اليد تكون بكفها عن السرقة والبطش بالآخرين .عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا**» رواه مسلم.

وطهارة الرِّجْلِ تكون بعدم السير بها إلى مواطن الحرام أو بالفرار بها من الزحف أو بالمشي بها في اختيال وتكبر، قال تباركت أسماؤه: **﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً﴾** (الإسراء: ٣٧).

وطهارة البطن تكون بالبعد عن الأكل الحرام والشرب الحرام سواء أكان حلالاً ولكنه غصبه أو اشتراه بمال حرام، أم ملأ بطنه بما كان حرامًا في ذاته مثل الخمور والمخدرات ولحم الخنزير وغيره مما حرمه الله على المؤمنين إلا في حالة الضرورة .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«يا كعب بن عجرة إنه لن يدخل الجنة لحم نبت من سحت»** رواه أحمد والدارمي.

وهناك تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة كالنفاق فقد كان من دعائه ﷺ : **«اللهمَّ إني أعوذ بك من الشِّقاق والنفاق وسوء الأخلاق»** رواه أبو داود والنسائي.

وهناك تطهير السر عما سوى الله تعالى وهو طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم والصديقين[1] .

(١) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» للغزالي (ص٢٤).

▪ الفصل الحادي عشر ▪
الاحترام المتبادل بين الزوجين

إن من أسباب دوام المحبة والألفة بين الزوجين، أن يحترم كل منهما الآخر ويحافظ على مشاعره وأحاسيسه؛ فإزالة الكلفة وعدم احترام الزوجة للزوج، والزوج للزوجة قد تزرع بينهما الشقاق والخلاف .

فالزوج حينما يمزح مع زوجته يجب أن يكون مزاحه معقولاً؛ فلا يتمادى فيه وإلا سقطت هيبته أمام زوجته ويحدث ما لا يحمد عقباه، وكذلك الزوجة يجب عليها أن تراعي في مزاحها مشاعر زوجها وأحاسيسه؛ فلا تتكلم أمامه بكلمة تجرح فيها شعوره، كما يجب أن يكون هذا المزاح بين الزوج والزوجة فقط لا يكون أمام أهليهما ولا أمام أولادهما .

ويجب أن نختار وقت المزاح والمداعبة؛ فالزوجة قد ترى زوجها مجهدًا ومتعبًا بعد عمل يوم شاق ويريد الراحة وتريد أن تداعبه، فهذا قد يغضب الزوج، كما أن الزوج الذكي الوفي يحرص على احترام نفسية زوجته ويبادلها ما تقدمه له من الحب والتقدير، فهذا أدعى إلى دوام المحبة والسعادة بين الزوجين .

وأرى أنه من دواعي الاحترام المتبادل بين الزوجين ومراعاة كل منهما نفسية صاحبه عمل الآتي:

فالزوجة عليها أن تشارك زوجها في السؤال عن همومه، ومحاولة إدخال السعادة إلى قلبه، ولا تضخم بعض المشاكل التي يمر بها زوجها، ولا تحاول انتقاص أهله في ملبسهم أو أخلاقهم أو معاملاتهم، وعليها عدم إطالة الحديث في الهاتف عند وجود زوجها في المنزل، ولا تحاول مقارنة زوجها بزملائه وتعدد ما فعلوا لزوجاتهم، وأن تعين زوجها على أمور دينه كقيام الليل وإيقاظه للصلوات، ولا تنقل أسرار بيته للخارج، مع الاهتمام بأقارب الزوج وخاصة والديه، والمداومة على

صلتهم؛ فهذه الأشياء وغيرها تدخل السرور إلى البيت وتجعله يرفرف على الأسرة، هذا من جانب الزوجة أما الزوج فعليه ألا يكثر المزاح؛ لأنَّ كثرة المزاح تؤدي إلى قلة الهيبة وعدم الاحترام، وعلى الزوج أيضًا أن يستشير زوجته في بعض الأمور التي تواجهه، وإن لم يأخذ برأيها؛ فإن ذلك يدخل السرور عليها، وله في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة؛ فقد استشار أم المؤمنين السيدة أم سلمة رضي الله عنها بعد صلح الحديبية بعدما كره بعض الصحابة هذا الصلح؛ لأنهم رأوا فيه غبنًا لهم، فدخل عليها فقال: «**يا أم سلمة، ما شأن الناس؟**» قالت: يا رسول الله، قد دخلهم ما قد رأيت؛ فلا تكلمن منهم إنسانًا، واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق؛ فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك. فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحدًا حتى أتى هديه فنحره، ثم جلس فحلق، فقام الناس ينحرون ويحلقون». رواه أحمد. فكان الأخذ برأيها نجاة للمسلمين.

وعليه ألا يكثر من العتاب لها أو معاقبتها، وخاصة أمام أبنائه أو بحضور آخرين؛ فذلك مدعاة للشقاق وعدم الألفة.

كما عليه أن يغض الطرف عن بعض التقصير الذي يقع من الزوجة كتأخير الطعام أو عدم كي الملابس ... إلخ.

وهدية صغيرة أيها الزوج لزوجتك، ونزهة قصيرة؛ ففي هذا وغيره كسر للملل وتغيير لنمط الحياة.

واعلمي يا أمة الله أن كل إنسان يحب من يحترمه ويمقت من يحقره أو من لايقدم له الاحترام، والزوج في بيته أشد مايحتاجه هو الاحترام من قبل زوجته وأولاده؛ حيث إنه يلاقي خارج المنزل يوميًا أنماطًا مختلفة من البشر منهم المؤدب والمحترم، ومنهم من يسمعه إهانة أو قولاً يعتبره طعنة في صميم شخصيته؛ لذا فهو في أمس الحاجة أن يرى في زوجته المواسي المحب العطوف الذي يهون عليه صعوبات الحياة وصعوبة التعايش مع أفرادها، فعلى الزوجة أن تبدي له الاحترام

بشكل يليق به، وتحث أولادها على احترامه وطاعته، واستقباله الاستقبال اللائق عند مجيئه بالهدوء، وسماع الكلام اللطيف الذي يؤنسه ويذهب عنه التعب أو معاناته مع الناس.

فالزوجة العاقلة الحليمة لا ترى في نفسها زوجة فقط فهي أم وأخت وصديقة لزوجها، قال رسول الله ﷺ: «**ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيرًا له من زوجة صالحة**». فالزوجة الصالحة تعوض زوجها عن كل ما يفتقده وتشعره بمحبتها و حرصها عليه وعلى شعوره من أن يُخدش.

فبعض الزوجات يعتقدن أن حسن الاستقبال والاحترام خاص بالضيوف فقط أما الزوج فلا يحتاج إلى كل ذلك الاهتمام والرعاية، وهذا رأي خاطئ جدًّا، فهل من الإنصاف استقبال الضيوف أفضل استقبال، ولايستقبل رب الأسرة الذي يكد من الصباح حتى المساء، من أجل توفير المعيشة المناسبة لأسرته؟! بل هي من أبسط حقوقه أن يقدم له كل احترام عند قدومه واستقباله بالبشر والطلاقة التي بها تهون المصاعب والآلام.

ومن الأمور التي تعزز الاحترام بين الزوجين وتنمي العلاقة الأسرية عدم رفع صوت الزوجة على صوت زوجها وبخاصة أمام الآخرين؛ إذ إن رفع صوت الزوجة على صوت زوجها أمام الآخرين يجعله في موقف حرج، والأمر لايخلو من تصرفين.

الأول: إما أن يسكت الزوج وهذا الأمر يسقطها من أعين الناس ويظهرها بمظهر غير مؤدب ويظهره بمظهر الرجل الضعيف قليل الحيلة.

الثاني: أن يرد عليها بمثل ما فعلت؛ وحينها ستمتلئ القلوب ضغينة، وهذا يذهب المحبة والألفة، ويصبح البيت بؤرة نزاعات ومخاصمات ممايجعل الحياة مستحيلة، ويزداد الأمر صعوبة إذا كان هناك أولاد فكيف يكون حالهم ونفسيتهم في هذا الجو المشحون بقلة الاحترام؟!

فالجدير بالمرأة إذا كان زوجها عصبي المزاج أن تصبر عليه وتتحمله، وتجد له العذر وتغض الطرف عما بدر منه، قال رسول الله ﷺ: «**خير نسائكم التي إن غضبت أو غضب زوجها قالت له: يدي بيدك لا أكتحل عيني بغمض حتى ترضى عني**».

وكذلك عدم إظهار عيوب الزوج أمام الآخرين حيث لايوجد إنسان خال من العيوب فلابد أن يكون في كل إنسان ثغرة أو نقص معين، فالمرأة الحكيمة المبقية على الحياة الزوجية يجب أن تغض الطرف عن عيوب زوجها ولا تذكرها أمام الآخرين. قال رسول الله ﷺ: «**كفى بالمرء عيبًا أن يبصر من الناس مايعمي عنه من نفسه، وأن يسر الناس بما يستطيع تركه، وأن يؤذي جليسه بما لايعنيه**». و إن كان العيب قابلاً للإصلاح فلا بأس من السعي لإزالته بالكلام اللطيف والأسلوب اللين وبالتحمل والصبر، وإذا كانت المرأة ذات عقل تستطيع أن تغفل عن عيوبه بتأمل حسناته والرضا بها.

قال الشاعر:

وعينُ الرِّضا عَنْ كُلِّ عيب كَلِيلَةٌ وعَيْنُ السُخْطِ تُبْدِي المَسَاوِئَا

لتعلم الزوجة أن احترام الزوج سوف يجعلها محترمة من قبل زوجها ومن قبل الآخرين، تلبي طلباته بأدب وترد على كلامه بأسلوب لطيف مما يزيد من مكانتها في قلب زوجها، وكذلك تمدحه أمام الأقارب والأصدقاء ولاتتحدث عندما يكون متحدثًا بل تشعر الجميع باحترامها وحبها وتقديرها لشخصيته؛ لتجعل له مكانة في أعين ونفوس الآخرين وتحيطه بهالة من الاحترام. كذلك عليها أن تعلم أولاده كيفية احترام الأب. تؤنبهم وتوبخهم بشدة إذا ما أبدوا أي سلوك يظهر غير ذلك؛ لأنهم بتصرفاتهم يعكسون تربية الأم وسلوكها، فإن كانوا صلحاء وعلى خلق فهو دليل على حسن تربية الأم وسمو أخلاقها والعكس صحيح.

على الزوجة السكوت والصبر عند غضب الزوج فطبيعة عمل الزوج خارج المنزل تجعله يحتك بأشخاص مختلفي الطباع فيداري هذا، ويتلطف إلى ذلك، فيرجع إلى بيته وهو منهك الأعصاب تثيرها أتفه الأمور، وقد تبدر منه كلمة نابية أو إهانة

للزوجة أو الأبناء دون قصد، فإذا كانت الزوجة فطنة ومدركة تقابله بالسكوت تقديراً منها لطبيعة عمله ومشكلاته فعندما تنتهي العاصفة سيندم علي ما قال، وتسمو زوجته في نفسه ويزداد احترامه لها، أما إذا كانت غير مدركة لمواقف زوجها نردت عليه وهو في حالة الغضب فإن ذلك يترك آثاراً غير طيبة في نفسه لا تنمحي أبداً.

كما ينبغي على الزوج أن يراعي شعور زوجته، ولا يحاول التقليل من شأنها أمام الآخرين، بل يثني عليها خيراً، وأسوته في ذلك الرسول ﷺ ، الذي ما فتئ يثني على زوجه خديجة رضي الله عنها حية وميتة .

والزوج اللبيب الذي إن حدث من زوجته شيء لا يراه صواباً، ألا يعنفها أمام أبنائه، بل فيما بينه وبينها، بذلك ينشأ الأبناء متمرنين على الاحترام الذي ألفوه من بيتهم الذي تربوا فيه .

الفصل الثاني عشر

تحمل المسؤولية نحو الأهل والأبناء

إن الزوج عليه مسؤولية عظيمة تجاه زوجته وأولاده، يقول الله عز وجل: ﴿**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ (التحريم:٦) .

فعلى الرجل أن يصلح نفسه بالطاعة، ويصلح أهله إصلاح الراعي للرعية؛ ففي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال : «**ألا كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته؛ فالإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته**» رواه البخاري .

ونظير الآية الكريمة قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ (طه:١٣٢) وقوله جلت قدرته مخاطبًا نبيه ﷺ : ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾ (الشعراء: ٢١٤) .

روى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال : «**رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ أهله؛ فإن أبت نضح في وجهها الماء، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلَّت وأيقظت زوجها؛ فإن أبى نضحت في وجهه الماء**». وروى أيضًا: أن النبي ﷺ كان إذا أوتر يقول : «**قومي فأوتري يا عائشة**» .

وقد روى عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله عنهم ، عن النبي ﷺ قال : «**مروا أبناءكم بالصلاة لسبع سنين، واضربوهم عليها لعشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع**». رواه أحمد وأبو داود والحاكم .

وروى الترمذي في سننه، عن عمرو بن سعيد بن العاص عن النبي ﷺ قال: «**ما نحل والدٌ ولدًا من نَحْلٍ أفضل من أدب حسن**» وذكر القشيري أن عمر رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية، وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ**

نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ قال : يا رسول الله، نقي أنفسنا؛ فكيف لنا بأهلينا ؟! فقال ﷺ : «تنهونهم عما نهاكم الله، وتأمرونهم بما أمر الله» .

وقال مقاتل : ذلك حق عليه في نفسه وولده وأهله وعبيده وإمائه .

عن معاوية بن قرة أن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «من رزقه الله ولدًا فليحسن اسمه وتأديبه؛ فإذا بلغ فليزوجه» .

وفي قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾ (التحريم: ٦). إرشاد للمؤمنين بأن يقوا أنفسهم النار بأفعالهم، وأهليهم بالنصح والوعظ والإرشاد، وهذا يتطلب الالتزام بأحكام الشرع أمرًا ونهيًا، وترك المعاصي، وفعل الطاعات، ومتابعة القيام بالأعمال الصالحة، وحث الزوجة والأولاد على أداء الفرائض واجتناب النواهي، ومراقبتهم المستمرة في ذلك؛ فإن فعل الزوج ذلك مع أهله وأولاده الذين هم في مسؤوليته؛ فسوف ترفرف السعادة، ويعم الأسرة الهناءة والسرور .

الفصل الثالث عشر
المشاكل الزوجية وحلولها

إن الحياة لا تسير على وتيرة واحدة؛ فقد يعتريها من آن لآخر بعض المنغصات والمكدرات التي تعكر صفو الحياة؛ ولكن الإنسان الذكي هو الذي يستطيع تجاوز تلك العقبات والتغلب على هذه المتاعب . لا تخلو أي أسرة من مشكلات، وسوء تفاهم، وقلة استماع من كلا الطرفين للآخر، لسبب أو لغيره، لكن ذلك درجات، منها ما يطاق، ويعد طبيعيًّا في كل الأسر، ومنها ما لا يطاق ولا يعد طبيعيًّا، مما يؤدي إلى تفكك الأسرة، وانفراط عقدها المنظوم، وهو موجود في أسر دون أخرى.

ولاشك أن خلف كل دخان نارًا، ولكل داء دواء، فإذا تم تشخيص الداء سهل علينا وصف الدواء.

فللتفاهم دوره الكبير في استقرار الحياة الزوجية، وأثره الخطير في تجفيف منابع المشكلات اليومية من جذورها بين الزوجين، وإلا استفحلت المشكلة، وتضخمت، واستعصت على الحل، مما يؤدي إلى ما لا يحمد عقباه.

ومطلوب من الزوجين كليهما المصارحة والوضوح، وإفضاء كل منهما بما يختلج في صدره للآخر، وأن يكون كل منهما على درجة عالية من التفاهم والتواضع، وصفحة مفتوحة وواضحة لشريك حياته.

ولا أستطيع أن أحدد هنا على من يقع الجزء الأكبر من المسؤولية في هذا الموضوع؟

الزوج يخرج من بيته، ويعود آخر اليوم وذهنه مليء بالمشاغل بعيدًا عن بيته، ويدور في عقله أكثر من أمر يرتبط بعمله وعلاقاته المتشابكة التي ليست للمرأة.

والزوجة عندها كذلك ما يكفيها من مهام بيتها، وحقوق زوجها، وما تلاقيه من عنت مع أبنائها، يضاف إلى ذلك طبيعة تكوينها التي تتغلب فيها العاطفة على

العقل، وبالتالي يؤثر في نفسها أقل شيء، ومن هنا كانت وصية النبي ﷺ بحسن معاملتهن في غير موضع.

فالحق أنها قضية تقع على عاتق الزوجين كليهما، وأن يُعنى كل طرف منهما بها إن كانا يريدان للسفينة أن تسير، وللحياة أن تستقر.

وهو نوع من العِشرة بالمعروف، ولو تعلم الزوجة ما يدور بعقل زوجها وهو قادم من عمله، ومدى ما يعانيه من استفراغ للطاقة، واستهلاك للقوى البدنية لاستقبلته استقبالاً حسنًا، ومسحت بيديها على هذا التعب وتلك المشقة، وفتحت له صدرها لتحتضن متاعبه وآلامه، فيستعيد قواه، وينسى ما مر به من تعب، وما بذل من جهد، فيرتد قويًا تتجدد فيه دماء الحياة كأنما نشط من عقال.

ولكن الذي يحدث أنها تعاجله بما حدث من الأحداث، وما حدث من الجارات، وربما تعدى الأمر إلى حكاياتها مع الأهل، وغير ذلك من آمال المستقبل.

وليس من العِشرة بالمعروف أن تكون الزوجة كذلك، ولا من الحكمة أن تسارع إليه بحديث في وقت يحتاج فيه للصمت والهدوء، بل تحسن الاستماع لكل ما يقول، وتبدي اهتمامًا بالغًا لكل ما يتحدث به، فإذا أخذ قسطه من الراحة وحظه من الود والحب، ونصيبه من الأنس والقرب، فلا بأس أن تبوح له بما تريد إن رأت في عينيه القبول، حينئذٍ ستجد صدرًا منشرحًا وآذانًا مصغية، ومن الحكمة ألا تتكلم الزوجة حيث يجب الصمت، ولا تصمت حيث يجب الكلام. ولتكن قدوتها في ذلك أم المؤمنين خديجة (رضى الله عنه وأرضاها) التي لم ترَ النبي مهمومًا في وقت من الأوقات إلا سرَّت عنه، وأذهبت ما به من قلق، وبعثت فيه القوة والحماس.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عائشة أم المؤمنين أنه لما نزل جبريل عليه السلام بمطلع سورة العلق على رسول الله ﷺ رجع بها "يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: «زمِّلوني زملوني»، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي»، فقالت خديجة رضي الله عنها:

كلاَّ واللهِ ما يخزِيكَ اللهُ أبدًا، إنك لَتَصِلُ الرحمَ، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به وَرَقَةَ ابن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة رضي الله عنها. الحديث.

وقال ابن حجر: (وفي هذه القصة من الفوائد استحباب تأنيس من نزل به أمر بذكر تيسيره عليه، وتهوينه لديه، وأن من نزل به أمر استحب له أن يطلع عليه من يثق بنصيحته وصحة رأيه).

والزوجة التي تعلم أن زوجها هو جنتها ونارها، كما روى الحاكم عن الحُصَين ابن مِحْصَن قال: حدثتني عمتي قالت: أتيت النبي ﷺ في بعض الحاجة فقال: «**أي هذه! أذات بعل أنت؟**» قلت: نعم. قال ﷺ: «**كيف أنت له؟**» قالت: ما آلوه إلا ما عجزت عنه. قال ﷺ: «**فأين أنت منه؟ فإنما هو جنتك ونارك**».

الزوجة التي تعلم ذلك إذا غضبت من زوجها، أو أساء إليها، أو عصته قالت: «هذه يدي في يدك لا أكتحل بغمض حتى ترضى». تسارع إليه إن كان هناك غضب، ولا تنتظر أو تبحث عن المخطئ؛ لأن الأمر أكبر من ذلك، إنه جنتها ونارها.

فالمتأمل في الحياة الزوجية يجد أن هناك مشكلات كثيرة تقع بين الأزواج: منها ما يتعلق بالزوج، ومنها ما يتعلق بالزوجة، ومنها ما يتعلق بالأبناء.

وفي هذا الفصل سوف نتناول هذه المشكلات بالتفصيل، وكيفية علاج كل مشكلة على حدة. ويمكن إجمال المشكلات التي تقع بين الزوجين في عشر مشكلات:

١-نشوز الزوج.
٢-نشوز الزوجة.
٣-عمل الزوجة خارج البيت.
٤-تأخر إنجاب الزوجة.
٥- الرغبة في تتابع الإنجاب.
٦-ولادة البنات دون البنين.
٧-غياب الزوج عن زوجته.
٨-تعدد الزوجات.
٩-تفضيل بعض الأولاد على بعض.
١٠-المشاكل مع الجيران.

ومع أولى هذه المشكلات : نشوز الزوج:

هنا قد يتساءل القارئ ويقول : وهل النشوز ينطبق على الرجل كما ينطبق على المرأة؟ نقول له : نعم؛ فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿**وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾ (النساء:١٢٨) .

فدلت الآية الكريمة على أن النشوز ليس خاصًا بالمرأة فقط؛ إنما هو عام في الرجل والمرأة؛ لأن الأسباب التي تدفع الزوجة للنشوز ربما تدفع الزوج للنشوز أيضًا، ونشوز الزوج يعني : أن يكره الزوج زوجته؛ فلا يلبي رغباتها ويمل مجالستها ويترك مضاجعتها ويعرض عنها فلا يحادثها ولا يأنس بها .

فإذا خافت الزوجة إعراض زوجها عنها، ولمست مبادئ الفتور والنفور ودلائل الكراهية والابتعاد، ورأت من البوادر ما يبعث في نفسها قلقًا على استمرار الحياة الزوجية؛ فلا جناح عليهما أن يتفاهما ويتصالحا، عملاً بقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾ (النساء :١٢٨).

يعني بذلك جل ثناؤه : المرأة التي علمت من زوجها نشوزًا؛ أي : استعلاءً بنفسه إلى غيرها أثرة عليها وارتفاعًا عنها؛ إما لبغضه، وإما لكراهة منه، وإما لدمامتها، وإما لسنها وكبرها، وغير ذلك، وقوله :﴿**أَوْ إِعْرَاضًا**﴾ يعني: انصرافًا بوجهه أو بعض منافعه التي كانت لها منه[1].

وقبل حل مشكلة نشوز الزوج علينا أولاً أن نبحث عن الأسباب التي تؤدي إلى نشوزه، والتي إذا كان بمقدور المرأة تلافيها؛ فيكون ذلك أفضل، فكما قيل : الوقاية خير من العلاج، فقد يكون من أسباب نفور الزوج وإعراضه عن زوجته تقصير الزوجة في التجمل له، بحيث تقابل زوجها وهو عائد من عمله بثياب المنزل التي

---

(١) «تفسير الطبري» (ج٩) (ص٢٦٨).

تفوح منها رائحة طهي الطعام، متناسية التزين لزوجها، والظهور بمظهر حسن حتى سائر اليوم.

وفي هذا الصدد قال ابن الجوزي : ينبغي له -أي:الزوج- ألا يطلع منها على عورة، ويجتهد في ألا يشم منها إلا أطيب ريح، إلى غير ذلك من الخصال التي تستعملها النساء الحكيمات؛ فإنهن يعملن ذلك بفطرهن من غير احتياج إلى تعليم، وأما الجاهلات فإنهن لا ينظرن إلى هذا فيتعجلن التفات الأزواج عنهن، ولتكن وقت قربها إليه كاملة النظافة مستحسنة، ينبغي للعاقل أن يكون له وقت تتصنع فيه المرأة له، وينبغي أن يتصنع لها ليدوم الود[1] ، وقد يكون سبب نفور الزوج من زوجته إهمال الزوجة لأمه وعدم تقديرها والاحتفاء بها، نجد كثيرًا من الزوجات علاقاتهن مع أم أزواجهن علاقة باردة بعيدة تمامًا عن الاحترام والتقدير؛ فيتولد نتيجة لذلك الضغينة في صدر الأم، وإذا كان الزوج بارًا بأمه فسوف يسود النفور بينه وبين زوجته، فينبغي للزوجة أن تكون بارة بأم زوجها، وأن تقدم رأيه على رأيها، وأهله على أهلها، ورضاه على رضاها في غير معصية الله عز وجل، وقد يكون النفور من جانب الزوج بسبب إصابة زوجته بعاهة طارئة أو مرض يمنعها من القيام بواجباتها، وهنا يكون العلاج من جانب الزوجة، وهنا تأتي مرحلة العلاج .

علاج نشوز الزوج :

وضع الإسلام علاجًا لنشوز الزوج يتفق مع ما للمرأة من مشاعر خاصة، فأعطى الزوجة حق معالجة هذا النشوز في نطاق مسؤوليتها كزوجة، وذلك باللجوء إلى الموعظة الحسنة ومحاولة إصلاح أمرها مع زوجها، ولم يعطها الإسلام حق العلاج بالهجر والضرب كما أعطى الزوج؛ وذلك لاختلاف طبيعتها عن الرجل وضعف سلطتها عليه، ومن طرق علاج الزوج التي ينبغي على الزوجة اتباعها في حالة الخوف من نشوز زوجها ما يلي :

---

(١) «المقتنى العاطر من صيد الخاطر» تهذيب : أبي عبد الله الحداد (ص٢١١).

١- على الزوجة أن تتحرى معرفة الدافع لنشوز زوجها، والسبب في التغير والتحول المفاجئ الذي طرأ عليه، وهذا سهل يسير والزوجة الفطنة الذكية يمكنها أن تتعرف على سرِّ هذا التحول في سلوك زوجها بأكثر من حيلة ووسيلة، بمراقبة عادات زوجها ومعرفة الأماكن التي يرتادها وأصدقائه ومعارفه الذين يعاشرهم ويختلط بهم.

٢- تحري مرضاة الزوج بكل وسيلة، ولا تخجل الزوجة أو تأنف من ذلك؛ فالعلاقة الزوجية تدعو إلى التغاضي عن الهفوات والصغائر بين الزوجين، وأن تتنازل الزوجة عن قليل من كبريائها؛ للتقرب من زوجها ولتأكيد الألفة والمودة بينهما، وكم من كلمة طيبة أو إشراقة وجه في مقابلة أو لمسة حانية، وتقديم كل ما يشتهيه الزوج وتلبية حاجياته ومشاركته في حزنه وسروره، كل ذلك يكون له الأثر الحسن في عودة النفوس إلى صفائها والقلوب إلى مودتها، فيعود للحياة الزوجية إشراقها وبهجتها من جديد.

٣- مصالحة المرأة زوجها؛ فقد أباح سبحانه وتعالى للمرأة الخائفة المتوقعة نشوز زوجها أو إعراضه عنها، وبدرت لها البوادر الدالة على كراهيته إياها ورغبته عنها وثبت لها ذلك؛ فلا حرج عليها ولا عليه في الصلح الذي يتفقان عليه بينهما، كأن تسمح له ببعض حقها عليه في النفقة أو تترك له يومها تستعطفه بذلك، وتستديم المقام في حباله، والتمسك بالعقد الذي بينها وبينه من النكاح.

روي عن علي وابن عباس ﭫ: «أن الله أجاز لهما أن يصطلحا على ترك بعض مهرها أو بعض أيامها بأن تجعله لغيرها»[(١)].

وقال عمر ﭬ: «ما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز» فإذا أسنت المرأة وخافت أن يطلقها زوجها؛ فتصالح زوجها بترك يومها للأخرى، قال ابن أبي مليكة: «إن سودة بنت زمعة لما أسنت أراد النبي ﷺ أن يطلقها، فآثرت السكون معه فقالت له: أمسكني واْجعَلْ يومي لعائشة! ففعل ﷺ وماتت وهي من أزواجه»[(٢)].

(١) «أحكام القرآن» للجصاص (ج٢) (ص٢٨٢).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (ج٥) (ص٤٠٤).

وكذلك فعلت بنت محمد بن مسلمة، روى مالك، عن ابن شهاب، عن رافع ابن خديج «أنه تزوج بنت محمد بن مسلمة الأنصارية، فكانت عنده حتى كبرت فتزوج عليها فتاة شابة، فآثر الشابة عليها، فناشدته الطلاق، فطلقها واحدة، حتى إذا كانت تحل راجعها ثم عاد فآثر الشابة عليها، فناشدته الطلاق، فطلقها واحدة ثم راجعها، فآثر الشابة عليها فناشدته الطلاق، فقال: ما شئت، إنما بقيت واحدة؛ فإن شئت استقررت على ما ترين من الأثرة وإن شئت فارقتك . قالت : بل أستقر على الأثرة . فأمسكها على ذلك، ولم ير رافع عليه إثمًا حين قرت عنده على الأثرة . قال أبو عمر بن عبد البر :«فآثر الشابة عليها» يريد الميل بنفسه إليها والنشاط لها، لا أنه آثرها عليها في مطعم وملبس ومبيت؛ لأن هذا لا ينبغي أن يظن بمثل رافع .

ويمكن إجمال أنواع الصلح المباحة فيما يلي :

١-أن تعطي الزوجة على أن يؤثر الزوج، أو على أن يؤثر ويتمسك بالعصمة، أو يحسن عشرته معها .

٢-أن يقع الصلح على الصبر والأثرة من غير عطاء، كما فعل رافع بن خديج مع بنت محمد بن مسلمة .

٣- أن تصالح إحداهن صاحبتها عن يومها بشيء تعطيها، كما فعل أزواج النبي ﷺ ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان غضب على صفية، فقالت لعائشة : أصلحي بيني وبين رسول الله ﷺ وقد وهبت يومي لك ! قالت : فلبست خمارًا كان عندي مصبوغًا بزعفران ونضحته، ثم جئت فجلست إلى جنب رسول الله ﷺ فقال: «**إليك عني؛ فإنه ليس يومك** » . فقلت : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. وأخبرته الخبر، فرضي عنها .

ذكر ابن خويذ منداد في أحكامه، وفيه أن ترك التسوية بين النساء وتفضيل بعضهن على بعض لا يجوز إلا بإذن المفضولة ورضاها .

وعلى الزوجين أن يستجيبا لبواعث الصلح ودواعي الاستمرار، ويطردا من

داخلهما هواجس الخصومة والشقاق؛ فالصلح على الإطلاق خير من الفرقة والطلاق ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾(النساء:١٢٨) .

وإذا كان من السمات الملازمة للنفس الإنسانية سمة البخل بمعناه الواسع : البخل بالأموال والبخل بالعواطف والأحاسيس، والبخل بأي نوع من أنواع الماديات أو المعنويات عامة؛ فإن عليكم أيها الأزواج المؤمنون أن تتعالوا عن هذه السمة قدر وسعكم، وتستجيبوا لنداء الإحسان ولهاتف التقوى في نفوسكم، فتحسنوا الصحبة والعشرة، وتتقوا ما لا يجوز من النشوز والإعراض في حق المرأة، والله الخبير بما تعملون سيجازيكم بما تستحقونه، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (النساء :١٢٨) .

المشكلة الثانية : نشوز الزوجة

يقول الله عز وجل : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً﴾ (النساء:٣٤) .

النشوز : العصيان، مأخوذ من النشز، وهو ما ارتفع من الأرض، يقال : نشز الرجل ينشز، إذا كان قاعدًا فنهض قائمًا ومنه قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾ (المجادلة:١١) أي : ارتفعوا وانهضوا، وقال أبو منصور اللغوي : النشوز : كراهية كل واحد من الزوجين صاحبه، يقال : نشزت تنشز فهي ناشز، هذا في اللغة؛ أما في الشرع فهو : عصيانهن وتعاليهن عما أوجب الله عليهن من طاعة الأزواج[١] .

من مظاهر نشوز الزوجة :

١-الخروج عن طاعة الزوج والتمرد على سلطانه .

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (ج٥) (ص١٧٠)..

٢- التعالي على الزوج بمالهـا إن كانت غنية وهو فقير، فبـقدر قصر يده يطول عليه لسانهـا، وتعامله معاملة القوي للضـعيف أو التعالي عليه بجمـالها إن كان هو دميمًا .

٣-عدم تلبية رغبة الزوج في الاستمتاع بها .

علاج نشوز الزوجة :

وقـد اشتـملت الآية الكريمة على تدرج منطقي فـي معـالجة هؤلاء الزوجـات؛ لردعهن وإصلاحهن وردهن إلى مكانتهن الطبيعية؛ لأن تركهن في غيهن يسبب شقاء البيت ويعـرض الحياة الزوجية للتـدهور والانحلال، ويتمثل هذا الـعلاج المتدرج في ثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى :

الموعظة الحسنة، ودفع الإساءة بالإحسان؛ إن الزوج يعرف شـخصية زوجته منذ الأيام الأولى من الزواج، على أنها شخصيـة مرحة باسمة الثغر رقيقـة الشعور لطيفة المعاملة حـسنة الخلق؛ فإذا مـا رآها يومًا عـابسة الوجه لاذعـة اللسان خـارجة على طبيعتهـا الأولى؛ فلا ينبغي له في هذه الحالة أن يتسرع ويقول: إنها غيرت طـبيعتها وأصبحت في حالة لا تطاق اليوم ! وبالتالي يقدم على طلاقها وفراقها .

هذا ما يأباه الإسلام؛ بل عليه أن يقابل الإساءة أولاً بالإحسان، وبالصفح واللين واللطف؛ فإن الرفق يزيل ما بين الشخصين من عـداوة وضغينة، قال تعالى : ﴿ **وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾(فصلت :٣٤) .

فيلين قلبهـا بذكر الله عز وجل، وذكر ميثاقـه الأعظم وما أوجب الله عز وجل عليها من الحق والطاعة وحسن الصحبة وجميل العشرة للزوج، وما يلحقها من الإثم والعقاب بالمخـالفة والعصيان، ومـا عسى أن يترتب على عصيـانها وتمردها عليه من انحلال عروة الزوجية، وما يكون من ضياع الولد إن كان لهما ولد .

وينبغي عليه أن يبين لها أن النشوز يسقط النفقة والقسم، ويطالبها بالتوبة والاستقامة على طاعته؛ لأن الله عز وجل أوجب عليها حق الزوج وطاعته، وحرم عليها معصيته؛ لما له عليها من الفضل والإفضال[1] .

روى الترمذي - بإسناد حسن- أن رسول الله ﷺ قال : « **لو كنت آمراً أحدًا أن يسجد لأحد؛ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**»، وذلك لعظم حق الزوج عليها.

فابتسامة من الزوج في وجه زوجته الغاضبة ومعاملتها بالرفق واللين؛ قد يستجيش ذلك عاطفتها وترجع إلى سابق عهدها معه؛ فقد روي: (أن عائشة رضي الله عنها غضبت مرة على الرسول ﷺ حتى قالت : أتزعم أنك رسول الله يا محمد ؟! فماذا كان موقف الرسول ؟ كان الصفح واللين فقال : «**نعم يا عائشة؛ أنا رسول الله**»؛ فما لبثت أن هدأت وسكنت وعادت إلى طبيعتها الأولى) [2].

ومن ناحية أخرى فإن الإنسان ينبغي ألا يغضب لأمور تافهة، إذا ما حدث إزاءه من الآخر ما يضطره إلى الغضب، فينبغي ألا يتكلم أو يناقش حتى يسكن غضبه؛ لأن الغضب يذهب العقل، فلا يدري بماذا يتكلم، وبماذا يحكم، وكيف يتصرف، وماذا تكون نتيجة هذا وذاك، فالتصرف في حالة الغضب -ولو بسيطًا- قد يؤدي إلى أخطاء جسيمة لا تقدر بموازين العقل والحكمة[3]، ولهذا فقد أمر الإسلام بالتغلب على الغضب، روى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «**ليس الشديد بالصُرَعة؛ وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**» .

وعلى الزوج أيضًا تخويف زوجته من العقاب الإلهي لمن يبيت زوجها وهو عليها غضبان؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء؛ لعنتها الملائكة حتى تصبح**» رواه البخاري .

فإن رجعت الزوجة إلى الطاعة والأدب حرم الهجر والضرب؛ وإن أصرت وأظهرت النشوز بأن عصته وامتنعت عن إجابته إلى الفراش، أو تجيبه متبرمة مكرهة

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (ج١) (ص٤٩٢).
(٢) «إحياء علوم الدين» (ج٢) (ص٤٣٣).
(٣) «بناء البيت السعيد» مقداد يالجن (ص٢١٦).

أو خرجت من بيته بغير إذنه ولم يفد اللين والموعظة الحسنة؛ انتقل إلى المرحلة الثانية في العلاج وهي: الهجر في المضاجع وهي عقوبة نفسية .

إن المراد بالهجر في قوله تعالى: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾(النساء: ٣٤). وهو أن يكون الرجل وامرأته في فراش واحد لا يجامعها، حيث يريها أنه بالرغم من استقراره معها على فراش واحد؛ فلا تأثير لفتنتها عليه .

ولعل الإسلام يهدف من وجود الرجل بجانب المرأة، ثم إعراضه عنها حافزاً على تعرف دوافعه، ثم محاولة تصفية الخلاف وحل المشاكل المتراكمة بينهما، فيحل الوئام والوفاق محل النفور والخلاف .

يقول العقاد في كتابه الفلسفة القرآنية: (إن عقوبة الهجر في المضاجع تبدو للكثيرين كأنها عقوبة جسدية، غاية ما يؤلم المرأة منها أن تحرمها من لذة الجسد بضعة أيام أو بضعة أسابيع، إلا أنها في الحقيقة لا تؤلمها لهذا السبب، ولو كان هذا سبب إيلامها؛ لكانت عقوبة للرجل كما كانت عقوبة للمرأة، ولكنها في الواقع عقوبة نفسية في الصميم؛ لأن أبلغ العقوبات ولا ريب هي العقوبة التي تمس الإنسان في غروره وتشككه في صميم كيانه، في المزية التي يعتز بها ويحسبها مناط وجوده وتكوينه، والمرأة تعلم أنها ضعيفة إلى جانب الرجل ولكنها لا تأسى لذلك، ما علمت أنها فاتنة له وأنها غالبة بفتنتها وقادرة على تعويض ضعفها بما تبعثه من شوق إليها ورغبة فيها؛ فإذا قاربت الرجل مضاجعة له ثم لم يبالها وقع في وقرها أن تشك في صميم أنوثتها، فهذا تأديب نفسي وليس بتأديب جسدي، وهنا حكمة العقوبة البالغة التي لا تقاس بفوات متعة ولا باغتنام فرصة للحديث والمعابثة؛ إنما العقوبة إبطال العصيان بشيء كما يبطل بإحساس العاصي غاية ضعفه وغاية قوة من يعصيه، فالهجر في المضاجع لفتة نفسية عميقة لطبيعة المرأة التي تعتز بجمالها وفتنتها)[1] .

والمدة التي أجازها الشارع في الهجر غير محدودة، وغايته عند العلماء شهر؛

---

(١) «الفلسفة القرآنية» للعقاد (ص٧٦-٧٧).

كما فعل النبي ﷺ حين أسرَّ إلى حفصة ﵄ أمرًا فأفشته إلى عائشة ﵄ وتظاهرتا عليه، إلا إذا رأت حكمة الزوج المؤمن العاقل غير ذلك خلة الزيادة عليه، لكن لا يبلغ به أربعة أشهر حتى لا يبلغ مدة الإيلاء المقررة شرعًا(١) .

أما الهجر في الكلام فلا يجوز للزوجة ولا لغيرها فوق ثلاثة أيام؛ لما روى أبوهريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام**» رواه مسلم .

فإذا فشلت محاولة الزوج في الموعظة والهجر في المضجع انتقل إلى المرحلة الثالثة في العلاج، وهي تنبيه أعصابها بالضرب، وهي عقوبة مادية، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ (النساء: ٣٤). إن لم ينجح ما فعلتم من القطيعة والهجران؛ فاضربوهن ضربًا غير مبرح أي: لا شديد ولا شاق . قال الفقهاء : هو ألا يجرحها ولا يكسر عظمًا ولا يؤثر شيئًا، ويتجنب الوجه؛ لأنه مجمع المحاسن، ويكون مفرقًا على بدنها، ولا يوالي به في موضع واحد؛ لئلا يعظم ضرره، ومنهم من قال : ينبغي أن يكون الضرب بمنديل ملفوف أو بيده، وعن ابن عباس ﵄ : «أنه ضرب بالسواك ونحوه»(٢) .

هذا وقد نص بعض أصحابنا أن للزوج أن يضرب المرأة على أربع خصال، وما هو في معنى الأربع : ترك الزينة والزوج يريدها، وترك الإجابة إذا دعاها لفراشه، وترك الصلاة، وفي رواية : والغسل، والخروج من البيت إلا لعذر شرعي، وقيل : له أن يضربها متى أغضبته؛ فعن أسماء بنت أبي بكر ﵄ قالت : «كنت رابعة أربع نسوة عند الزبير بن العوام ﵁ فإذا غضب على واحدة منا ضربها بعود المشجب حتى يكسره عليها» (٣) .

وروى الترمذي في صحيحه، عن عمرو بن الأحوص ﵁ : (أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ فبعد أن حمد الله وأثنى عليه، وذكَّر ووعظ فقال : «ألا

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (ج٥) (ص١٧٢). (٢) «تفسير القاسمي» . (٣) «روح المعاني» للألوسي .

واستوصوا بالنساء خيراً؛ فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة؛ فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربًا غير مبرح؛ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا إن لكم على نسائكم حقًّا ولنسائكم عليكم حقًّا، فأما حقكم على نسائكم : فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، وألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن») حديث حسن صحيح .

وعن عبد الله بن زمعة، عن النبي ﷺ قال: «**لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد، ثم يجامعها في آخر اليوم**» رواه البخاري .

فقوله : «**بفاحشة مبينة**» يريد : لا يدخلن من يكره أزواجهن، وليس المراد بذلك الزنى؛ فإن ذلك محرم ويلزم عليه الحد .

«قال عطاء لابن عباس رضي الله عنهما: ما الضرب غير المبرح ؟ قال : بالسواك ونحوه» .

وروي: (أن عمر رضي الله عنه ضرب امرأته، فسُئِل في ذلك فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**لا يسأل الرجل فيما ضرب امرأته**») (١) .

ومع أن ضرب الزوجة عند نشوزها بعد استنفاذ وسائل العلاج السابقة من وعظ وهجر وسيلة مشروعة ومباحة، إلا أن الرسول ﷺ كره ضرب الزوجات، ولم يفعله قط، وإنما أباحه حين يكون رجوع المرأة عن نشوزها يتوقف عليه، فهو لا يكون إلا لداع قوي وضرورة ملحة .

فعن أم كلثوم بنت الصديق رضي الله عنها قالت :(كان الرجال نهوا عن ضرب النساء ثم شكوهن إلى الرسول ﷺ فخلى بينهم وبين ضربهن، ثم قال : «**ولن يضرب خياركم**») .

وعن إياس بن عبد الله بن أبي ذباب قال : قال النبي ﷺ : «**لا تضربوا إماء الله**». قال: فذئر النساء وساءت أخلاقهن على أزواجهن، فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله، زئر النساء وساءت أخلاقهن على أزواجهن

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (ج١) (ص١٦١).

منذ نهيت عن ضربهن ! قال النبي ﷺ : «**فاضربوهن**» . قال: فضرب الناس نساءهم تلك الليلة، فأتى نساء كثير يشتكين الضرب، فقال النبي ﷺ حين أصبح: «**لقد أطاف بآل محمد الليلة سبعون امرأة كلهن يشكين الضرب وايم الله، لا تجدون أولئك بخياركم**» (١) .

فما أشبه هذه الرخصة بالحظر، وهذا يجعل الضرب شبيهًا بالوسيلة المعطلة ينأى عنها خيار المسلمين سعيًا للكمال، وقد جاء في تقبيح الضرب والتنفير منه ما رواه عبد الله بن زمعة عن النبي ﷺ قال : «**لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يجامعها في آخر اليوم**» رواه البخاري .

يقول صاحب المنار في تفسيره : يذكر عليه الصلاة والسلام الرجل بأنه إذا كان يعلم من نفسه أن لا بد له من ذلك الاجتماع الخاص بامرأته، وأنه لا بد من هذه الصلة والوحدة التي تقتضيها الفطرة؛ فكيف يليق به أن يجعل امرأته وهي كنفسه مهينة كمهانة عبده بحيث يضربها بسوطه أو يده ؟! حقًا إن الرجل الحيي الكريم ليتجافى به طبعه عن مثل هذا الجفاء، ويأبى عليه أن تطلب منه الاتحاد بمن أنزلها منزلة الإماء؛ فالحديث أبلغ ما يمكن أن يقال في تشنيع ضرب النساء على أن الرخصة التي أجازها الإسلام للزوج في ضرب زوجته لا تتخذ صورة العقوبة أو الجزاء التأديبي عادة، وإنما هو رد فعل بسبب ما ترتكبه الزوجة من خطأ في حقه، أو إثارته بإصرارها على ما ليس يرضاه منها، كأن تعتاد الزوجة رفض كل طلب يطلبه منها زوجها، أو تعتاد الخروج بغير إذنه أو علمه أو نحو ذلك(٢) .

ثم ختمت آية النشوز بقوله عز اسمه : ﴿**فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا**﴾(النساء: ٣٤)، قال الإمام محمد عبده(٣): أي: إن أطعنكم بواحدة من هذه الخصال التأديبية لا يتجاوزها إلى غيرها؛ فابدؤوا بما بدأ الله به من الوعظ، فإن لم يفد فليهجر، فإن لم يفد فليضرب، فإن لم يفد هذا أيضًا يلجأ إلى التحكيم .

---

(١) «السنن الكبرى» للبيهقي (ج٧) (ص٣٠٢).

(٢) «سمو التشريع الإسلامي في معالجة الشقاق بين الزوجين» (ص٩٧).

(٣) «تفسير المنار» (ج٢) (ص٦٢).

المرحلة الأخيرة في العلاج: التحكيم:

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (النساء:٣٥) .

أرشد سبحانه وتعالى أهل الخير والإصلاح أن يتداركوا النزاع بين الزوجين، قبل تفاقمه واستفحاله الذي قد يؤدي إلى الفراق وهدم كيان الأسرة، وأن يعالجوه بأن يبعثوا رجلاً صالحًا من أهل الزوج ورجلاً مثله من أهل الزوجة؛ فينظرا أيهما المسيء ويعالجا أسباب الداء، ويحاولان تذليل الصعاب والقضاء على مثيراتها، ويوفقا بين رغبات الزوجين ما أمكنهما ذلك؛ حتى يعودا إلى الألفة وحسن العشرة والوئام .

وقد ذهب أكثر الفقهاء إلى أن بعث الحكمين لا يكون إلا إذا وقع التشاجر بين الزوجين وجهلت أحوالهما في التشاجر؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَ ...﴾ الآية، وإنما جاز بعث الحكمين إذا ارتفع الزوجان فشكا كل واحد منهما صاحبه وأشكل المحق من المبطل؛ لأنه إذا لم يشكل المحق من المبطل فلا وجه لبعث الحكمين(١). والسؤال الذي يتبادر للذهن لِمَ كان أحد الحكمين من أهلها، والآخر من أهله ؟

قال الزمخشري : وإنما كان الحكمان من أهلهما؛ لأن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال وأطلب للصلاح، وإليهم تسكن نفوس الزوجين، ويبرز ما في ضمائرهما من الحب والبغض وإرادة الصحبة والفرقة وموجبات ذلك ومقتضياته، وما يزويانه عن الأجانب ولا يحبان أن يطلعوا عليه(٢) .

دور الحكمين في الإصلاح وواجبهما:

الواجب على الحكمين ألا يدخرا وسعًا في الإصلاح والتوفيق بين الزوجين،

(١) «تفسير الطبري» (ج٨) (ص٣١٨)، و«بداية المجتهد» لابن رشد .

(٢) «المجموع شرح المهذب» (ج١٥) (ص٣٢٩).

وإزالة ما بينهما من الوحشة والشقاق، ومعرفة مصدر الشكوى من كل منهما وإقناع كل منهما بالحق؛ فإن لإرادة الحكمين دخلاً في تحقيق الصلح إن صحت إرادتهما، فالتوفيق كائن لا محالة بين الزوجين؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾.

ومعنى الإرادة في قوله ﴿إِن يُرِيدَا﴾: خلوص نيتهما، وصدق عزمهما لإصلاح ما بين الزوجين، ومعنى قوله ﴿يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ أي: يوقع الله الموافقة بين الزوجين حتى يعودا إلى الألفة وحسن العشرة والوئام(١).

ونحن إذا تأملنا قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا...﴾ الآية، نجد أن الآية توقفت عند الإصلاح بين الزوجين ولم تتطرق إلى شيء آخر غير الصلح، وهذا يدل على نهاية العناية من الله في أحكام نظام الأسرة، فلم يذكر مقابل التوفيق بينهما، وهو التفريق عند تعينه؛ لأنه يبغضه وليشعر النفوس أنه ليس من شأنه أن يقع، فالآية تدعو الحكمين إلى التوفيق والإصلاح وعدم اللجوء إلى التفريق إلا إذا تعذر ذلك، ويتوقف الإصلاح على صدق النية والرغبة الصادقة من الحكمين.

روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: (أنه بعث حكمين للتوفيق بين زوجين وقالا: إنهما عجزا عن الوفاق، فغضب وقال: كذبتما؛ بل لم تكن لكما إرادة صادقة في الإصلاح، ولو كانت لكما تلك الإرادة لبارك الله سعيكما؛ فإن الله سبحانه يقول: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾! فخجل الرجلان وأعادا سعيهما بإرادة صادقة وعزيمة قوية، فألقى الله سبحانه ما شاء من الوفاق بين الزوجين، ونجح الحكمان في استرجاع الود ومحو الشقاق بينهما).

فعلى الحكمين أن يبذلا جهدهما ويسعيا في إصلاح ذات البين، واستنفاذ كل وسيلة ممكنة بسبيل التوفيق، إبقاء على الرابطة الزوجية التي عظم الله ورسوله شأنها، وأن يقف كل من الآخر على الحياد، وأن يذكّرا الزوجين بما كان بينهما من

---

(١) «تفسير الطبري» (٨) (ص٣١٨)، و«بداية المجتهد» لابن رشد.

فضل وإفضاء وارتباط وثيق، ويدعوهما إلى التغلب على الموانع التي تعوق سيرهما في طريق الخير والصلح.

قال ابن العربي : وإنما يسيران بإذن الله، ويخلصان النية لوجه الله، وينظران فيما عند الزوجين بالتثبيت؛ فإن رأيا للجمع وجهًا جمعا، وإن وجداهما قد أنابا تركاهما.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه: (أنه كان يبعث حكمًا من أهل الزوج وحكمًا من أهل الزوجة، فيقول الحكم من أهلها للزوج : ماذا تنقم من زوجتك ؟ فيعدد الزوج جميع مآخذه عليها، ثم يقول له : إذا نزعت عما تكره إلى ما تحب؛ هل تتقي الله في معاشرتها وإعطائها كل ما يحق لها عليك من النفقة والكسوة ؟ فإذا قال : نعم، قال الحكم من أهله للزوجة : الحل هو أن تقبل ما قال الحكم الأول للزوج .ويجمعان بينهما ليتم الوفاق).

المشكلة الثالثة: عمل الزوجة خارج البيت:

لقد شاءت إرداة الله عزَّ وجَلَّ أن يخلق من كل شيء زوجين؛ لتستقيم الحياة، وتتم عمارة الكون على النحو الذي أراده سبحانه، يقول سبحانه وتعالى: ﴿**وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (الذاريات :٤٩) . فخلق الله عزَّ وجَلَّ الرجل والمرأة، ورتب عليهما الحياة من حيث إنهما المخلوق الذي جعله الله عزَّ وجَلَّ في الأرض لعبادته، وسخر لصالحه كثيراً من المخلوقين. وأودع سبحانه في الرجل من الخصائص الجسمية والنفسية ما يستطيع به النهوض بتبعاته، وخلق المرأة وأودعها من الخصائص الجسمية والنفسية ما تستطيع به القيام بتبعاتها .

ودور المرأة في الحياة هو دور الأمومة وتربية النشء، وهي في هذا الدور تمد المجتمع بكل عناصر البناء والتقدم، وبقدر إخلاصها في هذه المهمة يكون المردود خيرًا وبركة على الأمة بأسرها .

ولقد مضت سنة الله - تعالى - لدى ذوي الفطر السليمة على أن يكون عمل

المرأة داخل بيتها، فمنذ أقدم العصور والمكان الطبيعي للمرأة هو مملكة البيت، تنجب الأولاد وترعى الزوج وتعد اللبنات الصالحة للأمة ؛ فهي صاحبة فضل على المجتمع كله إذ تمده بلبناته وتوفر لزوجها وأولادها كل أسباب النجاح، فلا يحرز أبناء الوطن تقدمًا علميًّا أو نهضة شاملة، ولا يحققون مجدًا وسؤددًا إلا وللمرأة أكبر الفضل فيه؛ فهي أم أو زوجة العالم والطبيب والمهندس والمدرس والزارع والصانع، وأمهات الأمهات اللاتي يرضعن أبناءهن العزة والكرامة، ويربينهن على التضحية .

ولذلك يسمي الله -سبحانه وتعالى- بيت المرأة : القرار ؛ أي : المكان الطبيعي الذي تستقر فيه المرأة، ويهدأ بالها ؛ فتسعد وتسعد غيرها، حيث يقول سبحانه لنساء النبي ﷺ - ولغيرهن من باب أولى-: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾(الأحزاب : ٣٣).

وكانت المرأة إلى جانب ذلك تشارك زوجها في زراعته وبعض صناعته، وغير ذلك من الأعمال التي لا تخرجها عما فطرت عليه من أنوثة وحياء، ولا تلهيها عن وظيفتها الكبرى[١].

ولقد وضع العلماء شروطًا لعمل المرأة خارج البيت :

١- ألا تتعارض مع الوظيفة الحقيقية للمرأة، وهي الزوجة والأم .

٢- ألا تؤدي إلى اختلاط .

٣- أن تخرج لعملها كإنسانة لا كأنثى، فتحرص على الاحتشام والحجاب .

أما المجالات التي يمكن أن تعمل فيها المرأة فهي :

١- تطبيب النساء .

٢- تعليم البنات .

٣- الإشراف الاجتماعي .

(١) «العلاقات الأسرية» د: محمد عبد السلام أبو النيل (ص٢٢٥-٢٢٦).

والحكمة من قصر أعمال المرأة على المجالات السابقة للآتي :

١- ملائمة طبيعتها كأنثى خلقت للحمل والولادة وذات طاقات معينة ·

٢- التفرغ للمهمة العظمى لتمدنا ببناة المجتمع وصانعي الحضارات ·

٣- تحقيق الاستقرار الأسري ؛ فإن عمل المرأة في كل الميادين يجعلها تختلط بغير زوجها، ويجعل زوجها يختلط بغيرها، وغالبًا ما يجد الواحد منهما في زميله من الملاطفة والموادعة ما لا يجده في زوجه، فينهار ما بين الزوجين، والشواهد على ذلك كثيرة .

٤- حمل المرأة على الزواج والإنجاب، وذلك لأن عملها المطلق يشجعها على تأخير الزواج والإنجاب أو العزوف عنه بالكلية، وحتى المتزوجة تعمد إلى عدم الإنجاب أو التقليل منه، وفي هذا خطر كبير على المجتمع كما أنه يفقد المرأة خاصيتها.

ويمكننا إجمال الأضرار التي تنجم عن عمل المرأة في كل ميدان بما يأتي :

١- التفكك الأسري والانحلال الأخلاقي .

٢- شقاء المرأة وتعاستها .

٣- ضياع الأولاد، وفقدان النشء الصالح .

٤- مزاحمة الرجال وتعطيلهم .

العلاج :

والعلاج لهذه المشكلة يكمن في حلين اثنين لا ثالث لهما :

الحل الأول - كما ذكرنا آنفًا -:

أن البيت هو المملكة الوحيدة للمرأة، وعندما خرجت من بيتها للعمل وأهملت مملكتها ضاع أبناؤها، وفي كثير من الأحيان تفقد زوجها كما ذكرنا .

والآن في فرنسا ينادون بعودة المـرأة إلى بيتها، واعتبروا أن التـفكك الذي تعيشه الأسر الفرنسية راجع إلى خروج المرأة للعمل .

الحل الثاني :

إذا كانت في حاجة ماسة للعمل ؛ فـعليها أن تعمل في المجالات التي ذكرناها، وهي:

تطبيب الـنساء أو تعليم البنات أو الإشـراف الاجتمـاعي، كما يمـكن للمرأة أن تشارك زوجها في زراعـته، ولتعلم كل امرأة تريد أن يكون بيتها سـعيداً أن كل عمل يعمله الرجـال يعدله حسن رعاية المرأة لـزوجها ؛ للحديث التـالي : عن جابر ابن عبدالله ﷺ قال : (بينما نحن قعـود عند رسول الله ﷺ إذ أتته امرأة فقالت : السلام عليك يا رسـول الله، أنا وافدة النساء إليك، الله رب الرجـال ورب النساء، وآدم أبو الرجـال وأبو النسـاء، بعـثك الله إلى الرجـال وإلى النسـاء، والرجـال إذا خرجوا في سبيل الله فقـتلوا ؛ فأحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله، وإذا خرجوا لهم من الأجر ما قد علمـوا، ونحن نخدمهم ونجلس في بيوتنا ؛ فما لنا من الأجر ؟! فـقال لهـا رسول الله ﷺ : **«أقرئي النـساء عني السلام وقـولي لهن : إن طاعة الزوج تعدل ما هناك ، وقليل منكن من تفعله»**) رجاله ثقات[1] .

المشكلة الرابعة: تأخر إنجاب الزوجة :

تختلف النساء في مـسألة الإنجاب ؛ فمنهن من تبقى لشـهور ثم تحمل، ومنهن من تبقى لسنوات - قد تـقل أو تكثر - دون دخل للمرأة في هذا الأمر، تتألم فـيها المرأة أكثر من الرجـل وتتجرع فيهـا غصات كثيـرة، تفيض معهـا العبرات وهي ترى قريناتهـا يحملن أطفـالهن ويلاعبنهم وهي وحيـدة مع زوجهـا في ذلك المنزل ؛ فلا ضحكة طفل تجلجل ولا لعـبة ملقاة، وهذا عـدا نظرات الناس التي تعدها كالسـهام تخرق جنانها، فهم ينظرون إليهـا على أنها امرأة عقيم لا تنجب، أو نظرات الأسف

(١) «كتاب العيال» (ج١) (ص١١٧) حديث رقم (٥٣٠).

لحالها تسمع معها همسات النساء من حولها، وإذا دخلت فهذا الزوج لا يكاد يخفي شوقه وولعه بالأطفال ؛ فتارة بالتلميح والكثير بالتصريح، هذا غير تهديد بعضهم بالزواج بأخرى، ولسان حاله يقول لها : أنت عيبك عدم الإنجاب!.

العلاج: فعلى المرأة في هذه الحال أن تصبر وتحتسب الأجر والمثوبة من الله فهذا ابتلاء من الله عَزَّ وَجَلَّ لها، وعليها ألاَّ تكف عن الدعاء بسؤال الله عز وجلَّ الذرية كما دعا زكريا - ربه- فقال: **﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾** (الأنبياء:٨٩).

وأن تصبّر زوجها ؛ فمن يتصبر يصبره الله عَزَّ وَجَلَّ وتذكره بحكم الله التي قد تخفى عليه بهذا الأمر، فحالها الآن أفضل من أن يأتيهم ابن عاق يُعيقهما عن فعل الطاعات والقرب، كما قال الله سبحانه وتعالى : **﴿ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾** (الكهف: ٨٠) .أو أن يرزقهما بذرية تتعلق قلوبهما بها ثم تموت، فيفجعان وقد لا يصبران عند المصيبة، أو قد يولد لهما مولود مريض لا يرجى شفاؤه ؛ فيتمنيان لو أن الله سبحانه وتعالى لم يرزقهما.

أما الزوج فعليه أن يتقي الله سبحانه وتعالى في هذه المرأة التي لا حول لها ولا قوة، فهذا أمر خارج عن إرادتها، وهو قدر الله لها، وعليه أن ينظر إلى خصالها الأخرى الطيبة، وألاَّ يبخسها حقها، وليعلم علم اليقين :**﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾** (الشرح:٥) فكاتب هذه السطور قد تأخر إنجاب زوجته أكثر من عامين ونصف، ومع ذلك صبر وكان مؤمنًا تمام الإيمان بقول الله سبحانه وتعالى: **﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾** (الشورى: ٥٠) . وبعد المدة المذكورة رزقه الله -سبحانه وتعالى- بثلاثة أطفال ؛ فحمد الله على ذلك.

ولقد تعرفت على رجل كان يسكن في البناية التي أسكن فيها، وظل مع زوجته أكثر من تسع سنوات لم تنجب خلالها، وكم طلبت منه أن يتزوج عليها إلا أنه قال

لها : علينا بالصبر! ولم يكفا عن الدعاء ليل نهار أن يرزقهما الله بالذرية الصالحة ؛ فاستجاب الله عزَّ وجَلَّ لدعائهما ورزقهما بمولود، وهناك حالات كثيرة تحدث شبيهة بالحالتين السابقتين. وإن لم يصبر الزوج على هذا الوضع وأقدم على الزواج بأخرى ؛ فعليه ألاَّ يظلم زوجته الأولى، وأن يديم مودتها، وأن يعدل بينهما، وعلى الزوجة في هذا الحال ألا تغضب وتقدر محبته ورغبته بالذرية، وتذكره على الدوام بالعدل ونصوص الرحمة .

المشكلة الخامسة: الرغبة في تتابع الإنجاب:

قد تتضرر بعض النساء من تتابع الإنجاب، وذلك أن المرأة تنجب الطفل الأول، فما تلبث أن تحمل بالطفل الثاني، وما أن تنجب حتى تحمل بالطفل الثالث مباشرة، وهكذا دون الإذن لها باستخدام أي مانع لتأخير الحمل، حتى تسترد المرأة عافيتها من آثار الولادة، والذي يحدث أن بعض هؤلاء النسوة يشعرن بالإرهاق والتعب عند أدنى مجهود، وذلك بالإضافة إلى آلام الظهر، وذلك من جراء تتابع الإنجاب، هذا غير العناية بالأطفال والسهر عليهم، فتبدأ المرأة بالتذمر والشكوى من هذا الأمر والمطالبة بتباعد فترات الإنجاب حتى تسترد عافيتها، وتثير هذا الموضوع من آن لآخر، وقد يتدخل أهل الزوجين بنصح الزوج لإمهال المرأة، مما يغضب الزوج ويحمله على اتهامها بنقل أمورهما الخاصة للآخرين .

العلاج:

ولمعالجة هذا الأمر ينبغي للزوج أن يعلم أن الصحابة ﷺ كانوا يتخذون الأسباب ويعزلون عن زوجاتهم، قال جابر رضي الله عنه : «كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ والقرآن ينزل» رواه البخاري.

وجاء رجل يومًا يسأله ﷺ ويقول : «إن لي جارية هي خادمتنا وسانيتنا وأنا أطوف عليها، وأنا أكره أن تحمل؟ فقال: «**اعزل عنها إن شئت؛ فإنه سيأتيها ما قدر لها**» رواه مسلم . وقال بعض الصحابة: «أصبنا سبيًا فكنا نعزل، فسألنا رسول الله ﷺ

فقال : «أو إنكم لتفعلون ؟!» - قالها ثلاثًا - «ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا هي كائنة» رواه البخاري . عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: «كنا نعزل والقرآن ينزل» قال أبو عيسى: حديث جابر حديث حسن صحيح وقد روي عنه من غير وجه، وقد رخص قوم من أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم في العزل، وقال مالك ابن أنس رحمه الله، تستأمر الحرة في العزل ولا تستأمر الأمة . وإذا كان العزل هو الوسيلة الوحيدة التي كان يعرفها المسلمون في عهد النبي ﷺ ولم يمنع ممارستها ؛ فقد ظهرت في عصرنا وسائل أخرى يقرر الأطباء أنها أقل إيذاء للرجل والمرأة من العزل، وأنها تؤدي إلى عدم الحمل ؛ فلا شك في أن حكم العزل ينسحب على هذه الوسائل أيضًا، ولقد قرر المؤتمر الإسلامي الثاني المنعقد في القاهرة (سنة ١٩٦٥م) الذي كان يضم العلماء المسلمين من العالم الإسلامي - فيما يتعلق بتنظيم النسل - (أن الإسلام رَغَّب في زيادة النسل ؛ فللزوجين أن يتصرفا لما تقتضيه الضرورة، وتقدير هذه الضرورة متروك لضمير الفرد ودينه ؛ لكن لا يصح شرعًا وضع قوانين تجبر الناس على تحديد النسل بأي وجه من الوجوه)[1] وسوف نذكر فيما يلي الحالات التي تجيز تباعد فترات الحمل :

١- يباح في الإسلام تباعد فترات الحمل بالعزل أو بغير في مثل ما يأتي: عند تتابع الحمل والولادة على نحو أرهق الأم، وجعلها عاجزة عن خدمة أولادها، وسبب لها من المشاق ما لا تتحمله، وليس في مقدور الزوج أن يحضر من يساعدها في التربية ؛ فعندئذ يحق لها أن تباعد بين فترات الحمل، حتى لا نشق عليها ولا تشق هي على نفسها ؛ فإن الله سبحانه وتعالى يريد بعباده اليسر حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة:١٨٥) ولم يجعل في ديننا مشاكل ؛ حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج:٧٨) .

٢- إذا خشيت المرأة أن يؤدي الحمل إلى جفاف الحليب الذي ترضع به طفلاً لم

---

(١) انظر: «قرارات المؤتمر الثاني لمجمع البحوث الإسلامية» بالأزهر الشريف . .

يبلغ الفطام بعد، وقد تعينت هي مرضعة له ؛ إما لعدم وجود مرضعة؛ وإما لعدم قبوله ثدي غيرها .

٣- إذا كان الأبوان بدار يخشيان فيها على المولود من وباء أو عدوى، فلهما تأخير الحمل حتى يأمنا عليه .

٤- إذا كان بالأبوين - أحدهما أو كليهما - مرض معد يخشى على المولود أن ينتقل إليه ؛ فلهما تأخير الحمل حتى يتم الشفاء[1].

المشكلة السادسة: ولادة البنات دون البنين :

إن ولادة البنات دون البنين ليست مشكلة من وجهة نظري، ولكن قد تكون مشكلة من قبل البعض الآخر الذي يرى أنه لابد وأن تلد امرأته ذكرًا، وبعض الجهال يتزوج على زوجته كي تلد له ذكرًا، ولقد شاهدت ذلك بعيني، ولكن الله القادر وهبه بنات من المرأة الثانية ووهبه الذكر من الزوجة الأولى بعدما تزوج عليها ؛ فالبنات هبة من الله سبحانه وتعالى مقدمة على هبة الذكور، قال سبحانه وتعالى: ﴿**لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ**﴾ (الشورى:٤٩، ٥٠) .

والإنسان الحكيم هو الذي يتقبل ما وهبه الله سبحانه وتعالى من البنات أو الذكور بقبول حسن، فلا يبالغ في الفرح بالولد، ولا يكون باردًا - سلبيًّا - حين يرزقه الله سبحانه وتعالى ببنت، فهل يعلم أحد أين سيكون الخير أو الشر ؟!

يقول سبحانه وتعالى: ﴿**وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة:٢١٦) .

ويقول -سبحانه وتعالى- أيضًا : ﴿**فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً**﴾ (النساء:١٩) .

---

(١) «بناء البيت السعي في ضوء الإسلام» مقداد يالجن (ص٢٤٣).

فقد يكون إنجاب البنات أفضل لهؤلاء من أن يأتيهم ابن عاق فاجر يعيقهما عن فعل الطاعات والقرب، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا الغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾ (الكهف: ٨٠).

ويذكر التاريخ أن أميرًا عربيًّا تزوج من امرأة وهو يطمع أن تلد له غلامًا، فولدت له بنتًا فهجر منزلها وصار يأوي إلى غير بيتها، فمر بخبائها بعد عام وإذا هي ترقص بنتها وتقول:

ما لأبي حمزة لا يأتينا ... يظل في البيت الذي يلينا

غضبان ألا نلد البنين ... تالله ما ذلك في أيدينا

وإنما نأخذ ما أعطينا ... ونحن كالأرض لزارعينا

نُنبت ما قد زرعوه فينا

فغدا الرجل حتى دخل البيت؛ فقبَّل رأس امرأته وابنتها[1].

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ (النجم: ٤٦).

فبيَّن -سبحانه وتعالى- أن الرجل والمرأة كلاهما المسؤول عن إنجاب الذكور أو الإناث وليس المرأة وحدها؛ فعلام إذن عدم الرضا بالبنات؟!.

المشكلة السابعة: غياب الزوج عن زوجته:

إذا سافر الزوج بعيدًا عن زوجته؛ فإن لم يكن له عذر مانع من الرجوع فإن الإمام أحمد ذهب إلى توقيته بستة أشهر، وسُئل: كم يغيب الرجل عن زوجته؟ قال: ستة أشهر، يكتب إليه؛ فإن أبى أن يرجع فرق القاضي بينهما.

فيجب ألاَّ يغيب الزوج عن زوجته مدة طويلة؛ لما في ذلك حرج شديد لها، ولعل الرواية التاريخية توضح لنا ذلك؛ فيما رواه سعيد بن منصور، والبيهقي في

---

(١) «البيان والتبيين» (ج١) (ص١٠٨).

سننيهما، عن زيد بن أسلم قال : (بينما عمر بن الخطاب ﷺ يحرس المدينة فمر بامرأة في بيتها وإذ بها تتغنى بهذه الأبيات والناس نيام :

تطاولَ هذا الليلُ واسودَّ جانبُه ... ولم يَكُ عندي من حبيب أُلاعبُه

فوالله لولا اللهُ والعارُ بَعْدَه ... لحرَّك من هذا السرير جَوانبُه

ولكنَّ ربى والحياءُ يَكُفني ... وأُكْرِم بَعْلِي أنْ تُوطأ مَرَاكبُه

ثم تنفست الصعداء وقالت : هان على ابن الخطاب وحشتي في بيتي وغيبة زوجي عني ؟! فسأل عنها عمر، فقيل له : هذه فلانة زوجها غائب في سبيل الله- سبحانه وتعالى- فأرسل إليها امرأة تكون معها، ثم كتب عمر ﷺ إلى عامله حيث يرابط ذلك الرجل بإعادته إلى أهله، ثم دخل على حفصة ﷺ فقال : يا بنية، كم تصبر المرأة عن زوجها ؟ فقالت : سبحان الله ! مثلك يسأل مثلي عن هذا ؟! فقال: لولا أني أريد النظر للمسلمين ما سألتك . قالت : خمسة أشهر، ستة أشهر . فوقّت للناس في مغازيهم ستة أشهر، يسيرون شهرًا ويقيمون أربعة أشهر، ويسيرون راجعين شهرًا .

ولكن إذا اتفق الزوجان على غياب الزوج عن زوجته لمدة عام بسبب سعيه لطلب الرزق، كأن يكون مسافرًا لإحدى الدول، كما هو حاصل الآن في كثير من الدول ؛ فلا بأس من ذلك ما دامت الزوجة قد وافقت على ذلك، أما إذا رأت أنه لابد أن يعود إليها قبل هذه المدة ؛ فلا يجوز له أن يتغيب أكثر من ستة أشهر، كما قال بذلك الإمام أحمد، وقد ذكرناه آنفًا .

المشكلة الثامنة: تعدد الزوجات :

في الحقيقة إن تعدد الزوجات ليس مشكلة في حد ذاتها، ولكن المشكلة تكمن فيما يترتب على هذا التعدد، والإسلام صيدليته شاملة شافية كافية، فيها لكل داء دواء .

لقد رأى الإسلام بإباحة التعدد أن تظل الزوجة الأولى في عش الزوجية هانئة

في رعاية زوجها ذلك أهدى سبيلاً، ففي إباحة التعدد وفاء لها حتى لا تصير شريدة طريدة، أضف إلى ذلك ما يقع من حروب واستشهاد للرجال في الميادين، فماذا يكون الحل لو كثرت الأرامل بعد موت الرجال ؟! لا حل إلا بإباحة التعدد لتعيش في بيت الزوجية النساء اللاتي فقدن الأزواج، وقد تستدعي حال الرجل حتى يعيش عفيفًا أن يتزوج على امرأته لسد حاجته وتكسبه العفة والطهر في بيت آمن مستقر وحياة هادئة آمنة، هل من الخير أن تكون تلك المرأة خليلة أم حليلة ؟! .

إن الإسلام يقيم الحياة على أساس الطهر والنقاء بعيدًا عن العبث والانحراف، يقول تباركت أسماؤه : **﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** (التوبة:١٠٩).

وسوف نعرض فيما يأتي لأهم الأسباب التي تستدعي التعدد :

١- طلب الذرية، وذلك إذا كانت زوجته عاقرًا ؛ فزواجه من أخرى خير لزوجته الأولى من الطلاق ومن بقائه عقيمًا مدى الحياة محرومًا من الذرية.

٢- إذا أصيبت المرأة بمرض لا تستطيع معه تلبية حاجات الزوج .

٣- بعض الرجال لا تمكنهم طبائعهم ولا تكوين أجسامهم من البقاء على واحدة ؛ فيخاف إن حرموا من تحصين أنفسهم بغير واحدة أن ينصرفوا إلى ما هو أدهى وأمرّ.

٤- الرغبة في تحصين نساء المسلمين، وذلك في حالة ما بعد الحرب ؛ فقد يهبط عدد الرجال عن النساء هبوطًا مفزعًا قد تصل نسبة النساء إلى الرجال في بعض الأحيان من (١ إلى ١٠) فإذا اكتفى كل رجل بواحدة فقط من هؤلاء العشر ؛ فماذا تصنع الباقيات ؟!

الحل يكمن في العدالة بين الزوجتين .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من كانت له امرأتان؛ فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل**» رواه أبو داود .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عَزَّ وَجَلَّ ، وكلتا يديه يمين ؛ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا**» رواه مسلم .

إن من الإحسان في المعاملة عند تعدد الزوجات أن يعدل بين زوجاته، ولا يفضِّل واحدة منهن على غيرها ؛ لأن الله تعالى أمر بالاقتصار على زوجة واحدة عند الخوف من الجور في قوله جل شأنه : ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً**﴾ (النساء:٣) وهذا يقتضي الأمر بالعدل بين الزوجات عند التعدد .

فإن لم يعدل استحق على عمله هذا أن يعد في الدنيا من الممقوتين، ويحشر في الآخرة مع الظالمين .

والعدل الذي يطالب به الزوج في هذه الحالة هو التسوية بين الزوجات في كل ما يستطيعه، ويدخل تحت قدرته من الحقوق كالتسوية في النفقة، وإحسان المعاملة ولطف العشرة من غير ميل إلى إحداهن، ومضارة ما سواها، أما المساواة بينهن في المحبة والميل القلبي فليست بمطلوبة ؛ لأن ذلك ليس في مقدور الإنسان، فلا يطالب به شرعًا .

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فيعدل، ويقول: «**اللهم هذا قسمي فيما أملك ؛ فلا تلمني فيما تملك ولا أملك !**» رواه أبو داود .

قال أبو داود : يعني : القلب، يقصد بذلك حبه لعائشة أكثر من غيرها من سائر زوجاته الكريمات .

ومن العدل الذي يستطيعه الزوج أن يسوى بين زوجاته في المبيت، والقسم في المبيت لا فرق فيه بين البكر والثيب، والجديدة والقديمة، والمسلمة والكتابية، وصاحبة العذر وغيرها .

والقسم في المبيت واجب في حال الصحة والمرض ؛ فلو مرض الزوج وأراد أن يقيم عند إحداهن ؛ فلا يجوز له ذلك إلا إذا رضي به سائر أزواجه، ففي الصحيحين، عن عائشة رضي الله عنها قالت: (لما ثقل رسول الله ﷺ ، واشتد به وجعه؛ استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي ؛ فأذنّ له) فإذا أراد الزوج السفر أقرع بينهن، فيسافر بمن خرجت قرعتها؛ لما فيها من تطييب النفوس وصفاء القلوب، وهذا ما كان يفعله النبي ﷺ عند إرادة السفر، فعن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، وكان يقسم لكل امرأة منهن يومها وليلتها . غير أن سودة بنت زمعة وهبت يومها وليلتها لعائشة زوج النبي ﷺ تبتغي بذلك رضا رسول الله ﷺ) رواه البخاري .هذا هو حل التعدد .

المشكلة التاسعة : تفضيل بعض الأولاد على بعض:

إن من العدل وجوب التسوية بين الأولاد في العطية والوصية والمعاملة، وهذا من واجب الآباء، وهذه النقطة مهمة، ذلك أن التفرقة في المعاملة تولد الحقد والحسد فيما بينهم، وتزيل المحبة فيما بينهم من جهة وفيما بينهم وبين الآباء من جهة أخرى، إلى جانب هذا وذاك تكون هذه التفرقة سببًا لنشأة بعض الأمراض النفسية؛ ولهذا قال ﷺ : «**اتقوا الله واعدلوا في أولادكم**» رواه مسلم .

وكان السلف الصالح يراعون العدل بين الأولاد حتى في القبل، ففي الصحيحين، عن النعمان بن بشير : أن أباه نحله بعض ماله، فقالت أمه عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ ! قال رضي الله عنه : فانطلق بِيَ أبي إلى النبي ﷺ ليشهده على صدقته، فقال له رسول الله ﷺ : «**أفعلت هذا بولدك كلهم؟**» قال : لا . قال ﷺ : «**اتقوا الله واعدلوا في أولادكم !**» رواه مسلم .

فعلى الآباء أن يسووا بين أبنائهم في المطعم والملبس والعطف والحنان وسائر الحقوق، وترغيبًا في ذلك قال الرسول ﷺ : «**من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها - قال: يعني الذكور- أدخله الله الجنة**» رواه أبو داود .

فإن كثيرًا من الناس ما يزالون يؤثرون أبناءهم على بناتهم بالمال ؛ ليحرمهن من حقهن، كما كان الأمر في الجاهلية الأولى، وهذا يعد من الظلم ومن الحيف والجور.

عن عمرو بن خارجة قال : (خطب رسول الله ﷺ فقال : «**إن الله قد أعطى كل ذي حقّ حقّه ، ولا وصية لوارث**») رواه النسائي .

ولما قسم الله عَزَّ وَجَلَّ الميراث وبين ما يستحق كل واحد من الورثة قال بعد تقسيمه : ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾ (النساء:١٣-١٤) .

فلقد توعد -سبحانه وتعالى- من يفعل ذلك بألوان من العذاب والعقوبة في الآخرة، ولا أدري كيف تزين لهم أنفسهم ترجيح البنين على البنات ؟! ألا يعلمون أن كلا العنصرين انفصلا من صلبه وأحدهما صنو الآخر ؟ وكيف سولت لأحدهما نفسه أن يجعل إحدى فلذتي كبده بمرأى عينه مسرورًا سعيدًا والآخر كئيبًا محزونًا من غير ذنب ؟! تذرف عيناه دمًا وينفجر من الحرقة قلبه، أليس الذي خلق الذكر خلق الأنثى؟! أليس كلاهما من ماء واحد؟ فمن أين أتى الترجيح والإيثار ؟ إن الحب القلبي قد يحصل لأحدهم أكثر من الآخر بسبب أو بغير سبب ؛ فهذا عمل القلب ولا طاقة لنا به، وهذا ليس بقاصر على الأبناء؛ بل يشمل الزوجات والأقارب إلا أن عمل القلب شيء والمعاملة الخارجية شيء آخر ؛ فنحن أُمرنا بالعدالة في معاملاتنا لمن نحب ولمن نكره، ولا جناح في الحب ولكن الجناح في المعاملة بمقتضى الحب .

وقد كان الرسول ﷺ يحب عائشة أكثر من غيرها من زوجاته، ومع ذلك كان يعدل في القسم والإطعام والنفقة وغيرها من الحقوق الزوجية، وكان يقول : «**اللهم هذا قسمي في أملك ؛ فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**» يعني : القلب ودواعيه . رواه أحمد وأهل السنن، عن عائشة رضي الله عنها .

ولينظر الآباء بعين البصيرة إلى قصة يوسف عليه السلام مع أخوته، إنهم بمجرد علمهم أن أباهم يحبه هو وأخاه بنيامين أكثر منهم عزموا على قتله، ثم عدلوا عن ذلك بإلقائه في الجب، قال -سبحانه وتعالى- : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (يوسف: ٧-١٠) .

فالإيثار وعدم العدالة في المعاملة بالإضافة إلى إزالته المحبة من بين الأفراد والسعادة من البيت؛ فإنه يخلق جوًا مشحونًا وظلمًا قاتمًا في سماء البيت، ونتيجة لذلك تتحول الحياة فيه إلى جحيم لا يطاق، إذن فالحل يكمن في العدل بين الأولاد جميعًا سواء في المعاملة أو العطية أو غير ذلك حتى تعود السعادة إلى الأسرة المسلمة، وما أحسن ما قالته فاطمة الأنمارية عندما سئلت : أي ولدك أحب إليك ؟ فأجابت هم كالحلقة المفرغة لا يُدْرى أين طرفاها . هذه هي الأم التي تمثل الأمومة المثالية العادلة بين أبنائها، وهذه هي المعاملة التي يرضى عنها الصغير والكبير، والتي أمر بها الإسلام وقد أمر بذلك ؛ لتزداد المحبة والترابط بين أفراد البيت جميعًا، وليعيشوا في عشهم متحابين متكاتفين متعلقين بعضهم ببعض كتعلق المحب بالمحبوبة[١] .

المشكلة العاشرة: المشاكل مع الجيران:

لقد أوصت السنة النبوية بالجار خيرًا حتى أن جبريل عليه السلام كان يوصي بالجار ؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**» رواه مسلم .

وقال صلى الله عليه وسلم : «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله**

(١) «بناء البيت السعيد في ضوء الإسلام» (ص١٥٣).

واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت» رواه أحمد .

ويمكن إجمال المشاكل التي تحدث مع الجيران في الآتي :

١- إفراط الزوجة في الجلوس عند جيرانها، وإهمال بيتها وأولادها وزوجها .

٢- افتعال الزوجة المشاكل والمشاجرات مع جيرانها لأتفه الأسباب .

٣- تتبع عورات الجيران وإفشاء أسرارهم .

٤- الإساءة إلى الجار بالقول أو الفعل .

والحل يكمن في :

على الزوجة ألاَّ تفرط في علاقتها مع جارتها ؛ فالتوسط في كل شيء مقبول، ولتعلم الزوجة أن زوجها وأولادها وبيتها لهم عليها حقوق ؛ فلتؤدها وتعمل قدر جهدها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع جارتها .

أيضًا من الواجب عليهم ستر عورات الجيران وعدم إفشاء أسرارهم، وغض الطرف عن محارمهم ؛ فتلك شيمة الكرام، ولقد فطن لذلك عنترة بن شداد العبسي الشاعر الجاهلي الذي لم يتأدب بأدب الإسلام ؛ حيث قال :

وَأَغُضُّ طَرْفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُـوَارِي جَـارَتِي مَـأْوَاهَا

ولقد حذر الرسول ﷺ تحذيرًا شديدًا لمن لا يصون حليلة جاره أو ابنته أو أخته ؛ فلقد عد ذلك من أكبر الذنوب، وقرنه بالشرك والقتل، ففي الحديث: سئل رسول الله ﷺ : أيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللَّهِ أَكْبَرُ ؟ قَالَ : «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**» . قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : «**ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**» . قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : «**أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ**» . قَالَ : وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ**﴾ (الفرقان: ٦٨) رواه البخاري .

ولتعلم الزوجة أن إيذاءها لجـارتها بلسانها يحرمها من دخـول الجنة ؛ فلقد سُئِل رسول الله ﷺ عن امرأة تصوم وتصلي وتحج إلا أنها تؤذي جيـرانها بلسانها فقال ﷺ : «**هي في النار**» حديث صحيح .

كما ينبغي كف الأذى عن الجار وعدم الإساءة إليه بالقول أو الفعل ؛ لأن رسول الله ﷺ اعتبر من يفعل ذلك بعيدًا عن الإيمان .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسـول الله ﷺ أنه قال : «**والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن !**» قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟! قال : «**الجار الذي لا يأمن جاره بوائقه**» . قالوا : يا رسول الله، وما بوائقه ؟ قال : «**شره**» رواه أحمد .

الفصل الرابع عشر

الطلاق لماذا ومتى وكيف؟

يأخذ الكثير من الغربيين على الإسلام أنه أباح الطلاق، ويعتبرون ذلك دليلاً على استهانة الإسلام بقدر المرأة، وبقدسية الزواج، وقلَّدهم في ذلك بعض المسلمين الذين تثقفوا بالثقافات الغربية، وجهلوا أحكام شريعتهم، مع أن الإسلام، لم يكن أول من شرع الطلاق، فقد جاءت به الشريعة اليهودية من قبل، وعرفه العالم قديمًا.

وقد نظر هؤلاء العائبون إلى الأمر من زاوية واحدة فقط، هي تضرر المرأة به، ولم ينظروا إلى الموضوع من جميع جوانبه، وحكّموا في رأيهم فيه العاطفة غير الواعية، وغير المدركة للحكمة منه ولأسبابه ودواعيه.

إن الإسلام يفترض أولاً، أن يكون عقد الزواج دائمًا، وأن تستمر الزوجية قائمة بين الزوجين، حتى يفرق الموت بينهما، ولذلك لا يجوز في الإسلام تأقيت عقد الزواج بوقت معين.

غير أن الإسلام وهو يحتم أن يكون عقد الزواج مؤبدًا يعلم أنه إنما يشرع لأناس يعيشون على الأرض، لهم خصائصهم، وطباعهم البشرية، لذا شرع لهم كيفية الخلاص من هذا العقد، إذا تعثر العيش، وضاقت السبل، وفشلت الوسائل للإصلاح، وهو في هذا واقعي كل الواقعية، ومنصف كل الإنصاف لكل من الرجل والمرأة.

فكثيرًا ما يحدث بين الزوجين من الأسباب والدواعي، ما يجعل الطلاق ضرورة لازمة، ووسيلة متعينة لتحقيق الخير، والاستقرار العائلي والاجتماعي لكل منهما، فقد يتزوج الرجل والمرأة، ثم يتبين أن بينهما تباينًا في الأخلاق، وتنافرًا في الطباع، فيرى كل من الزوجين نفسه غريبًا عن الآخر، نافرًا منه، وقد يطّلع أحدهما من صاحبه بعد الزواج على ما لا يحب، ولا يرضى من سلوك شخصي، أو عيب

خفي، وقد يظهر أن المرأة عقيم لا يتحقق معها أسمى مقاصد الزواج، وهو لا يرغب التعدد، أولا يستطيعه، إلى غير ذلك من الأسباب والدواعي، التي لا تتوفر معها المحبة بين الزوجين ولا يتحقق معها التعاون على شؤون الحياة، والقيام بحقوق الزوجية كما أمر الله، فيكون الطلاق لذلك أمرًا لا بد منه للخلاص من رابطة الزواج التي أصبحت لا تحقق المقصود منها، والتي لو ألزم الزوجان بالبقاء عليها، لأكلت الضغينة قلبيهما، ولكاد كل منهما لصاحبه، وسعى للخلاص منه بما يتهيأ له من وسائل، وقد يكون ذلك سببًا في انحراف كل منهما، ومنفذًا لكثير من الشرور والآثام، لهذا شُرِع الطلاق وسيلة للقضاء على تلك المفاسد، وللتخلص من تلك الشرور، وليستبدل كل منهما بزوجه زوجًا آخر، قد يجد معه ما افتقده مع الأول، فيتحقق قول الله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٣٠).

وهذا هو الحل لتلك المشكلات المستحكمة المتفق مع منطق العقل والضرورة، وطبائع البشر وظروف الحياة.

ولا بأس أن نورد ما قاله (بيتام) رجل القانون الإنجليزي، لندلل للاهثين خلف الحضارة الغربية ونظمها أن ما يستحسنونه من تلك الحضارة، يستقبحه أبناؤها العالمون بخفاياها، والذين يعيشون نتائجها.

يقول (بيتام):

(لو وضع مشروع قانونٍ يحرِّم فض الشركات، ويمنع رفع ولاية الأوصياء، وعزل الوكلاء، ومفارقة الرفقاء، لصاح الناس أجمعون: إنه غاية الظلم، واعتقدوا صدوره من معتوه أو مجنون، فيا عجبًا! أن هذا الأمر الذي يخالف الفطرة، ويجافي الحكمة، وتأباه المصلحة، ولا يستقيم مع أصول التشريع، تقرره القوانين بمجرد التعاقد بين الزوجين في أكثر البلاد المتمدنة! وكأنها تحاول إبعاد الناس عن الزواج! فإن النهي عن الخروج من الشيء نهي عن الدخول فيه، وإذا كان وقوع النفرة

واستحكام الشقاق والعداء، ليس بعيد الوقوع، فأيهما خير؟ . . ربط الزوجين بحبل متين، لتأكل الضغينة قلبيهما، ويكيد كل منهما للآخر؟ أم حل ما بينهما من رباط، وتمكين كل منهما من بناء بيت جديد على دعائم قوية؟، أو ليس استبدال زوج بآخر، خيراً من ضم خليلة إلى زوجة مهملة ، أو عشيق إلى زوج بغيض).

والإسلام عندما أباح الطلاق، لم يغفل عما يترتب على وقوعه من الأضرار التي تصيب الأسرة، خصوصًا الأطفال، إلا أنه لاحظ أن هذا أقل خطرًا، إذا قورن بالضرر الأكبر، الذي تصاب به الأسرة والمجتمع كله إذا أبقى على الزوجية المضطربة، والعلائق الواهية التي تربط بين الزوجين على كره منهما، فآثر أخف الضررين، وأهون الشرين.

وفي الوقت نفسه، شرع من التشريعات ما يكون علاجًا لآثاره ونتائجه، فأثبت للأم حضانة أولادها الصغار، ولقريباتها من بعدها، حتى يكبروا، وأوجب على الأب نفقة أولاده، وأجور حضانتهم ورضاعتهم، ولو كانت الأم هي التي تقوم بذلك. ومن جانب آخر، نفّر من الطلاق وبغضه إلى النفوس فقال ﷺ : «**أيُّمَا امرأة سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ في غَيرِ مَا بَأسٍ، فَحَرَامٌ عليها رَائحَةُ الجَنَّةِ**» وحذر من التهاون بشأنه فقال ﷺ : «**مَا بَالُ أَحَدِكُمْ يَلْعَبُ بِحُدُودِ الله، يَقُولُ: قَدْ طَلَّقْتُ، قَدْ رَاجَعْتُ؟**»، وقال ﷺ : «**أَيُلْعَبُ بِكِتَابِ اللهِ وَأَنَا بَينَ أَظْهُرِكُمْ؟!**»، قاله في رجل طلق زوجته بغير ما أحل الله.

لقد وضعت الشريعة الإسلامية خطوات وقائية للحفاظ على كيان البيت المسلم كالتسامح والعفو وكظم الغيظ . . إلخ، وخطوات أخرى عند حدوث المشكلة بين الرجل وزوجته ذكرها رب العالمين في قوله :﴿**وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ**﴾ (النساء: ٣٤) .

أما إذا كانت أسباب النزاع والخلاف قوية ومحكمة ولا يمكن علاجها فيما بين الزوجين، عندئذٍ نلجأ إلى التحكيم في هذا الشقاق امتثالاً لأمر الله عز وجل :

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (النساء:٣٥) .

ولكن عندما يتسع الفرق ويزداد الخلاف ولا تكون هناك نقاط التقاء بين الزوجين، فعندئذٍ يكون آخر العلاج الكي، ويكون الطلاق هو الدواء المر الذي لا بد منه عند الضرورة .

إن الطلاق في مثل هذه الحالات وبعد محاولات الإصلاح المختلفة يعد نعمة من نعم الله على الإنسان، ولكن هذه النعمة حولها الجهلة إلى نقمة تفرق بينه وبين الأولاد وتشتت شمل الأسرة بطريقة توحي بالجهل والاستهتار العجيب .

إنه مما لا شك فيه أن الطلاق هو انهيار للبناء الأسري وانفصام للعلاقة الزوجية، ونظرًا للآثار السلبية المترتبة على حدوثه خاصة على الأبناء الذين يحرمون من الرعاية والوالدية والتنشئة الاجتماعية والإشباع العاطفي؛ كان لابد من وقفة جادة بين الزوجين لتقسيم الأدوار وتقاسم المسؤوليات بهدف تحقيق الاستقرار العاطفي والتربوي للأبناء.

ولعل من أهم ما يمكن أن يناقش بين الزوجين في سبيل توزيع الأدوار والمسؤوليات بينهما ثلاث قضايا رئيسية هي : حضانة الأبناء، والسكن، والنفقة .

إن كل ما نشكوا منه من آثار سيئة للطلاق إنما يأتي من سوء تصرف الناس وعبثهم واستهزائهم بالدين، وذلك عن طريق سلوك وتصرفات غير شرعية، وإلا فالطلاق الناجح القائم على الالتزام بالأحكام المترتبة عليه لا يضر أحدًا ولا يؤذي غير الجاني على نفسه .

إن الطلاق مسؤولية كبرى تترتب عليه التزامات وأحكام كثيرة ولاسيما مع وجود الأولاد، وعلى الزوجين أن يراعيا الجوانب الشرعية والنفسية والتربوية والاجتماعية المترتبة على الطلاق، ولا يقدمان عليه إلاّ بعد تروٍ ودراسة وأن يستنفدا كل وسائل الإصلاح ورأب الصدع وجبر الكسر، حتى يكون طلاقهما ناجحًا وغير ضار .

إن الطلاق الناجح لا تترتب على وقوعه أضرار مؤذية، وذلك لأنه تم وفق

الضوابط الشرعية والإسلامية، والالتزام بما يفرضه الدين الإسلامي من حقوق وواجبات على كلا الزوجين، والقاعدة الشرعية في ذلك حديث النبي ﷺ: «لا ضَرَرَ ولا ضِرَار».

الطلاق في الشرع: حل رابطة الزواج وإنهاء العلاقة الزوجية. إن عقد الزواج من أقدس العقود وليس أدل على ذلك من أن الله سمى العهد بين الزوج وزوجته بالميثاق الغليظ فقال الله سبحانه: ﴿**وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا**﴾ (النساء:٢١).

وقد كره الإسلام الطلاق فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**أبغض الحلال إلى الله عز وجل الطلاق**» رواه أبو داود والحاكم وصححه.

وعن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «**أَيُّمَا امرأة سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلاقَ فِي غير مَا بَأسٍ، فَحَرَامٌ عليها رَائِحَةُ الجَنَّةِ**» رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن.

ولكن الطلاق قد يكون مستحبًا: إذا أصرت الزوجة على ترك الفرائض الدينية كالصلاة والصيام ولم تنفع فيها الموعظة الحسنة والإرشاد الحكيم، بل قال الإمام أحمد: أخشى ألا يحل له المقام مع امرأة لا تصلي لما في إمساكها من التهاون في الدين والتفريط في حدود الله.

وقد يكون واجبًا: وذلك إذا علم بفجور زوجته وخيانتها؛ لأنه إذا رضي بإمساكها على فجورها يكون ديوثًا.

عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**ثَلاثَةٌ قَدْ حَرَّمَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالَى عَلَيْهِمُ الجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ، والعَاقُ، والدَّيُّوثُ الذي يُقِرُ فِي أَهْلِهِ الخَبَثَ**» رواه أحمد.

ومن الطلاق الواجب طلاق (المُؤْلي): وهو الذي يحلف ألاَّ يقرب زوجته أبدًا أو لمدة أكثر من أربعة أشهر قال سبحانه: ﴿**وَالَّذِين يُتَوَفَّوْنَ منكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (البقرة: ٢٤٠).

وقد يكون حرامًا: إذا لم يكن له سبب يسوغه ولا حاجة تدعو إليه. كما يحرم

على المرأة أن تطلب من زوجها الطلاق من غير بأس من جهته؛ لأنها إن فعلت ذلك حرم الله عليها دخول الجنة. عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ : «**أَيُّمَا امرأة سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ فِي غَيرِ مَا بَأسٍ، فَحَرَامٌ عليها رَائِحَةُ الجَنَّة**» رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد.

وقد يكون مباحًا: لسوء عشرة الزوجة ولسوء خلقها مع زوجها وتضرره بها من غير حصول الغرض من زواجها وإخفاقه في محاولة إصلاحها فأجيز له الطلاق دفعًا للضرر عن نفسه .

وكذلك إذا استحكم النفور بينهما وفشلت كل الوسائل في إصلاح ما بينهما فإن الطلاق في هذه الحال دواء ولا علاج غيره ولهذا أباحه الإسلام على كره وقديمًا قيل: (إن لم يكن وفاق ففراق).

وقال تعالى في مثل ذلك الحال: ﴿**وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا**﴾ (سورة النساء: ١٣٠) .

روي عن جعفر بن محمد أن رجلاً شكا إليه الفقر فأمره بالنكاح فذهب وتزوج ثم جاء إليه وشكا إليه الفقر فأمره فطلق فسئل عن هذا فقال : أمرته بالنكاح لعله من أهل هذه الآية: ﴿**إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ (النور: ٣٥) فلما لم يكن من أهل تلك الآية أمرته بالطلاق لعله من أهل هذه الآية: ﴿**وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً**﴾ (النساء: ١٣٠) .

أنواع الطلاق من حيث السني والبدعي:

١- الطلاق السني ويكون في طهر لا جماع فيه، أو أثناء حمل قد استبان، مع وجود شاهدين.

٢- الطلاق البدعي ويكون أثناء الحيض، أو في طهر جامعها فيه خشية الحمل وهو حرام لإلحاقه الضرر بالزوجة بتطويل المدة التي تنتظرها لانتهاء العدة، وسبب تسميته بالبدعي؛ لأنها إذا كانت حائضًا لم تعتد بأيام حيضها عن عدتها بل تزيد على ثلاثة أقراء فتطول العدة عليها حتى تصير كأنها أربعة أقراء وهي في الحيض الذي طلقت فيه

في صورة المعلقة التي لا هي معتدة ولا ذات بعل . وإذا كانت طاهرة فجامعها لم يؤمن أنه قد حملت من ذلك الجماع بولد ، ولو علم الزوج لم يطلقها وندم على ذلك الطلاق الذي وقع منه والذي قد يكون بسبب عدم حمل الزوجة.

٣- الطلاق الذي ليس بسني ولا بدعي فهو طلاق الصغيرة قبل أن تحيض والآيسة من الحيض وغير المدخول بها .

عدة المطلقة:

فقد بين الله تبارك وتعالى عدة المطلقة في قوله تعالى: ﴿**وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ**﴾ (الطلاق: ٤).

فعدة التي يئست من المحيض لكبر في السن أو الصغيرة التي لم تحض أو التي لا ينزل عليها دم الحيض ثلاثة أشهر أما عدة الحامل تكون بوضع حملها.

على أنّ الإسلام لم يشرع الطلاق في كل وقت، ولا في كل حال، إن الطلاق المشروع الذي جاء به القرآن والسُّنة: أنْ يتأنّى الرجل ويتخير الوقت المناسب، فلا يُطلِّق امرأته في حيض، ولا في طُهْر جامعها فيه، فإن فعل كان طلاقه طلاقًا بدعيًّا محرَّمًا، وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أنه لا يقع؛ لأنه أوقعه على غير ما أمر الرسول ﷺ . وفي الحديث الصحيح: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيسَ عَلَيهِ أَمْرُنَا فَهْوَ رَدٌّ**» رواه مسلم، أي مردود على صاحبه.

ويجب أن يكون المطلِّق في حالة وعي، واتزان واختيار، فإذا كان فاقد الوعي، أو مُكرَهًا، أو غضبان غضبًا أغلق عليه قصده وتصوره، فتفوَّه بما لم يكن يريد، فهذا لا يقع على الصحيح، للحديث الشريف: «**لا طلاق ولا عِتاق في إغلاق**» رواه أبوداود وفسّره بالغضب، وفسّره غيره بالإكراه، وكلاهما صحيح.

ويجب أن يكون قاصداً للطلاق والانفصال عن زوجته بالفعل. أما أن يجعل من الطلاق يمينًا يحلف به، أو يهدد به ويتوعَّد، فلا يقع على الصحيح كما قال بذلك بعض علماء السَّلف، ورجَّحه العلاّمة ابن القيم، وشيخه ابن تيمية.

وإذا كانت كل هذه الأنواع من الطلاق لا تقع، فقد بقي الطلاق المَنوي المقصود، الذي يفكر فيه الزوج، ويدرسه قبل أن يقدم عليه، ويراه العلاج الفذ، للخلاص من حياة لا يطيق صبرًا عليها. فـهذا هو الذي قال فيه ابن عباس رضي الله عنهما: (إنما الطلاق عن وَطَر)[١].

ما بعد الطلاق:

على أن وقوع الطلاق لا يقطع حبل الزوجية قطعًا باتًّا، لا سبيل إلى إصلاحه، كلا، فالطلاق -كـما جاء في القرآن - يعطي لكل مطلِّق فرصتين للـمراجعة وتدارك الأمر. فلا بد أن يكون الطلاق مـرة بعد مرة، فإذا لم تُجْدِ المرتان كـانت الثالثة هي الباتة القاطعة. فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجًا غيره.

ولهذا كـان جمع الثلاث في لفـظة واحدة ضد مـا شرعه القـرآن، وهذا ما بيّنه واستدل له شيخ الإسـلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وأخذت به المحـاكم الشرعية في كثير من البلاد العربية.

وعلى كل حال فالطلاق لا يحـرم المرأة من نفقتها، طوال مـدة العِدّة، ولا يبيح للزوج إخراجها من بيت الزوجية، بل يفرض عليـه أن تبقى في بيتها قريبة منه، لعل الحنين يعود، والقلوب تصفوا، والبواعث تتجدد: **﴿لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾** (الطلاق:١).

والطلاق لا يبيح للرجل أن يأكل على المرأة مهرها، أو يسـترد منها ما أعطى من قبل: **﴿وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾** (البقرة:٢٢٩).

كمـا أن لها حق المتعة بما يقـرره العُرْف: **﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾** (البقرة :٢٤١) وهذا عام لكل مطلّقة جبرًا لخاطرها، وتعويضًا لها.

وقديمًا قال أحـد الحكماء: (إنَّ من أعظم البـلايا معـاشرة مَن لا يوافـقك ولا يفارقك)!

---

(١) ذكر البخاري في ترجمة باب (١١)، كتاب الطلاق (٦/ ١٦٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وقال أبو الطيب المتنبي:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِه بُدُّ

وإذا قيل: هذا في الصاحب الذي يلقاه الإنسان يومًا أو حتى أيامًا في الأسبوع، أو ساعة أو حتى ساعات في اليوم، فكيف بالزوجة التي هي قعيدة بيته، وصاحبة جنبه، وشريكة عمره؟!

تضييق دائرة الطلاق:

على أن الإسلام قد وضع جملة من المبادىء والتعاليم والأحكام، لو أحسن الناس اتباعها والعمل بها لَقَلَّت الحاجة إلى الطلاق، ولضيِّقت من نطاقه إلى حد بعيد، ومن ذلك:

١- حُسن اختيار الزوجة، وتوجيه العناية إلى الدين والخُلُق، قبل المال والجاه والجمال، يقول النبي ﷺ: **«تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ»** متفق عليه.

٢-النظر إلى المخطوبة قبل العقد؛ ليطمئن على مبلغ حُسْنها في نظره وموقعها من قلبه، ولأن هذا النظر المبكر رسول الألفة والمودّة ولهذا قال الرسول لمن خطب امرأة: **«اذهب فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما»**(١) أي يحصل الائتدام والتآلف. وهذا الأمر النبوي: **«انظر إليها»** إن لم يدل على الوجوب، فهو دال على الاستحباب، وقد تكررت الأحاديث في هذا المعنى. وقال جابر في المرأة التي تزوجها: كنتُ أتخبأ لها تحت شجرة حتى رأيتُ منها ما دعاني إلى نكاحها.

وهناك للأسف من المسلمين -وخصوصًا في منطقة الخليج- مَن يرون رؤية الخاطب لمخطوبته عيبًا! ولذا لا يراها إلا ليلة الزفاف، مع أنها تكون طالبة في المدرسة أو الجامعة، وتذهب إلى السوق، وإلى الخارج ويراها كل الناس إلا خاطبها.

---

(١) رواه أحمد والدارقطني والحاكم والبيهقي عن أنس، وأحمد وابن ماجه والدارقطني والطبراني والبيهقي عن المغيرة، انظر: «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٨٥٩).

وفي مقابل هؤلاء من يبيحون للخاطب أن يخلو بمخطوبته، وأن يخرج معها وحدهما، ويسهرا في السينمات وفي غيرها، وهكذا ضاع الحق بين الإفراط والتفريط.

٣- اهتمام المرأة وأوليائها باختيار الزوج الكريم، وإيثار من يرضى دينه وخُلُقه، وقد ذكرنا من قبل حديث: «**إذا جَاءَكُم مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وخُلُقه فزوِّجُوه**». وقال السَّلَف: إذا زوَّجت ابنتك فَزوِّجها ذا دين، إن أحبها أكرمها، وإن كرهها لم يظلمها.

٤- اشتراط رضا المرأة بالزواج ممن يتقدم لها، ولا يجوز أبدًا إجبارها على مَن لا ترغب فيه. وقد رد النبي ﷺ من تزوَّجت وهي كارهة وقد ذكرنا ذلك في فصل سابق.

كما لا يحل للمطلِّق أن يشنع على زوجته أو يشيع عنها السوء أو يؤذيها في نفسها أو أهليها بعد فراقها: ﴿**فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**﴾ (البقرة: ٢٢٩). ﴿**وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ**﴾ (البقرة: ٢٣٧).

هذا هو الطلاق كما شرعه الإسلام.

إنه العلاج الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، وبالقدر الذي ينبغي، وبالأسلوب الذي ينبغي، للهدف الذي ينبغي.

ولقد حرَّمت المسيحية الطلاق تحريمًا باتًّا عند الكاثوليك، وباستثناء علَّة الزنى عند الأرثوذكس، وحُجَّتهم في ذلك: أنَّ ما جمعه الله لا يفرقه الإنسان! أما المسلمون فعندهم: أنَّ الله هو الذي جمَّع، وهو الذي فرَّق، بأحكام شرعه، فهو يُشرِّع لعباده ما يصلح لهم، وهو أعلم بهم.. فكانت النتيجة أن خرج الكثيرون من المسيحيين على هذا التحري، مما اضطر معظم الدول المسيحية إلى سنّ قوانين وضعية، تُبيح لهم الطلاق بغير قيود الإسلام والتزاماته وآدابه. فلا عجب أن صاروا يُطلّقون لأتفه الأسباب، وأن صارت حياتهم الزوجية عُرضة للانحلال والانهيار.

لماذا جُعل الطلاق بيد الرجل؟

ويقولون: لماذا جُعِل الطلاق بيد الرجل وحده؟

ونقول: إنّ الرجل هو رب الأُسرة وعائلها، والمسؤول الأول عنها، وهو الذي دفع المهر، وما بعد المهر، حتى قام بناء الأسرة على كاهله، ومن كان كذلك كان عزيزاً عليه أن يتحطم بناءُ الأسرة إلا لدوافع غلابة، وضرورات قاهرة، تجعله يضحي بكل تلك النفقات والخسائر من أجلها.

ثم إن الرجل أبصرُ بالعواقب، وأكثر تريثًا، وأقلُّ تأثرًا من المرأة، فهو أولى أن تكون العُقدة في يده، أما المرأة فهي سريعة التأثر، شديدة الانفعال، حَادَّة العاطفة، فلو كان بيدها الطلاق لأسرعت به لأتفه الأسباب، وكلما نشب خلاف صغير.

كما أنه ليس من المصلحة أن يُفوّض الطلاق إلى المحكمة، فليس كل أسباب الطلاق مما يجوز أن يُذاع في المحاكم، يتناقله المحامون والكُتّاب ويصبح مُضغة في الأفواه.

على أن الغربيين قد جعلوا الطلاق عن طريق المحكمة، فما قلَّ الطلاق عندهم، ولا وقفت المحكمة في سبيل رجل أو امرأة يرغب في الطلاق.

وأخيرا نقول: إن في التأني السلامة وفي العجلة الندامة، ولا تكن كالفرزدق الشاعر الذي طَلَّق زوجته نوار ثم ندم أشد الندم وقال:

نَدِمْتُ نَدامَةَ الكُسَعِي[١] لَمَّا ... غَدَتْ مِنّي مَطَلَّقَةً نوارُ
فَأَصْبَحْتُ الغَدَاةَ أَلُومُ نَفْسِي ... بِأَمْرٍ لَيْسَ لِي فِيهِ اخْتِيارُ
وَكَانَتْ جَنَّتِي فَخَرَجْتُ مِنْهَا ... كَآدم حِينَ أَخْرَجَهُ الضِرَارُ
وَلَو أَنِّي مَلَكْتُ بِهَا يَمِينِي ... لَكَانَ عَلَيَّ لِلقَدَرِ اخْتِبَارُ

(١) كُسَع: حي من اليمن، والكُسَعِي: رجل ربَّى نبعة حتى أخذ منها قوسًا فرمى الوحش عنها ليلاً فأصاب وظنَّ أنه أخطأ فكسر القوس، فلما أصبح رأى ما أصيب من الصيد فندم. راجع: مختار الصحاح مادة (ك س ع).

▪ الفصل الخامس عشر ▪

الاستئذان

يقول تباركت أسماؤه : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(النور:٥٨)، في هذه الآية الكريمة تعليم الاستئذان داخل البيوت، وهو للخدم والأطفال؛ لئلا يطلعوا على العورات، فقد يكون الإنسان في حالة لا يحب أن يدخل عليه فيها أحد؛ لذلك فقد أوجب الإسلام الاستئذان حتى على الخدم والصغار في ثلاثة أوقات، وسماها عورات؛ لانكشاف العورات فيها، وفي هذه الأوقات الثلاثة لابد أن يستأذن الخدم، وأن يستأذن الصغار المميزون الذين لم يبلغوا الحلم؛ حتى لا تقع أنظارهم على عورات أهليهم، وهو أدب رفيع يغفله الكثيرون في حياتهم مستهينين بآثاره النفسية والخلقية، ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم على عورات السادة، وأن الصغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه المناظر، بينما يقرر علماء النفس أن بعض المشاهد التي تقع عليها أنظار الأطفال في صغرهم هي التي تؤثر في مستقبل حياتهم، وقد تصيبهم بأمراض نفسية وخلقية، وتوجد فيهم عقدًا يصعب شفاؤهم منها، ونحن حينما نتحدث عن سعادة الأسرة المسلمة كان علينا أن نفرد لهذا الموضوع فصلاً؛ نظرًا لأهميته وخطورته، وهذا الأدب الإسلامي الرفيع لا نجده عند غير المسلمين، ويكفي الإسلام فخرًا أنه دين الأدب والتستر دين الحشمة والوقار، فهو يأمر بغض الأبصار عن عورات الناس، ويخصص هذه الأوقات الثلاثة دون غيرها؛ لأنها مظنة انكشاف العورات ولا يجعل استئذان الخدم والصغار في كل حين منعًا للحرج، فهم كثيرو الدخول والخروج على أهليهم بحكم صغر سنهم أو قيامهم بالخدمة، وبذلك يجمع بين الحرص على ستر العورات وإزالة الحرج والمشقة عن الناس، والحكمة من هذا

كله عدم تفتيح ذهن الصغار، وعدم إثارة الكبار حتى ينشأ الجميع على العفة والنزاهة وكمال الأدب، وبذلك تستقر الأسرة، وينعم الناس .

ويجب على الآباء والمربين أن يُرشـدوا أطفالهم الذين لم يبلغـوا سن البلوغ إلى أن يستأذنوا على أهليهم (الوالدة، الوالد، الأخت) في ثَلاثةِ أحوال هي:

١- من قبل صلاة الفجر لأن الناس إذ ذاك يكونون نيامًا في فرشهم.

٢- وقت الظهيرة (القيلولة) لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال.

٣-من بعد صلاة العشاء ؛ لأنه وقت نوم وراحة.

امتثالاً لقول الله تبارك وتعالى: **﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾** (النور: ٥٨).

أمـا إذا بلغ الأولاد سن الرشد والبلوغ فـعلى الآباء والمربين أن يُعلِّمـوهم آداب الاستـئذان في هذه الأوقـات الثلاثة وفـي غيرهـا امتثـالاً لقوله تعـالى: **﴿وإذا بَلَغَ الأَطفالُ مِنكُمُ الحُلُم فَليستأذِنُوا كما أستأذنَ الذينَ مِن قَبلِهِم﴾** .

ولا يخـفى ما في هذه اللفـتات القـرآنيـة من اهتمـام الإسلام في تربيـة الولد اجتماعيًّا وتكوينه سلوكيًّا وخُلُقيًّا، حتى إذا بلغ سن الشباب كان النموذج الحي عن الإنسان الكامل في أدبه وخلقه، وتصرفه واتزانه.

وللاستئذان آداب علَّمنا إياها رسولنا الكريم ﷺ وهي:

أ - أن يستـأذن ثلاث مـرات؛ لقوله الرسول ﷺ : **«الاستـئـذانُ ثلاثٌ، فإن أُذنَ لَكَ وإلاَّ فَارْجِعْ»**، ويقـول الإمـام مـالك: «الاستـئـذان ثلاث لا أحب أن يزيد أَحـد عليهـا إلا من علم أنه لم يسـمـع فلا أرى بأسًـا أن يزيد إذا استـيـقن أنه لم يسمع».

ب - ألاَّ يدق الباب بعـنف: ولا سيَّمـا إنْ كان رب المنزل أباه أو أسـتاذه أو ذا

فضل. . . ، وأما إذا كان على الباب جرس كما جرى العُرف اليوم فيقرع المُستأذِن بقرعة خفيفة لطيفة لتدل على لطفه وكرم أخلاقه ومعاملته.

ج ـ عدم الوقوف أمام الباب: خشية أن يمتد بصره إلى من بداخل البيت؛ لقول النبي ﷺ: «**إنما جعل الاستئذان من أجل البصر**»[1]، «فدل على أنه لا يجوز النظر في دار أحد إلا بإذنه. . .».

د ـ أن يُسلِّم ثم يستأذن: لما روى أبو داود أن رجلاً من بني عامر استأذن على النبي عليه السلام وهو في بيت فقال: أألج؟ فقال الرسول ﷺ لخادمه: «**أخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان فقل له: قل: السلام عليكم، أأدخل؟**» فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم. أأدخل؟ فأذن له النبي ﷺ فدخل.

٤- الحكمة منه:

حتى لا يختلط الرجال بالنساء، وحتى لا يقع الزائر بصره على المُحَرَّمات، مما يَحرُم عليه من النظر والله أعلم.

هذه أهم القواعد التي وضعها الإسلام في آداب الاستئذان، فما على المربين إلا أن يتقيدوا بها ويُعلِّموها أولادهم إذا أرادوا لهم الخُلُق الفاضل والشخصية الإسلامية المُتميِّزة والسلوك الاجتماعي الخيِّر!!

■ الفصل السادس عشر ■

تربية الأبناء تربية حسنة

رغم أن التشريع الإسـلامي حمَّل الرجل والمرأة مسؤوليـة رعاية وتربـية الأبناء، إلا أن الأم تبقى هي الألصق بالطفل ، فهي التي تحمل به ، وترضعه ، وترعى شؤونه كلها ، فهي التي تعطيـه من بدنها حتى ينمو جـسمه ، وهي التي تسهـر على راحته حينما تلمح سقـمه، وهي التي تربيه على فضائل الأخلاق والتـقى والعفاف ، فهي كما قال الشاعر حافظ إبراهيم :

الأمُ مَدْرَسَـةٌ إذا أعْـــدَدْتَهـا　　أعْدَدْتَ شَعْبًا طَيِّب الأعْــرَاقِ
الأمُ رَوْضٌ إذَا تَعَهدَهُ الحَيَــا　　بالــرِي أوْرَقَ أيَّمَــا إيــرَاقِ

ويبقى السؤال كيف يمـكن أن تقوم العملية التربوية وفق معـايير الشرع الإسلامي ونحن نعـيش وسط مجتـمع يعج بالمتناقـضات ؟ وقد يـظن البعض أن إيجـاد الجيل المؤمن الرباني هو ضرب من المستحيل . ولكن الناظر في سنة الرسول ﷺ وسيرة السلف الصالح، يوقن إمكانيـة وجود الجيل المؤمن بربه المستقـيم في سلوكه وخلقه، ولكن مثل هذا الجيل لن يوجد بين عشية وضـحاها بل يحتاج إلى رعاية طويلة الأمد وجهـود متتابعـة وتربية متأصلة الجـذور ، فهذا رسولـنا الكريم ومعلمنا الأول يرسم ويقرر لنا الأسس والمبادىء التي تعيننا على إنشاء وبناء الأسرة المسلمة، فيقول : «**ألا كلكم راعٍ وكلكم مـسؤول عن رعـيته . فـالأمير الذي على الناس راعٍ وهو مـسؤول عن رعيـته ، والرجل راع على أهل بيـته وهو مسـؤول عنهم ، والمرأة راعيـة على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم ، والعبـد راع على مال سيده وهو مـسؤول عنه ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**» رواه الشيخان .

فهـذا الحديث يوضح لنا أن تـربية الأبناء منوطة بالرجل والمرأة . فـهناك تكامل بينهمـا في موضوع التـربية ولن تكون سليـمة بغيـاب أحدهما عن السـاحة . وهذه المنهجـية في التـربية هي التي تسـهم في بناء الأسرة على أسـاس من السكن والمودة

والتراحم، ولأن مراحل التربية في الإسلام كلها هامة؛ فهي مترابطة لا يمكن فصل بعضها عن بعض فكل مرحلة تمهد للأخرى ، وقد أولى الإسلام مرحلة الطفولة عناية خاصة، فهي المرحلة الأساسية في حياة الطفل، فكل ما يغرس فيها من فكر وأخلاق وعادات تثبت مع الطفل طيلة عمره ويصعب تغييرها فيما بعد، وعلى هذا فإن مسيرة التربية والبناء في الإسلام تبدأ من حين عقد النية على الزواج واتخاذ الأسباب الناجحة من أجل ذلك، وفق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقد قال ﷺ : « **تُنْكَحُ المرأةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، ولِحَسَبِهَا، ولِجَمَالِهَا، ولِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ** » أخرجه الشيخان .

وقال ﷺ أيضًا : «**إِذَا جَاءَكم مَنْ تَرْضَونَ دِينَهُ وخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ إلاَّ تَفْعَلُوا؛ تَكُنِ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ**» رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم والبيهقي .

وقال ﷺ أيضًا : «**تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ فَانْكِحُوا الأَكْفَاءَ وَانْكِحُوا إِلَيْهِمْ**» رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي. فإذا أحسن الرجل اختيار الزوجة وفق معايير الشرع الحنيف؛ فقد أحسن إلى ولده بحسن اختياره لأمه . كما قال الشاعر :

وَأَوَّلُ إِحْسَانِي إِلَيكُمْ تَخَيرِي ... لِمَاجِدَةِ الأَعْرَاقِ بَادٍ عَفَافُهَا

وكذا المرأة إذا أحسنت اختيار الرجل كما أرشدنا رسول الله ﷺ فكان الدين هو أساس الارتباط في الزواج؛ فقد أحسنت إلى ولدها بحسن اختيارها لأبيه

وإذا ما تم الزواج وكان على أساس المنهج الرباني؛ فإن إيجاد البيت المسلم وتربية الجيل سيكون أمرًا سهلاً ويسيرًا إن شاء الله؛ لأن حسن الاختيار سوف يوفر الحضن الدافىء والبيئة الصالحة التي ترعى الذرية، وتحافظ على نقاء الفطرة السليمة فالقضية هنا قضية الذرية التي تأتي بإذن الله، فهي قضية الإنسان وقضية الناس كافة في مشارق الأرض ومغاربها . وكيف لنا أن نتحدث عن حقوق الإنسان إذا لم نرع حقوقه في بيته وأسرته التي تمثل الحق الأول والأهم في حياته؟

وعلى هذا فهناك أمور كثيرة أرشدنا إليها المصطفى ﷺ تعيننا على تربية الطفل من أول يوم لولادته، وهي من حقوقه على والديه :

١- **التأذين في أذن المولود** : وذلك بعد الولادة مباشرة، والحكمة في ذلك حتى يكون أول ما يسمعه الطفل هو كلمات الأذان التي تتضمن توحيد الله وتعظيمه . فقد روى أبو رافع عن أسلم مولى رسول الله ﷺ فقال :(رأيت رسول الله ﷺ أذن في أذن الحسن بن علي حين ولدته فاطمة) رواه أبو داوود والترمذي .

٢- **تحنيك المولود** : وهو تدليك فم المولود بالتمر أو أي مادة حلوة وذلك حتى تتقوى عضلات الفم، فقد جاء في الصحيحين من حديث أبي بردة عن أبي موسى رضي الله عنه قال : (وُلِدَ لي غُلامٌ فأَتَيْتُ رسول الله ﷺ فَسَمَّاه إبراهيم وحَنَّكَهُ بالتمْر وَدَعَا لَهُ بالبركةِ) ويستحب أن يقوم بالأذان والتحنيك أهل التقوى والصلاح تيمنًا بصلاح المولود .

٣- **أن يحسن اسمه** : فقد قال رسول الله ﷺ : «**إنَّكُمْ تُدْعَونَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِأسْمَائِكُمْ وبِأسْمَاءِ آبَائِكُمْ، فَأَحْسِنُوا أسْماءَكُمْ**» رواه أبو داوود بإسناد حسن .

٤- **العقيقة عن المولود** : فقد قال رسول الله ﷺ : «**كُلُّ غُلامٍ مُرْتَهن بِعَقِيقَتِهِ تُذْبَحُ عِنْدَ يَوْمِ سَابِعِهِ، ويُحْلَقُ رَأْسُهُ ويُسَمَّى**» .

٥- **حلق رأس المولود يوم سابعه والتصدق بوزنه فضة:** فإن حلق شعره يساعد على تفتيح مسامات الرأس وتنشيط الدورة الدموية في الدماغ، والتصدق يؤدي إلى التواصل والتكافل بين أفراد المجتمع المسلم .

٦- **الختان:** وذلك من أجل المحافظة على صحة المولود من بعض الأمراض التي تضره فيما بعد .

٧- **الرضاعة** : فإن لها أهمية بالغة في توفير الغذاء الكامل للطفل، وهي لا تقف عند الناحية الغذائية فحسب بل هي حضانة ورعاية وحنان وعطف تعطيه الأم لطفلها. والتي سيكون لها الأثر الطيب فيما بعد على شخصيته وسلوكه .

هذه بعض الحقوق الواجبة للطفل عند ولادته ولكل واحدة حكمتها الخاصة بها ، والتي تعتبر حجر الأساس الأول في تربيتة ، وعلى الأبوين أن يحرصا على تطبيقها حتى ينشأ ولدهما صالحًا تقيًا .

وفي خلال السنة الأولى من عمر الطفل تكون العناية به منوطة بالأم أكثر من الأب، ولو كان للأب دور فهو بسيط في هذه المرحلة، فالرضاعة والنظافة والترتيب كلها من مهمة الأم، وخلال قيامها بهذه الأمور تستطيع أن تبدأ بعملية التربية فترسم الملامح الرئيسية لشخصية الطفل، فهي من خلال العناية بنظافته في أوقات محددة تعلمه الانضباط ، وعندما ترضعه ثم تضعه في سريره لينام تغرس في نفسه السمع والطاعة، وإذا تركته يبكي لبعض الوقت فلا تحمله وتلقمه ثديها كلما بكى تعلمه الصبر وسعة الصدر . وأثناء عملية الرضاعة يستقي الطفل من أمه طباعها الحسنة وأخلاقها السامية، فينشأ على العزة والإباء والاستعلاء على الباطل، وتغرس فيه حب الله ورسوله فتردد على مسامعه الله ربي ومحمد رسولي والقرآن كتابي، وعندما تضعه في السرير لينام تنشد له :

اللهُ مَعِي اللهُ مَعِي   اللهُ شَاهِدِي اللهُ نَاظِرِي

وإذا انزعج في منامه فصرخ في ظلمة الليل فإنها تعوّذه بآيات القرآن الكريم، كقراءة المعوذات وآية الكرسي، فبذكر الله تطمئن القلوب . ولا تستهين بهذه الأمور فإن الطفل يسجل في ذاكرته كل كلمة يسمعها منذ اليوم الأول لولادته، وعندما يستطيع النطق بالكلام فإنه يستعمل الكلمات التي سيجدها منقوشة في شريط ذاكرته .

وإياك أختي الأم والزمجرة في وجه طفلك حتى ولو كان عمره أشهرًا، فإنه سينشأ مثلك عصبي المزاج، وهذه الصفة ممقوتة، بل أكثري الدعاء له كلما أزعجك ببكائه بقولك : عافاك الله، يرحمك الله يا ولدي . لا حول ولا قوة إلا بالله، ولو أسمعته شريطًا من القرآن؛ سوف يساعده ذلك على النوم بهدوء، وحتى يتحقق لك ذلك ، عليك أن تكوني على قدر من النشاط واللباقة والحركة والقدرة على تدبير الأمور بحكمة وروية؛ لتكوني بحق أمًّا يشع من صدرها الحنان، ومربية هي منبع العلم و الفضيلة، وقدوة حسنة لأبنائها، فإن لسان الحال أبلغ من لسان المقال .

التربية من سن الثالثة حتى سن المراهقة :

التربية الإيمانية :

في السنة الثالثة يجب أن نبدأ بتعليمه بعض مبادىء التربية الإيمانية وهي :

١- غرس مبادىء العقيدة في قلب الطفل وأولها التقوى فهي التي تمنع الفرد من الوقوع في المعصية وتنمي لديه الخوف والخشية من الله تعالى .فلقد بين رسول الله ﷺ أهمية التقوى في حياة الفرد فقال : «**التقوى ههنا وأشار إلى صدره ثلاثًا**». وذلك بلفت نظره إلى جمال الكون وأن الله تعالى هو الواحد الخالق المبدع له

٢- تعويده على طاعة الوالدين،وذلك بسماع كلامهما وعدم رفع صوته عليهما والتأفف والضجر من نصائحهما له . فقد قال الله تعالى : ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا**﴾(الإسراء:٢٣) .

وإذا بلغ سن السابعة وهو سن التمييز يعلم العبادات، أولها الطهارة والصلاة فقد قال رسول الله ﷺ : «**مُرُوا أَبْنَاءَكُم بِالصَّلاةِ وَهُمْ أَبْنَاء سَبْعِ سِنِينَ وَاضْرِبُوهُم عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاء عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**» رواه الحاكم وأبو داود .

وكذلك الترويض على الصوم في شهر رمضان، فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث الرُّبَيْعِ بنتِ مُعَوِّذٍ قالت: أرسل النبي ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار «**من أصبح مفطرًا فليتم بقية يومه، ومن أصبح صائمًا فليصم**» فكنا نصومه بعد، ونصوِّم صبياننا ونجعل لهم اللعبة من العهن - الصوف المصبوغ - فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك حتى يكون عند الإفطار.

والحكمة من تعليمه الصلاة لسبع سنين حتى ينشأ في رعاية الله، ويتعود على أدائها في أوقاتها منذ نعومة أظفاره؛ لأن الصلاة هي الحبل الذي يصله بربه فيجعله قويًّا صلبًا، وبها يتهذب سلوكه وينشط جسمه وتطمئن نفسه ، وتنتظم حياته وتجعل

منه إنسانًا مدركًا لقيمة الزمن، فيحرص على وقته فلا يضيعه دون فائدة، فالصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها هدم الدين وهي العلامة التي تميز المسلم عن غيره من الناس.

ويجب ترويضه على الخشوع في الصلاة؛ ليكون من عباد الله العارفين، فقد قال الله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾. (المؤمنون: ١-٢).

ويجب تعليمه إخلاص النية لله عز وجل فقد قال تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾. (البينة: ٥).

ويجب تقوية روح المراقبة لله تعالى في أقواله وأفعاله بدافع ذاتي من نفسه، فقد قال رسول الله ﷺ عندما سئل عن الإحسان : «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاه، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» رواه البخاري ومسلم .

التربية الاجتماعية :

تعليمه منذ نعومة أظفاره على الالتزام بالآداب الاجتماعية ومنها :

١- حب الآخرين من أصدقائه وإخوانه؛ لأن المشاعر الأخوية تولِّد في نفس المسلم أصدق العواطف النبيلة ، مثل التعاون والإيثار، والرحمة والعفو والتسامح ، وقد قال رسول الله ﷺ : «لاَ يُؤْمِن أَحَدُكُمْ حَتَى يُحِب لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» رواه البخاري ومسلم .

٢- آداب الطعام والشراب وتحفيظه الأحاديث والأدعية الخاصة بذلك . فيأكل بيمينه ويشرب بيمينه، وأن يبدأ دائمًا باليمين في كل أفعاله اتباعًا لقول الرسول ﷺ : «ياغُلام سَمِّ اللهَ وَكُلْ بِيمينكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ» رواه مسلم .

ومن هديه أن يقول المسلم عند بداية الأكل «بسم الله اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار»، وإذا انتهى من طعامه يقول : «الْحَمْدُ لله الذي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَجَعَلَنَا مُسْلِمِينَ» رواه أحمد، وألا يبدأ بالطعام قبل من هو أكبر منه سنًّا .

وأما الشرب فقد علمنا رسول الله ﷺ فقال: «**لا تشربوا واحداً كشرب البعير ولكن اشربوا مثنى وثلاث وسموا إذا أنتم شربتم واحمدوا إذا أنتم رفعتم**» رواه الترمذي

وألاَّ يتنفس في الإناء ولا يشرب من فم الإناء؛ لأن ذلك منافٍ للذوق الاجتماعي، فقد نهى رسول الله أن يتنفس في الإناء أو ينفخ فيه. رواه الترمذي.

٣- إذا أراد النوم في سريره نعلمه أن ينام على جنبه الأيمن ويدعو الله تعالى؛ فقد قال رسول الله: «**إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة،ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك،لا ملجأ ولامنجا منك إلا إليك،آمنت بكتابك الذي أنزلت،ونبيك الذي أرسلت**» رواه البخاري ومسلم.

٤- المحافظة على نظافة نفسه وثيابه، وكيف ينظف نفسه إذا دخل الحمام فقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان يقول عند دخوله الخلاء: «**اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث**» وعند الخروج من الحمام يقول: «**غفرانك الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني**» رواه ابن ماجه، وكيف يحافظ على نظافة غرفته وأدواته ولايعبث بأثاث المنزل؛ لأن النظافة والترتيب من معالم شريعتنا الغراء.

٥- آداب النظر والاستئذان فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾(النور:٥٨-٥٩) فلا يجوز أن ينظر الأطفال إلى عورات بعضهم بعضًا، ولا أن يناموا معًا في فراش واحد؛ حتى ينشأ الطفل على الحياء.

ويجب أن يستأذن الطفل قبل دخوله غرفة أبويه؛ حتى لا يفاجأ برؤيتهما على

هيئة لا يحسن أن يراهما عليها . وكم لهذه القضية من خطورة بالغة على نفوس الأبناء لو أنهم رأوا من أبويهم ما يشين الخلق ويخدش الحياء .

التربية التعليمية :

إذا أتم الطفل السنة الرابعة نبدأ بتنمية الجانب العقلي عنده، وذلك بتلقينه كل ما هو نافع من العلوم الشرعية والعلوم الأخرى، كأن يحفظ شيئًا من القرآن والحديث النبوي الشريف فقد قال رسول الله ﷺ : «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**» رواه ابن ماجه، وقال ﷺ أيضًا : «**أَدِّبُوا أَوْلادَكُم عَلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ: حُبِّ نَبِيِّكُم، وَحُبِّ آلِ بَيْتِهِ، وَتِلاَوَةِ القُرْآنِ، فَإِنَّ حَمَلَةَ القُرْآنِ فِي ظِلِّ عَرْشِ اللهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلا ظِلُّهُ**» رواه الطبراني.

وقد نصح علماء التربية من سلفنا الصالح، بالبدء بتعليم الطفل القرآن الكريم بمجرد استعداده جسميًّا وعقليًّا لذلك، ليتعلم اللغة العربية وترسخ في ذهنه معالم الإيمان والعقيدة، فقد رأى الفضل بن زيد امرأة تحمل ابنًا لها فأعجبه منظره فسألها عنه فقالت: (إذا أتم خمس سنوات أسلمته إلى المؤدب فحفظ القرآن فتلاه وعلمه الشعر فرواه ، ورُغِب في مفاخرة قومه ولقن مآثر آبائه وأجداده ، فإذا بلغ الحلم حملته على أعناق الخيل، فتمرس وتفرس ، ولبس السلاح ومشى بين بيوت الحي وأصغى إلى صوت الصارخ المستغيث. . .)[١] فانظري أختاه إلى هذه المرأة الذكية كيف وضعت خطةً ومنهجًا لتربية ولدها منذ نعومة أظفاره .

ويمكن أن نبعثه إلى روضة الأطفال ليتعلم القراءة والكتابة ونحرص على أن تكون إسلامية، ولا يجوز أن نرسله إلى المدارس التبشيرية بحجة أن يتعلم اللغات؛ لأن ذلك سيوقعه في مأزق نفسي ، ففي البيت نعلمه الخلق الإسلامي والعقيدة الربانية، وهو يرى في الروضة أو المدرسة ما هو مخالف لما نعلمه تمامًا، وليكن معلومًا لدينا أن الطفل الذي ينشأ ويتربى في أحضان أم متعلمة واعية وأسرة مؤمنة بربها؛ لن يستعصي عليه فهم أي علم في المستقبل بإذن الله .

(١) تربية الأولاد في الإسلام (١ / ٢٦٥) .

وحتى يكون الولد طفلاً ذكيًا وموهوبًا ومواظبًا على دروسه ،علينا أن نتعامل معه بأسلوب الحوار البناء، لنتعرف على رغباته وميوله ، ونهتم بتحقيقها ، ويجب الإصغاء له، واحترام رأيه ، والحرص على الإجابة على تساؤلاته مهما كانت بسيطة أو معقدة .

ويجب الاهتمام بمشاركته اللعب على مختلف ألوانه، من ممارسة الركض معه مثلاً أو بناء وتركيب المجسمات وقراءة القصص الهادفة ، وتعليمه التخطيط لحياته ومستقبله بسؤاله ماذا يريد أن يكون في حياته، وترغيبه في الدراسة بتحفيزه بالطرق المختلفة التي تشحذ ذهنه وذاكرته ، حتى يستطيع أن يتخطى الصعوبات التي تواجهه في المدرسة بكل ثقة وطمأنينة.

ويجب أن نتعاون مع المدرسة في الوقوف على المستوى العلمي للطفل إذا ما بعثوا لنا؛ ليناقشوا ما يخص مستوى الطفل من تقدم دراسي أو تأخر، فعلينا الاهتمام بذلك والاستجابة لطلبهم بأقصى سرعة لمتابعة مستواه العلمي بكل عناية . فكثيرًا ما تشتكي المعلمات من الوالدين حيث يرسلن إليهم لمتابعة أطفالهم في الروضة أو المدرسة من أجل بيان ضعفهم في التحصيل العلمي، لكنهم لا يأبهون لذلك ولا يلقون لهذا الأمر بالاً، وكأن الموضوع لا يعنيهما لا من قريب ولا من بعيد ولا يخص ولدهما بشيء، إن هذا الإهمال سيكون وبالاً على الأسرة قبل الولد، فما الفائدة من إنجاب الأولاد إذا لم يكونوا أفرادًا صالحين في المجتمع ؟ وكيف سيكون حالهم في المستقبل ونحن نعيش في عصر التقدم العلمي والتكنولوجي ؟ وأي مكانة ستكون لهم في هذا الزمان ؟ إن حالهم هذا تمامًا مثل حال اليتيم الذي لا أم له ولا أب [1]. قال الشاعر :

لَيْسَ اليَتِيمُ مَن انْتَهَى أَبَوَاهُ ... مِنْ هَمِّ الحَيَاةِ وخَلَّفَاهُ ذَلِيلاً
إِنَّ اليَتِيمَ هُوَ الذي تَلْقَي لَهُ ... أُمًّا تَخَلَّتْ أو أَبًا مَشْغُولاً

فالأسرة هي المركز التعليمي الأول الذي يضع المنهج السليم، الذي يضمن للطفل

---

(١) «تربية الأولاد في الإسلام» (١/ ٢٦٥).

مستقبلاً أفضل وليس المدرسة فقط، فالبيت والمدرســة يكمل أحدهما الآخر في هذه المرحلة.

وقد تعترض بعض النساء فتـقول: إن هذه الأمور صعبة جدًّا، فكيف للأم التي تنجب عددًا من الأولاد أن تقوم بالتربية والتوجيه الصحيح لهم ؟ والذي أراه أن الأم إذا أحسنت تربية الطفل الأول فـإن مهمة تربية الآخرين سـتكون أسهل؛ لأنها تكون قد تعـودت على التعـامل مع الأطفال، وأصـبح عندها خبـرة في معـرفة الأسلوب الأفضل لتربيتهم وتنشئتهم وفق المبادئ الإسلامية السامية .

وإذا كانت حكيمــة ومنظمة في إدارة منزلها فإنها ستـجد الوقت الكافي لتجلس مع ولدها وتعلمه كل مـا تريد ؛ وهذه أمٌّ تقول: كنت في بداية حياتــي امرأة عاملة وحفَّظْت ابنتي الكبرى سورًا من القرآن الكريم قبل دخـولها المدرسة وعلمتها الحروف والأعداد والكتـابة، ورغم ضيق الوقت وقلة الفراغ إلا أنني كنت أتابعــها ، وأرى ماذا كتبت أو أسـتمع إلى ما حفظت، فالنظام والتـخطيط لإدارة شؤون البيت يعين على إنجاز الأعمال وتدبير الأمور بدقة وبسرعة.

وإذا رأت الأم أنها غير قادرة على تربية الـعدد الكبير من الأطفال، فقد أجاز لها الإسلام أن تنظم النسل فتجعل فـترة بين الطفل والآخر؛ حتى تستطيع أن تعطي كل طفل حقــه من الرعاية والعناية؛ لأن التـربية عـملية بناء للإنسان من جـميع جـوانبه الشخصية، إيمانيًّا وفكريًّا، ونفسية خاشعـة، وعاطفة صادقة ،وذلك لإعداده للقيام بالأمانة العظمى التي حملها الله له وهي التمكين لدينه في الأرض .

التربية الأخلاقية :

وأولها خلق الصدق : نعلمه حب الصدق . فقد قال رسول الله ﷺ : «**إياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفـجور يهدي إلى النار وما زال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**» متفق عليه .

وقد روى العالم الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني فقال :(خرجت من مكة إلى بغداد أطلب العلم فأعطتني أمي أربعين درهمًا أستعين بها على النفقة وعاهدتني على

الصدق، فلما وصلنا إلى أرض همدان خرج علينا جماعة من اللصوص فأخذوا القافلة فمر واحد منهم وقال لي: ما معك؟ قلت: أربعون دينارًا فظن أني أهزأ به، فتركني فرآني رجل آخر فقال: ما معك؟ فأخبرته بما معي فأخذني إلى كبيرهم فسألني فأخبرته فقال : ما حملك على الصدق ؟ قلت : عاهدتني أمي على الصدق فأخاف أن أخون عهدها، فأخذت الخشية رئيس اللصوص فصاح ومزق ثيابه . وقال: أنت تخاف أن تخون عهد أمك، وأنا لا أخاف أن أخون عهد الله، ثم أمر بردِّ ما أخذوه من القافلة، وقال : أنا تائب لله على يديك، فقال من معه : أنت كبيرنا في قطع الطريق وأنت اليوم كبيرنا في التوبة فتابوا جميعًا)(١).

وثانيها احترام الكبير والعطف على الصغير: يجب تعليمه كيف يكون رحيمًا عطوفًا على الصغير محترمًا للكبير . فقد قال رسول الله ﷺ : «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا**» رواه أبو داود والترمذي .

وثالثها أدب الحديث : نعلمه حسن المنطق وآداب الكلام بالإصغاء إلى من هو أكبر منه سنًا، فقد روي أن البادية قحطت أيام هشام بن عبد الملك فقدمت القبائل إلى هشام وفيهم درواس بن حبيب وعمره (أربع عشرة سنة) فأحجم القوم وهابوا هشامًا ووقعت عين هشام على درواس فاستصغره، فقال لحاجبه: ما يشاء أحد أن يصل إليّ إلا وصل حتى الصبيان ففهم درواس أنه يريده فقال : يا أمير المؤمنين إن القوم قد جاؤوا لأمر فأحجموا دونه، فإن الكلام نشر والسكوت طي، ولا يعرف الكلام إلا بنشره . فقال هشام : فانشر لا أبا لك، وأعجبه كلامه، فقال : يا أمير المؤمنين أصابتنا ثلاث سنين فسنةٌ أذابت الشحم وسنةٌ أكلت اللحم وسنةٌ نقت العظم، وفي أيديكم فضول أموال فإن كانت لله ففرقوها على عباد الله المستحقين لها، وإن كانت لعباد الله؛ فلم تحبسونها عنهم ؟ وإن كانت لكم فتصدقوا بها فإن الله يجزي المتصدقين. واعلم يا أمير المؤمنين أن الوالي من الرعية كالروح من الجسد لا حياة للجسد إلا به . فأمر هشام أن يقسم في باديته مائة ألف درهم وأمر له بمائة ألف درهم فردّها وقال: أعطها أهل باديتي

---

(١) «تربية الأولاد في الإسلام» (١/ ١٧٥).

ليس لي حاجة من دون عـامة المسلمين)(١). وقدحرص خلفاء الدولـة الإسلامية على تنشئة أولادهم على مكارم الأخلاق فهذا الخليـفة عبد الملك بن مروان يقول لمن يؤدب ولده :(علمهم الصدق كما تعلمهم القـرآن واحملهم على الأخلاق الحميدة، وأروهم الشعر وجـالس بهم أشراف الرجال وأهل العلم منهم، وجنبهم السفلة، ووقرهم في العـلانية وأنبـهم في السر، واضـربهم على الكذب، فإن الكذب يـدعو إلى الفـجور والفجور يدعو إلى النار).

وروى ابن خلدون في مقدمتـه أن هارون الرشيد لما دفع ولده الأمين إلى المؤدب قال له :(يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهـجة نفسه وثمرة قلبه فصيّر يدك عليه مـبسوطة، وطـاعته لك واجـبة، فكن له بحيث وضـعك أميـر المؤمنين، أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروِّه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، ولا تمرنَّ بـك ساعة إلا وأنت مغتنم فـائدة تفيده إياها، ولا تمعن في مسامحتـه فيستحلي الفراغ ويألفه، وقوّمـه ما استطعت بالقرب والملاينه فإنْ أباهما فعليك بالشدة والغلظة) (١).

وقـد يستـعظم بعض الناس هذه الأمور كـيف يمكن للطفل أن يتـعودها وينشـأ عليها. ولكن الناظر المتدبر للأمر لا يستكثر هذا على الطفل فكما قال الشاعر :

قَدْ يَنْفَعُ الأَدَبُ الأَوْلادَ فِي صِغَـرٍ ... وَلَيْـسَ يَنفَعُهُـمْ مِنْ بَعْـدِهِ أَدَبُ
إِنَّ الغُصُونَ إِذَا عَدَلْتَهَـا اعْتَدَلَتْ ... ولا يَلِينُ لَـوْ لَيَّنْتَهُ الخَشَـبُ

فإذا شب الولد وترعرع وتفقه في أمـور الحياة والدين وعرف الحلال من الحرام، وأصبح دين الإسلام منهجه واستقام على هداه ، علينا أن نعلمه آداب النظر؛ لأن في ذلك صلاح أمره وهذا يستدعـي تعريفه بالنساء المحرمات عليه كأخـته وجدته وخالته وعمته، وأنه لا يجوز أن ينظـر إلى نساءٍ غيرهن؛ لأن ذلك بداية الفتنة، ولا بد من تحذيره من الاخـتلاط مع الجنس الآخر، فقـد قال رسول الله ﷺ فيـما يرويه عن

(١) «تربية الأولاد في الإسلام» (١/ ١٨٠).

(٢) «تربية الأولاد في الإسلام» (١/ ١٤٤).

ربه : «النَّظْرةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَام إبْلِيس مَنْ تَرَكَهَا مِنْ مَخَافَتِي أَبْدَلْتُه إيمَانًا يَجِدُ حَلاوتَهُ في قَلْبِه» رواه الطبراني والحاكم .وكذا نصنع مع البنت فنعلمها أحكام العبادات وما يتعلق بالحجاب والزينة وأحكام التعامل مع الرجال الأجانب وما هي الخطوط التي يجب الوقوف عندها .

وهذا لا يعني أن يجتهد الآباء والأمهات بأن يكون أبناؤهم نسخة عنهم في كل شيء؛ فيتعاملوا معهم بأسلوب الشدة والغلظة. إن هذا لأمر صعب. فالزمن الذي تربى فيه الأب والأم غير الزمن الذي يتربى فيه الأبناء، فلابد من أخذ هذه القضية بعين الاعتبار، ويجب اتباع المرونة في التعامل معهم وإلا فإن النتائج ستكون عكسية ويحدث هوة بين الولد وأبويه ويصعب إيجاد التفاهم بينهم لتغيير سلوكه .

أساليب التربية الصحيحة الناجحة:

١- **التربية بالحكمة والموعظة الحسنة** : نربيهم على السمع والطاعة بالكلمة الطيبة والرفق واللين . وليكن وعظ لقمان لولده نبراسًا لنا في توجيه وتربية أبنائنا فقد قال تعالى : ﴿**يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾(لقمان:١٧-١٩).

وصدق رسول الله ﷺ ؛ إذ يقول : «**رَحمَ اللهُ والدًا أَعَانَ وَلَدَهُ عَلَى بِرِّه**»، وقال ﷺ أيضًا: «**إنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِفْقَ فِي الأَمْرِ كلِّه**» رواه البخاري ومسلم .

وتكون التربية بالحكمة والموعظة الحسنة بما يلي :

أ- **تقوية صلة الولد بربه** : وذلك عن طريق ربط الولد بالمسجد؛ لأنه من أعظم الدعائم التي يقوم عليها بناء المجتمع المسلم فبغير المسجد لا يمكن للولد أن يتربى على حب العبادة والشعور الروحاني بالتقرب لله تعالى، ففي المسجد يستمع إلى

---

(١) «تربية الأولاد في الإسلام» (١/ ١٤٤)

الموعظة الحسنة ، ويتعلم القرآن الكريم ويحفظه، وينمو لديه الحس الجماعي، فينشأ على حب الناس في المجتمع المسلم فيشاركهم آلامهم وآمالهم وأفراحهم وأحزانهم ، عدى عن ذلك تتربى في داخله مراقبة النفس وحب الله ورسوله فقد قال رسول الله ﷺ : «**أَلاَ أَدُلُكُمْ عَلَى مَا يَمْحُوا اللهُ بِهِ الخَطَايَا وَيَرْفَعْ بِهِ الخَطَايَا**» قالوا : بلى يا رسول الله، قال: «**إِسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلَى المَكَارِهِ وَكَثْرَةُ الخُطَى إِلَى المَسَاجِدِ وانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ فَذَلِكُمُ الرِّبَاط**» رواه مسلم .

ويجب تنمية حب التقرب إلى الله بالنوافل عنده، مثل صلاة الضحى وقيام الليل وصلاة التراويح في رمضان، وصيام الاثنين والخميس من كل أسبوع، وصيام يوم عرفة والستة من شوال؛ لأن هذه القربات تنقي قلبه وتهذب من سلوكه .

ب- ربط الولد بمعلم ومرشد يتعلم على يديه تطبيق أحكام الشرع والأخلاق الحسنة ليقتدي به، ويكتسب منه الصفات الإيمانية مثل حب العلم واحترام العلماء والشجاعة والمروءة، والجرأة في قول الحق؛ ليكون قادرًا على مقارعة الأعداء بالكلمة القوية المؤثرة والحجة الدامغة المقنعة ، يتحمل المسؤولية الملقاة على عاتقه بكل إرادة وعزم، وبذا يكون شابًا يتقد قلبه حماسًا لنصرة الإسلام وأهله كما قال الشاعر هاشم الرفاعي:

كَذَلِكَ أَخْرَجَ الإِسلامُ قَومِي ... شَبَابًا مُخْلِصًا حُرًّا أَمِينَا
تَعَهَّدَهُمْ فَأَنْبَتَهُم نَبَاتًا ... كَرِيمًا طَابَ فِي الدُّنْيَا غُصُونَا
شَبَابٌ ذَلَّلُوا سُبُلَ المَعَالِي ... وَمَا عَرَفُوا سِوَى الإِسْلاَمَ دِينَا

ج- ربط الولد بصحبة صالحة لديهم النضج العقلي والوعي الفكري، والفهم الصحيح عن الإسلام؛ ليكتسب قدرة على حسن التصرف مع الآخرين وحنكة في تدبير شؤون حياته اليومية ، وتتحدد ملامحه الشخصية ويتعرف إلى الصورة الصادقة عن الإسلام الذي حمل لواءه أبطال كرام عظام، فقامت بهم دولة الإسلام قوية مهابة الجانب؛ لأنهم تعلموا وفقهوا أنه دين عبادة وعمل ومصحف وجهاد .

٢. التربية بالملاحظة :

وذلك بملاحظة النمو الجسمي عند الأولاد وإرشادهم إلى اتباع العادات الصحية السليمة في مأكلهم ومشربهم ومنامهم، فقد روى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ تلا قوله تعالى : **﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ﴾**، ثم قال :«**ألا إنَّ القوة الرميُ، ألا إن القوة الرميُ، ألا إن القوة الرميُ**» .

ويمكن أن يلتحق الولد بمركز رياضي لكرة القدم مثلاً، أو يمارس أي نوع آخر من الرياضة مع أبناء الحي أو مع شباب المسجد، وبذلك ينشأ شابًا قويًا يتدفق نشاطًا وحيوية، فقد قال رسول الله ﷺ : «**المؤمنُ القويُ خيرٌ وأحب إلى الله مِنَ المؤمِنِ الضَعِيف . . .**» رواه مسلم .

وأيضًا بملاحظة سلوكه والعمل على تقويمه وفق القواعد التالية :

١- التعريض له في النصيحة بطريق غير مباشر، وهذا الأسلوب يعالج السلوك السيئ الذي قام به الولد دون خدش لمشاعره أمام إخوانه أو الناس الآخرين . مما يحافظ على ثقته بنفسه وبالتالي يعطيه الفرصة ليغير من سلوكه إلى الأحسن .

٢- مجالسة الأبناء، وفتح باب الحوار والمناقشة معهم بكل هدوء وروية، فإن جلوس الوالدين مع الأبناء يقوي روابط الألفة والمحبة بينهم، ويشعر الأبناء بحب الوالدين لهم وحرصهم على تربيتهم وفق الأساليب السليمة التي توافق ميولهم ورغباتهم، وبالتالي يتقبلون النصائح من والديهم بكل صدر رحب، وقلوب محبة للخير .

٣- معالجة الأخطاء التي يقع فيها الأبناء مباشرة؛ حتى لا يتجاوزوا الحدود في ممارسة السلوكيات الخاطئة لظنهم أنها صحيحة ، وقد اتبع رسول الله ﷺ هذه الوسيلة عندما رأى غلامًا تطيش يده في الصحفة -أي: تتحرك في جوانب الإناء- فقال له رسول الله ﷺ : «**يا غُلام سَمِ اللهَ وكُلْ بِيَمِنِك وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**».

٤- توجيه النقد إلى سلوك الولد لا إلى شخصه، حتى لا يؤدي النقد إلى

إحساسه بالإحباط، ويشعر أنه غير مرغوب فيه في البيت، مما يجعله يتمسك برأيه ويعاند أبويه بدل أن يغير من سلوكه إلى الأفضل .

٥- الثناء : إذا قام الولد بعمل يرضي الوالدين يحمد ويشكر على صنيعه ويثنى عليه ، ويكون ذلك بتقبيله أو بالربت على كتفه، فهذا يعطيه القوة والثقة بنفسه أكثر. ولا ضير إذا لجأ الوالدان إلى بذل الحوافز المادية إذا كان السلوك الذي قام به الولد عظيمًا ومميزًا، كأن يحفظ جزءًا من القرآن أو مجموعة من أحاديث الرسول ﷺ ، ولا يعني هذا أن نلجأ إلى الحوافز المادية كلما طلبنا من الولد أن يقوم بعمل معين بل نتبع هذا الأسلوب إذا لم تجد كلمات الثناء والملاطفة .

٦- مراعاة الفروق الفردية بين الأبناء: فلا يجوز للوالدين أن يعقدوا مقارنة بين ابنهم الأكبر والأصغر بقولهم: انظر إلى أخيك فإنه يسمع الكلام ويحصل على علامات ممتازة ، أما أنت فإنك لاتسمع ولا تطيع ولا تحافظ على دراستك ونتائجك ضعيفة في المدرسة، إن مثل هذا الكلام يحطم شخصية الطفل ويقوي السلوك العدواني عنده زيادة على أنه يحقد على أخيه ويتمنى ألاَّ يكون له أخ .

٣ - التربية بالعادة :

إن تعويد وتأديب الولد على مكارم الأخلاق وآداب الشرع أمر سهل ويسير إذا توفرت له البيئة الصالحة والمربي الفاضل، وذلك لأن الطفل يولد صفحة بيضاء، فقد قال رسول الله ﷺ : «**كُلُّ مَولُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَودَانِه، أو يُنصرانِه أو يُمَجِّسَانِه**» رواه البخاري .

وقال الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين :(والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة، فإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك، وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق) .

٤- التربية بالقدوة :

إن انتهاز المواقف لفرصة عظيمة في توجيه الطفل وتربيته. ولقد كان نبينا ﷺ يعلمنا ذلك عندما يجد غلامًا صغيرًا تغوص يديه في طبق الطعام ولا يعرف الأدب

في ذلك، فيوجهه المربي الأعظم محمد ﷺ ساعتئذ ويقول: «**يا غُلام سَمِّ اللهَ وكُلْ بيَمِنِك وكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**». رواه أحمد.

ويحول وجه الفضل بن العباس رضي الله عنه وقد ناهز البلوغ عندما رآه ﷺ ينظر إلى امرأة جميلة. ونقول له: إن الرسول ﷺ فعل ذلك؛ لأن النظر لغير المحارم لا يجوز؛ لأن الله قال: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾ (النور: ٣٠).

وعن ابن عباس قال: ما رأيت شيئًا أشْبهَ باللمم مما قال أبو هريرةَ عن النبي ﷺ: «**إنَّ اللّهَ كتب على ابن آدمَ حَظَّهُ منَ الزنى أدركَ ذلكَ لا مَحالة: فزنى العين النَّظر، وزنى اللسانِ المنطق، والنفسُ تَمَنَّى وتَشتَهي، والفرج يُصدِّقُ ذلك كلهُ ويُكذِّبه**» رواه البخاري.

وهكذا يعلمنا الرسول ﷺ كيف تكون التربية بالمواقف وبانتهاز الفرص ونستطيع نحن أن نفعل ذلك من خلال المواقف التالية:

عطس الولد فنقول له: قل: الحمد لله، وإن عطس أمامه أحد وقال: الحمد لله وقال له: يرحمكم الله، فنقول له: قل له: يهديكم الله ويصلح بالكم، ونقول له: إن النبي ﷺ قال: «**إنَّ الله يُحبُّ العُطاسَ ويكرهَ التثاؤبَ، فإذا عَطسَ فحمدَ الله فحقٌّ على كل مسلم سمعَه أن يشمِّتَه**» رواه البخاري. وعندما يعطس نقول له: ضع يدك على فيك عندما تعطس.

وإن كان على الطعام نقول له: لا تعطس على الطعام ولكن التفت بوجهك في الناحية الأخرى.

وإذا أكل من الطعام ولم يسم له نعلمه آداب الطعام، والتي منها غسل اليدين قبل الطعام وبعده والتسمية عند الأكل وأن يحمد الله عز وجل بعد الفراغ من الأكل.

إذا سب زميله أو أخاه نقول له: ربنا سيغضب عليك ويدخلك النار إن فعلتها مرة أخرى وهل تحب أن يسبك كما سببته؟ ونذكره بحديث رسول الله ﷺ الذي

قال فيه: «**إن من أكبرِ الكبائر أن يَلعنَ الرجلُ والدَيه**». قيل: يا رسول الله وكيف يَلعَنُ الرجل والِدَيه؟ قال: «**يسُبُّ الرجلُ أبا الرجل فيسَبُّ أباه، ويسب أمَّه**» رواه البخاري.

إن أفشى سرًّا يوجه وإن اغتاب أحدًا من زملائه، أو أقاربه فيتعلم أن الغيبة حرام فكأنه يأكل لحم أخيه وهو ميت فهل يـرضى بهذا ؟ ونقول له: إن الله تعالى يقول: ﴿**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا اجْتَنِبوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْم وَلاَ تَجَسَّسوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضكم بَعْضاً أَيحِبُّ أَحَدكم أَن يَأْكلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتموه وَاتَّقوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّاب رَّحِيم**﴾ (الحجرات:١٢)، ونقول له: إن الغيـبة من القبائح الاجتمـاعية التي لا يليق بالمؤمنين أن يرتكبوها فيغتاب بعضهم بعضًا، وقد حرمها الله ونهى عنها لما فيها من تقطيع أواصر الأخوة الإيمانية وإفساد المودات وبذر العداوات؛ وذلك لأن الغيبة في الغالب لا تبقى سرًّا بل يصل العلم بها لمن ذكـر في غيبتـه بما كره فقل في الناس من يكتم حـديثًا، وعندئذ يغضب ممن ذكره ويحقد عليه وينتقم منه بمثل عمله أو بأقبح منه.

عندما يرمي شيـئًا من الشباك يتعلم أن النظـافة من الإيمان نقول له : هل ترضى أن يرمي أحدٌ شـيئًا مثلمـا فعلت ؟ ونقول له: الرسـول ﷺ يقول: «**إنَّ الله طيِّبٌ يُحِبُّ الطِّيبَ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ، كَرِيمٌ يُحِبُّ الكَرَمَ جوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ**» رواه الترمذي.

إذا خلع الولد ملابســه أمام أحد فيـوجه إلى ذلك، وأنه لا يخلع ملابســه حتى أمام الرجال مثله وكذلك البنات .

دخل عليك ابنك وتكلم فـعلمه أن يستـأذن قبل الدخول ويطرق البـاب وعندما يدخل يسلم حـتى ولو من حجرة داخـل البيت .وتقول له: لأن الـله يقول: ﴿**وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ منكُمُ الحُلُم فَلْيَستَأْذِنوا كَمَا استَأْذَنَ الَّذينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾(النور:٥٩) .

عندما يرفع صوته نذكره أن هذه الصفة من صفـات الحمار : فالحمار صوته عال قبيح وليس الإنسـان المؤدب.ونقول له: لأن الله يقول: ﴿**وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ**﴾ (لقمان:١٩).

إذا نام على بطنه نعرفـه أن هذه نومة أهل النار ونومة تغـضب الله، وكذلك إذا جلس في وسط الحلقة والناس جالسون .

إذا نفخ في الشراب الساخن نعلمه أن هذا شيء يضـر بالصحة كما علمنا بذلك الرسول ﷺ .

إذا بصق على الأرض نعلمه اسـتعمال مـنديل؛ لأن النظافة من الإيمان وأنه لابد من الوقاية من الأمراض بعدم فعل ذلك ويمكن أن نقول له : هل تحب أن يفعل ذلك في بيتك وفي حـجرتك ؟ ونقول له: إن رسـولنا الكريم يقول: «**إِنَّ الله طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبَ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ**» رواه الترمذي

إذا دخل عليك وعندك ضيوف وطلب منك أو منهم مـالاً فعلمه أن يطلب منك وحدك ولا يسمع أحدًا، وأن يختار الوقت المناسب للطلب ولا تجعلهم يعطونه ؛ لئلا يتعود على ذلك.

إذا دخل على أحد يجلس معك ولم يسلم فعلمه أن يسلم عليهم ويصافحهم .

إذا تثاءب ولم يضع يده على فيه تعلمه أن الشيطان يضحك منه؛ فيجب أن يضع يده على فـيه ولا يحـدث صوتًا عند التـثاؤب لقـوله ﷺ : «**إنَّ الله يُحبُّ العُطاسَ ويكرهَ التـثاؤبَ، فإذا عَطَـسَ فحمـدَ الله فحقٌّ على كل مـسلم سمـعَه أن يشـمِّتَـه. وأما التثاؤب فإنما هـو منَ الشيطان. فلْيَرُدَّه ما استطاع، فإذا قـال: ها ضَحِكَ منه الشيطان**» رواه البخاري.

إذا أخذ شيئًا ليس له فاسأله عنه وعلمه ألا يأخذ ما ليس له .

إذا رأى طعامًا على الأرض لا يعـرف نظافته وسلامته فأكله فـعلمه الصواب في ذلك .

إذا رأيته يشـرب بشماله فقل له: المسلمـون يشربون باليمين، والشرب بـالشمال خطأ ؛ وربنا سيـحبك لو شربت باليـمين . ونقول له: لأن الشـيطان يأكل ويشرب بشماله.

إذا دخل المسجد ليصلي فتحرك أو نظر يمينًا وشمالاً نقول له: إن الصلاة لا يفعل فيها المصلي ذلك وإنما لا يلتفت إلا عند التسليمتين فقط.

إذا صاحب طالبًا مدخنًا ننصحه بالبعد عنه؛ لأن التدخين رذيلة خلقية وعادة قبيحة، وقد يعوّده ذلك المدخن على شرب الدخان.

ونقول له حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: «**إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ. فَحَامِلُ الْمِسْكِ، إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً. وَنَافِخُ الْكِيرِ، إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**» رواه مسلم.

إذا مشي معك في طريق ووجدت حجرًا أو زجاجًا ملقى عليه فارفعه ونحه جانبًا، وعلمه أن رفع هذا الأذى عن طريق الناس يعطي الله عليه حسنات؛ لقوله ﷺ: «**إماطةُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**» رواه أبو داود.

إذا كان معك وسمعته يردد بعض مقاطع من أغنية فقل له: إن الغناء الذي يصاحبه المعازف حرام ولكن عليك بذكر الله سبحانه؛ لأن الله يقول: ﴿**وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**﴾ (العنكبوت:٤٥). وقال جل شأنه: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ**﴾ (البقرة:١٥٢).

وقال تباركت أسماؤه: ﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ**﴾ (الأعراف:٢٠٥). وقال جلت قدرته: ﴿**وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (الجمعة: ١٠). وقال جل في علاه: ﴿**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾ (الأحزاب: ٤٢). ونذكره ببعض الأحاديث النبوية الواردة في ذلك: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**» متفق عليه. وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ، لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ**

الْحَمْد، وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيء قَدير في يَوم مَائة مَرة كَانَتْ لَهُ عدلَ عَشْر رقَاب وكُتبَتْ لَهُ مَائَةُ حَسَنَةٌ ومُحيَتْ عَنْه مائة سيئَة، وكَانَتْ لَهُ حرْزًا منَ الشَّيْطَان يَوْمَهُ ذَلكَ حَتَّى يُمْسي ولَمْ يَأْت أَحَدٌ بأَفْضَلَ ممَّا جَاءَ به إلاَّ أَحَدٌ عَملَ أَكْثَرَ منْ ذَلكَ» رواه البخاري.

وقال ﷺ : «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ الله وَبِحَمْده في يَومٍ مَائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وإنْ كَانَتْ مثْل زَبَد البَحْرِ» متفق عليه .

العادة تحكم العبادة :

إن منهج الإسلام في إصلاح الصغار قد اعتمد على شيئين أساسيين:

أحدهما: وهو الجانب النظري وكان التلقين. والآخر: وهو الجانب العملي وتمثل في التعويد .ولما كانت قابلية الطفل وفطرته في التلقين والتعويد أكثر قابلية من أي سن آخر، كان لزامًا على المربين من آباء وأمهات ومعلمين أن يركزوا على تلقين الولد الخير وتعويده عليه منذ نشأته. ولقد كانت نصيحة الإمام الغزالي خير دليل على ذلك عندما نصح قائلاً: «والصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة فإن عُوِّد الخير وعلمه؛ نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة» .

وصدق الشاعر حين قال :

وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الفتيَانِ فينا عَلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ
وَمَا دَانَ الفَتَى بحجَا ولَكِنْ يُعَوِّدُهُ التَّدَيُّنَ أَقْرَبُوهُ

ولذلك قالوا :(العلم في الصغر كالنقش في الحجر)

وكذلك قالوا : (العادة تحكم العبادة؛ فالذي لم يتعود الصلاة مثلاً منذ صغره تجدها ثقيلة عليه في الكبر، ومن لم يتعود تلاوة القرآن منذ صغره يثقل عليه حمل المصحف فضلاً عن تلاوته عندما يتقدم به العمر فالعادة حقًا تحكم العبادة .

يقول الشيخ ناصح علوان في كتابه القيم (تربية الأولاد في الإسلام): (إن التربية بالعادة والتأديب هي من أقوم دعائم التربية ومن أمتن وسائلها في تنشئة الولد

إيمانيًّا وتقويمه خلقيًّا ؛ ذلك لأنها تعتمد على الملاحظة والملاحقة وتقوم على الترغيب والترهيب . . ولا شك أن تأدب الولد وملاحقته منذ الصغر هي التي تعطي أفضل النتائج وأطيب الثمرات بينما التأديب في الكبر من المشقة لمن يريد الكمال والأثر ورحم الله من قال :

قَدْ يَنْفَعُ الأَدَبُ الأَوْلادَ فِي صِغَرٍ وَلَيْس يَنفَعُهُمْ مِنْ بَعْدِه أَدَبُ
إِنَّ الغُصُونَ إِذَا عَدلْتَهَا اعْتَدَلَتْ ولا يَلِينُ لَوْ لَيَّنْتَهُ الخَشَبُ

وإذا فتشت في نفسك - عزيزي الأب المربي - ستجد أنك قد تعودت منذ صغرك كما تعودنا جميعًا على خصال يصعب علينا الآن تركها؛ فمن تعود ثلاث وجبات في اليوم لا يسيغ له أن يأكل الرابعة وجبة زائدة بين كل وجبة، ومن تعود الصلاة لايمكن أن يتخلى عنها ويتركها أبدًا مهما ساءت ظروفه أو انشغل عنها .

ومن وسائله ﷺ في ذلك التعليق على الموقف سواء أكان تأييدًا أم تسديدًا . ومن الوسائل ربط الموقف بقضايا أخرى، كما قال حين رأى امرأة من السبي تبحث عن ولدها: «**الله أرحم بهذه من ولدها**». والحديث بطوله رواه البخاري عن عمرَ ابن الخطاب رضي الله عنه قال: «قَدِمَ على النبيِّ ﷺ سَبيٌ، فإذا امرأةٌ من السبي تحلب ثَديَها تَسقي، إذا وَجدَت صَبيًّا في السبي أَخذَته فألصقَتْه ببطنها وأرضَعَتْه. فقال لنا النبيُّ ﷺ : «**أترَونَ هذه طارحةً ولَدَها في النار؟**» قلنا: لا، وهي تَقدِر على ألاَّ تَطرَحهُ. فقال: «**اللهُ أرحمُ بعبادِه من هذه بولَدِها**».

ولما رأى الجدي الأسك قال: «**الدنيا أهون على الله من هوان هذا عليكم**» والحديث بطوله رواه مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْد اللّه، أَنَّ رَسُولَ اللّه مَرَّ بالسُّوق، دَاخلاً منْ بَعْضِ الْعَالِيَة، وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ. فَمَرَّ بجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّت. فَتَنَاوَلَهُ فَأَخذَ بأُذُنه. ثُمَّ قَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بدرْهَم؟**» فَقَالُوا: مَا نُحبُّ أَنَّهُ لَنَا بشَيْءٍ. وَمَا نَصْنَعُ به؟ قَالَ: «**أَتُحبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟**» قَالُوا: وَاللّه لَوْ كَانَ حَيًّا، كَانَ عَيْبًا فيه؛ لأَنَّهُ أَسَكُّ. فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: «**فَوَاللّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللّهِ، مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ**». إلى غير ذلك .

ومن الوسائل إتاحة مواقف عملية تربي الناس، ولعل الميادين العملية التي ربّى فيها النبي ﷺ أصحابه من خلال إرسالهم لمهام دعوية، ومن خلال تكليفهم بالتعليم، والجهاد كل هذه الأمور كان لها أثر كبير في تربية الناس.

٥- التربية بالعقوبة:

وإذا اتبعنا هذه الأساليب ولم ننجح فيها فلابد حينها من اللجوء إلى العقاب ولا يعني العقاب الضرب، فقد يكون بالتوبيخ أو التعزير أو بالمقاطعة فإن للمقاطعة فوائد؛ حيث تشعر الولد بالذنب وبالتالي سيعمد إلى تعديل سلوكه، والمقاطعة تكشف للوالدين مدى اهتمام الابن وحرصه على رضاهما . وقد يكون العقاب بحرمان الولد من أشياء يحبها من نشاطات وألعاب، وقد يكون العقاب بالإهمال وعدم إلقاء البال للسلوك السيء الذي يقوم به الولد؛ لعله يكتشف خطأه بنفسه ويتعلم السلوك الصحيح دون تنبيه الوالدين له، وآخر الدواء الكي وهو أن يلجأ الأب أو الأم إلى الضرب غير المبرح ذلك بعد التهديد والوعيد لإحداث الأثر المطلوب في تقويم سلوك الطفل .

ويجب أن يكون العقاب فقط في حالة تكرار الأخطاء، وأن يكون على قدر الذنب؛ فلا يجوز إيقاع العقاب القاسي على خطأ بسيط، ولا يجوز أن نأمر أبناءنا بأمر لا يطيقونه فيعجزوا عن القيام به ثم نعاقبهم على ذلك؛ فالحكمة تقول: «إذا أردت ان تطاع فأمر بما يستطاع».

ويجب أن يكون الهدف من العقاب هو تصحيح خطأ الأبناء وليس لمجرد رغبة الأب أو الأم في فرض شخصيته عليهم وممارسة أسلوب التسلط والعنف ضدهم . فكما قال الشاعر :

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا   فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

وقد اتفق علماء التربية السابقون والمعاصرون على أن أثر العقاب في التربية والتعليم أضعف من أثر الثواب، وأن أثر العقاب مؤقت بينما أثر الثواب مستمر، فقد

روى مسلم عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله بعثه ومعاذًا إلى اليمن وقال لهما: «يَسِّرَا ولا تُعَسِّرَا وعلِّما ولا تُنَفِّرا».

وقرر ابن خلدون في مقدمته أن القسوة في التربية نتائجها وخيمة فقال: «إن من يعامل بالقهر يصبح حملاً على غيره، فهو عاجز عن الذود عن نفسه وشرفه وأسرته؛ لخلوه من الحماسة والحمية، فقد كان مرباه بالعنف والقهر فهو قد تعود الذل والخنوع، ولذلك صارت له هذه عادة وخلقًا وفسدت معاني الإنسانية التي لديه».

وكم تكون حكمة الوالدين عظيمة وبالغة عندما يستعملان العقوبة في وقتها المناسب ويضعان الملاطفة والثناء في المكان الملائم أيضًا. ويجب أن يتفقا على أسلوب موحد في التربية حتى تؤتي ثمارها وإذا اختلفا فإن جهودهما ستذهب هباءً منثورًا.

وكما قال الأحنف بن قيس عندما سأله معاوية عن الولد قال: { ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، ليمنحوك ودهم ويحبوك جهدهم، ولا تكن ثقيلاً فيملوا حياتك ويحبوا وفاتك }.

وقد يتبع الأبوان كل أساليب التربية والتوجيه ورغم ذلك ينشأ أبناؤهم على خلاف ما يريدون فما هو السبب يا ترى؟

١- لعل الوالدين كانا يعاملان الابن بقسوة وشدة في كل حين فيعنفانه ويضربانه حتى على الذنب الصغير وهذا خلاف ما أرشدنا الله تعالى إليه حيث قال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:٥٩).

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله» رواه البخاري.

وقال أيضًا: «إذا أَرَادَ اللهُ بِأَهْلِ بيت خَيرًا أدخل عليهم باب الرفق؛ فإن الرفق لم يكن في شيء قط إلا زانه، وإن الخرق لم يكن في شيء قط إلا شانه...، وإن الفحش من الفجور، وإن الفجور في النار، ولو كان الفحش رجلاً لكان رجلاً سوءًا» رواه البيهقي.

وقال رسـول الله ﷺ : «**الرَّاحِـمُون يَرحَـمُهُم الرحـمن، ارحمـوا من في الأرض يَرْحَمكُم منْ في السَّمَاءِ**» رواه أبو داود والترمذي. فكونـي أختي الأم رفيقة رحـيمة بأولادك، وجالسي صغيـرهم وكبيرهم ، الذكر منهم والأنثى ، لتعرفي كل ما يجول في خواطرهم ، وليتعلموا الجرأة في الحـديث والقدرة على الحوار والمناقشة ، حتى لا يلجؤوا إلى غيرك ويقعوا فيما لا تحمد عقباه فتخسريهم .

٢- كثـرة الشقاق والنزاع بين الأبوين عـلى مسمع من الأولاد فـإن ذلك يجعل شخصية الأبناء مضطربة قلقـة فهم في خوف دائم من ابتعاد أحد الأبوين عنهم ، لذا فهم يقضون معظم أوقاتهم خارج البيت حتى لا يسمعوا شجار أبويهم، مما يضطرهم لمصاحبة من يكون أمـامهم دون الاهتمام بموضوع الدين والأخلاق فيجـرفهم التيار ، ويلتفت الأبوان بـعد فوات الأوان ليـجدوا أبناءهم وقد حـادوا عن الطريق المستـقيم ولات حين مندم ،وقد يكون اخـتلاف الأبوين في أسلوب التربية هو سـبب انحراف الأبناء .

٣- وقد يهـتم الوالدان بأبنائهم إلى درجـة أنهم يحقـقون لهم كل مـا يريدون، ويوفرون لهم أسباب الراحة والسعادة حـتى لا يشعر الأبناء بالحرمان من شيء ما في حيـاتهم، وتأتي النتائج عـلى عكس ما يريدون، فقـد نسي الوالدان أن كثـرة التنعم والدلال والراحة يؤدي إلى الفراغ والخواء الروحـي الذي يؤدي إلى جعل الأبناء غير قادرين على الاعتماد على أنفسهم في تحقيق ما يريدون في المستقبل .

فقد قـال رسول الله: «**إياكَ والتنعم فـإنَّ عباد اللـه ليسوا بالمتنعمين**» رواه الإمام أحمد، وقال الشاعر :

إنَّ المـالَ والفَـــراغَ وَالجَـــدَةَ   مَفْسَـدَةٌ للشَّبَابِ أيُّ مَفْسَدَة

ونسي الوالدان أن النفس إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر، وعليهم أن يشغلوا أوقات فـراغ الأبناء بما يفـيدهم ، وذلك إما بـإلحاقهم بالـنوادي الرياضيـة أو المراكز الثقـافية، لتـعلم اللغات مـثلاً، أو أخذ دورات تعليـمية لمواكـبة التطورات العلمـية

والتكنولوجيـة، وكذا الفتيـات فإنَّ الأم الواعيـة لا تترك ابنتها دون أن تستغل وقت فراغها، بأن تلحقها بمركز ثقـافي لتتعلم دورات في التجويد مثلاً، أو دورات للتعلم على جهاز الحـاسوب، أو الإنترنت ، أو دورة في تعليم الخياطة والحـياكة ، أو تعلم فن صنع الورود أوالتطريز مـثلاً ، والفتـاة بحاجة أيضًـا إلى أن تتعلم كيـفية القـيام بأعمال المنزل من طهي وتنظيف وترتيب، والقدرة على مـجاملة الآخرين حتى تكون ربة بيت ناجحة في حياتها، وهذه الأمور منوطة بالأم فعليها ألا تهملها .

٤- وقد يكون سـبب انحراف الأبناء هو مـفاضلة الأبوين بـين الأولاد، فيكون الاهتمام بأحـد الأبناء على حساب الآخرين، مما يوغر صدور إخـوته عليه فيكرهونه ويحبون التخلـص منه، وقـد أرشدنا رسول الله ﷺ فقـال : «**سـاووا بين أولادكم في العطيـة**». رواه الطبراني

وقـال أيضًا: «**اتقوا الله واعدلوا في أولادكم**» رواه البخاري ومسلم .

مرحلة التربية في سن المراهقة والشباب:

وإذا بلغ الأبناء سن المراهقـة فعلى الأب والأم أن يكونـا أكثر تـفهمًـا لحالتـهم النفسـية والفكرية والعاطفـية، فـيجب غرس الثقـة في نفوسهم وإعطاؤهم الفـرصة للتعـبير عمـا يجول في خاطرهم، وإفسـاح المجال أمامهم للقـيام بأعمال تشـعرهم بقدراتهم الشخصية وإدراكهم لشؤون الحياة معتمدين على أنفسهم .

ولابد من الانتباه إلى التغـيرات الفسيولوجية التي تظهـر على الشاب والفتاة في هذه المرحلة، فمظاهر الرجولة قد ظهرت على الشـاب من النواحي الجسمية والفكرية والنفسـية، فهو يعـمد إلى إثبات ذاته عن طريق إبداء رأيه في أمـور الحياة اليومـية، ويتـصرف ليلفت النظر على أنه قـادر على الاستـقلال برأيه وذاتـه . وكذلك الفـتاة تعتريها تغـيرات فسيولوجية مـختلفة، فهي دائمة الخجل والانزواء أحـيانًا أو الشعور بالاعتـزاز بالنفس أحيـانًا أخرى ، وتشعـر أنها أصبحت قـادرةً على تدبير أمـورها وممارسة نشاطاتها الاجتماعية لوحدها بكل ثقة وثبات .

ومرحلة المراهقة في عصرنا الحالي تعد من أخطر المراحل التي يمر بها الشباب فالشعور بالقلق والاضطراب الدائم الذي يسيطر على أذهانهم ، وكثرة التساؤلات التي تتردد في صدورهم دون أن يجرؤ أحدهم على البوح بها لغيره ، وتسهم طبيعة المجتمع الذي نعيشه في زيادة هذه المشاعر، فهذا السفور والتبرج وهذا الاختلاط بين الجنسين، ووسائل الإعلام المختلفة من مجلاتٍ وجرائد وتلفاز وفضائيات وإنترنت، كلها يسيطر عليها الفحش والفجور والابتذال ولها الأثر الكبير في إثارة شهوات الشباب وعواطفهم .

ولابد أن تلفتِ الأم نظر الأب إلى الابن ، فهو بحاجة إليه ليشعره برجولته وقدرته على خوض غمار الحياة بنفسه فيشجعه على ذلك، ويتعامل معه على أساسٍ من التقدير والاحترام .

وإذا لم نستمع نحن لأبنائنا في بيوتنا ولم نصغ إليهم في كل ما يسألون عنه وإبداء النصح لهم أثناء مواجهتم لمشكلات الحياة و مشاركتهم في إيجاد الحلول المناسبة لما يعترضهمّ من صعوبات؛ فسوف يلجؤون إلى من يستمع إليهم خارج البيت، ويخالطون من هَبَّ وَدَبَّ من أصحاب الشهوات الذين يتلقفون الشباب والفتيات؛ فيزينون لهم سوء الأعمال ويغرونهم بقليل من المال حتى يسقطوهم في شباك عصابات المخدرات والسرقات والجرائم اللاأخلاقية عن طريق الاختلاط المحرم. وبعد هذا الانحراف يصحو الشاب من غفلته ليجد نفسه وقد غرق في مستنقع الرذيلة من حيث لا يدري؛ فينغلق على نفسه ويكره كل ما حوله، ويعتريه الضعف والهوان .

وقد يقال : لماذا هذه الضجة حول مرحلة المراهقة ؟ وقد كانت في عصور الإسلام تمر كأيّ مرحلة من مراحل العمر . والسر يكمن في طبيعة الحياة،حيث إن الشريعة الإسلامية كفلت لكل فرد العيش بهدوء واطمئنان نفسي في مجتمع مسلم ملتزم بأحكام الشرع ، فلا اختلاط ولا سفور ولا فضائيات تتولى عرض الجرائم التي تؤثر سلبًا على سلوكيات الشباب، فمثلاً قضية الشهوات قد عالجها الرسول ﷺ

فقال: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء**» رواه الشيخان .

ولا ننسى أن الشاب إذا نشأ في طاعة الله منذ صغره؛ فإن نداء الفطرة يصرخ في داخله ويحذره من مغبة الانسياق وراء الشهوات وأصدقاء السوء .

قال الدكتور؛ ألكس كارليل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول): (عندما تتحرك الغريزة الجنسية لدى الإنسان تفرز نوعًا من المادة تتسرب بالدم إلى الدماغ وتخدره فلا يعود يقدر على التفكير السليم).

ويكاد رجال التربية وعلماء النفس قديمًا وحديثًا يجمعون على أن الظواهر اللاأخلاقية كالجنس والإباحية هي أفتك بالجسم من الأوبئة، فهي تحطم الشخصية وتقتل الرجولة، وتقضي على الشرف والعفاف .

وقد أدرك المستعمرون هذا العامل وقدرته على إفساد الجيل فقال أحدهم : (كأس وغانية تفعلان في تحطيم الأمة المحمدية أكثر مما يفعله ألف مدفع؛ فأغرقوها في حب المادة والشهوات).

وقالوا :(يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا على الشباب، وسنبقى نعرض العلاقات اللاأخلاقية في ضوء الشمس ، لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسيه)[١].

وفي هذه المرحلة يجب أن نلفت نظر الأبناء إلى الأمانة الكبرى التي عهد الله بها إلى بني البشر، وهي أنهم خلفاء الله في أرضه وعليهم أن يمكنوا لتحكيم شريعته في قضايا المجتمع المعاصر على أكمل وجه . ولا بد من توجيه عقولهم للاهتمام بقضايا الأمة العامة في كل بلاد المسلمين ، ويجب غرس حب العلم في نفوسهم وأن يكون طلبه خالصًا لوجه الله تعالى، وأن العلم يجب أن يتبعه العمل ، فقد ربط العلم بالعمل في معظم الآيات التي تتحدث عن الإيمان في القرآن الكريم

---

(١) «تربية الأولاد في الإسلام» (٢/ ٨١٠-٨١١).

فقال تعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر: ١ - ٣].

فالعلم والعمل متتابعان وإن العلم هو الذي يعمل على الارتقاء بالأمم إلى سلم المعالي ، فلا يجوز أن يكون العلم سببًا في إبعادهم عن كتاب الله وسنة رسوله، خاصة وأن الجامعات عندنا فيها الكثير من الإغراءات التي تؤدي إلى انحراف الشباب عن جادة الحق والصواب . لذا يجب تذكيرهم بأن يحرصوا على اتخاذ الرفقة الصالحة عند دخولهم الجامعة فهي منعطف خطير في حياة الفرد . فقد قال تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:٦٧).

وقال رسول الله ﷺ : **«المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»** رواه الترمذي . وقال الشاعر :

تَمَسَّكْ إِنْ ظَفَرْتَ بِذَيْلِ حُرٍّ فَإِنَّ الحُرَّ فِي الدُّنْيَا قَلِيلُ

ولابد من تنبيه الشباب إلى المخططات الاستعمارية ضد الإسلام والمسلمين فهذا المبشر «زويمر» أشهر مبشر في بلاد الإسلام يقول لتلاميذه :(إنكم أعددتم نشأً في ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام، ولم تدخلوه في المسيحية وهذا ما نريده ؛ لأن المسيحية تشريف له فهو جيل لا يهتم بعظائم الأمور ويحب الراحة والكسل)[1].

دور الإعلام وأثره في عملية التربية:

وأما وسائل الإعلام المنتشرة في عصرنا الحالي من التلفاز إلى الفيديو إلى الإنترنت فهي سلاح ذو حدين، فإذا وجهت توجيهًا سليمًا فإنها تكون وسيلة خير لا شر، وإذا لم توجه فإنها خطر عظيم يداهم بيوتنا ويلعب دورًا كبيرًا في نشر الفساد، والانحلال الخلقي في المجتمع .

---

(١) «الغارة على الإسلام» (ص٤٧).

ويُعتبرُ الإعلام مصدراً أساسيًا لنقل المعلومات والحقائق الثابتة للناس؛ لتكوين فكر صائب حول قضية من قضايا الأمة المعاصرة ، وعلى هذا لابد من معلم له القدرة على الإبانة والتأثير في النفوس ، واستشعار المسؤولية العظيمة اتجاه الأمة عن طريق استخدام التقنيات الحديثة في إيصال المعلومات ، والأهم من ذلك هو توظيف هذه التقنيات في التعبير عن حال الأمة والإسهام في المهمة التربوية؛ للارتقاء بالفرد والمجتمع إلى الآفاق الفكرية الواعية ، وعلى هذا يجب أن تكون قيادات الإعلام من أرقى الشخصيات العلمية ،من المتفقهين في الدين القادرين على استنباط الأحكام الشرعية للقضايا الإعلامية المعاصرة والمستجدة؛ لأن الإعلام هو صانع الأمة وسفيرها المعبر عن رسالة الإسلام ونشر تعاليمه إلى الأمم الأخرى .

وللأسف الشديد فإن أمة الإسلام تعاني من أزمة إعلامية؛ فهي عاجزة عن تقديم صياغة جديدة لنماذج ومواضيع تتوافق مع أصالتها الدينية. فهي في مكان التلقي والاستهلاك واستيراد المواد الإعلامية من الغرب دون التفريق بين الغث والسمين ودون الالتفات إلى خطورة التقليد لأفكار الغير، وتأثيره على تربية الجيل الناشئ .

قال المختصون في مجال الإعلام: إن الأمة التي لا تخطط لصياغة إعلامها وفق تراثها ومعتقداتها هي أمة فاشلة تحتاج إلى من يقودها، وبالتالي ستكون تبعًا لغيرها فلا تستطيع أن تتحكم وتضبط ما يعرض على وسائل إعلامها .

وقالوا : الإعلام هو المدخل الثقافي إلى الجماهير، وإن عشرة من الإعلاميين المهرة يفوق تأثيرهم في المجتمع مليون كتاب .

وحيث إن الإعلام وسيلة خطيرة في توجيه الرأي العام العالمي وله دور كبير في تكوين القناعات والآراء السياسية والفكرية؛ فهو يستطيع تحويل الضحية إلى قاتل والقاتل إلى ضحية وما حال الإعلام في بلادنا العربية عن ذلك ببعيد .

يجب على الأمة المسلمة أن تعمل على إعداد الكوادر البشرية في هذا المجال

لضمان سيطرتها وتحكمها في جهاز الإعلام؛ لترجع له دوره في العملية التربوية والتنمية الحقيقية للأمة، عن طريق توظيف سائر التقنيات الحديثة لخير البشرية وامتلاك القدرة على التخطيط والتطهير والتنقية لكل ما يعرض ويذاع في أجهزة ووسائل الإعلام العصرية، ابتداءً من الفقرات الترفيهية إلى القضايا السياسية الساخنة وذلك بالكلمة الطيبة والوسيلة النظيفة؛ لإعادة بناء الإنسان وتخليصه من براثن الأفكار السقيمة والأفلام الهابطة والمجلات المبتذلة والمسرحيات الماجنة .

ولا بد أن تتعاون كافة وسائل الإعلام المختلفة من تلفاز وإذاعة وصحافة مع المسجد والمدرسة والمؤسسات التعليمية الأخرى؛ للارتقاء بالفرد والمشاركة في عملية تربيته وبناء شخصيته المميزة على أساس من الدين والخلق .

وحتى لا يكون هناك اختلاف في سياسة الأمة في توجيه الأجيال الناشئة ، يجب أن يكون الإعلام هادفًا وإلا سيكون هناك من يبني وغيره يهدم مما يؤدي إلى بقاء أمة الإسلام في ذيل الأمم كما قال الشاعر :

مَتي يَبْلُغُ البُنْيَانُ يَوماً تَمَامَهُ إذَا كُنْتَ تَبْنِيه وَغَيرُكَ يَهْدِم
فَلَو ألفُ بَانٍ خَلْفَهُم هَادِم كَفَى فَكَيْفَ بِبَانٍ خَلْفَهُ ألفُ هَادِمِ؟

وحتى يمن الله علينا بإعلام إسلامي هادف وموجه نحو الخير، على المربين من آباء وأمهات أن يعملوا على ترشيد وتقنين مشاهدة ما يعرض في وسائل الإعلام وتوعية الأبناء إلى قيمة الوقت في حياة المسلم، وأنهم مسؤولون عنه أمام الله تعالى يوم القيامة فقد قال الله تعالى : ﴿**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً**﴾ (الإسراء:٣٦).

ولذلك يجب على الأم أن تشجع الأبناء على الاستفادة من هذه الوسائل بزيادة معلوماتهم الدينية والثقافية والعلمية ، وأن يسخروا ما فيها لخدمة الدعوة إلى الله تعالى ، فمن كان يدرس الطب مثلاً وجب عليه أن يتابع ما يستجد من الاكتشافات الجديدة التي تساعد على مكافحة الأمراض والانتصار عليها ، والقضاء

على جهالة البشر فيما يتعلق بمعرفة وظائف الأعضاء في جسم الإنسان، ثم لابد من التحلي بآداب الإسلام في التعامل مع المرضى من حيث الإحساس بآلامهم والتخفيف عنهم بزرع الأمل في نفوسهم ، وأن الشفاء حاصل بإذن الله والإحسان إلى الفقراء منهم ؛ وليكن علم الطب طريقًا لإدخال الإيمان بالله إلى قلوب الضعفاء والمرضى، ولفت أنظارهم إلى قدرة الله عز وجل على شفائهم ، وإنه على كل شيء قدير .

ولنتعلم من البعثات النصرانية التي كانت تأتي إلى بلاد العرب عند حدوث النكبات والكوارث من حروب مثلاً أو زلازل فقد كانوا هم أول القادمين إلى بلاد العرب لتقديم المساعدات الإنسانية من تطبيب ومداواة الجرحى ، ومن خلال التعامل مع المحتاجين والمرضى يقومون بنشر ما يريدون من أفكار .

فقد عمد المستعمرون إلى عقد المؤتمرات التبشيرية، وقرروا أن يكون لهم في كل بلد مسلم بعثة طبية تبشيرية، وفي أحد المؤتمرات قام الدكتور «آراهاس» طبيب إرسالية التبشير في طرابلس فقال : إنه قد مرَّ عليه اثنان وثلاثون عامًا في مهنته فلم يفشل إلا مرتين، وأورد إحصاءً لزبائنه فقال : إن ٦٨٪ منهم مسلمون ونصفهم من النساء وفي أول سنة جاء فيها بلغ عدد زبائنه ١٧٥ وفي آخر سنة كان عددهم ٢٥٠٠ وختم كلامه قائلاً : (يجب على طبيب إرساليات التبشير ألاَّ ينسى ولا في لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شيء ثم هو طبيب بعد ذلك)[١] .

وعلى الأم تفهيم الأبناء بأن الجامعات التي يتعلمون فيها هي الوجه الحضاري المشرق للبلد، فبقدر ما يتمسك الشباب بأخلاقهم وقيمهم الإسلامية بقدر ما ترتفع جامعاتهم وتأخذ مكانتها بين الجامعات الأخرى في العالم .

ويجب التركيز على ضرورة تميز شخصية الأبناء، واعتزازهم بعقيدتهم خلال حياتهم الجامعية، فلا يجوز لهم أن يقلدوا الغرب في ملبسهم أو مظهرهم أو عاداتهم

---

(١) «الغارة على الإسلام» (ص٦٢).

وتقاليدهم؛ لأن ذلك يؤدي إلى فقدان شخصيتهم وهويتهم الإسلامية فقد قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من تشبه بغيرنا ولا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى» رواه الترمذي .

وللأسف الشديد فإن جامعاتنا مليئة بمثل هؤلاء الشباب والفتيات الذين يقلدون الغرب في مظاهرهم ، فهذا شاب يطيل شعره ويتشبه بالفتيات، وذاك يقصره ويرتدي قميصًا عليه صورة لأحد الفنانين أو المطربات ، وأما الفتيات فحدث ولا حرج فقد اتخذن من الممثلات الغربيات قدوة لهن في اللباس والسفور والمكياج الصارخ الذي يغضب الله تعالى ، وكل هذا يهون أمام المناظر التي نراها من صور الاختلاط السافر بين الشباب والفتيات بطريقة لا توحي أبدًا بأنهم يعيشون في مجتمع مسلم له قيمه وأخلاقه التي تميزة عن غيره من المجتمعات .

فكيف يقضي الشباب المتدين والفتيات الملتزمات سنوات الدراسة في مثل هذه الأجواء التي تعج بالفتن والشهوات ؟

والأم الواعية تبين لأبنائها أن المسلم قادر بإيمانه وتقواه أن يرتفع بنفسه عن عالم الشهوات فهو يوقن أن الله يعلم السر وأخفى ولذا فإن قلبه ولسانه رطب بذكر الله دائمًا . وتبين لهم أن مكانة طالب العلم عند الله عظيمة وأن له احترامًا في المجتمع خاصة إذا كان متمسكًا بإيمانه وعقيدته فقد قال رسول الله: «فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب» رواه أبو داود والترمذي .

وقال ﷺ أيضًا : «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء» رواه أبو داود والترمذي .

وعلى الأم أن توقن بأنها قادرة على صياغة أبنائها بالطريقة التي تريد وتستعين بالله تعالى لتحقق ما ترنو إليه من خلال العملية التربوية.

فهذه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها تضرب لنا المثل الأعلى للأم التي ترشد ابنها إلى الصواب عندما جاءها ولدها عبد الله بن الزبير رضي الله عنه يسألها النصيحة ويقول :

(ياأماه خذلنــي الناس حتى ولدي وأهلي، ولم يبقَ معي إلا اليسـير، ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، فقالت له: إن كنت على حق وإليه تدعو فامض له، وإن كنت تريد الدنيـا فبئس الـعبد أنت، أهلكت نـفسك وأهلكت من قـتل معك، فقـلت: لمّا وهن أصحـابي ضعـفت فهـذا ليس فعل الأحـرار ولا أهل الدين، فكم خلودك في الحياة الدنيا؟ القتل أرحم يا ولدي.

قال عـبد الله: هذا والله رأيي يا أمـاه ولكني أخاف أن يقتـلني أهل الشام وأن يمثلوا بي ويصلبوني فأجابته : يا بني امض لما أنت عليه فماذا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟!).

وهذا الإمام محمد بن إسماعيل البـخاري، صاحب أصح كتاب بعد كتاب الله عز وجل كان ثمار تربيـة أم نذرت نفسها لتربية ابنها بعد وفـاة زوجها، فقد خططت لابنها أن يكون عالـمًا يشار إليه بالبنان، ولكن عائقًا كبيرًا كان يقف أمام تحقيق هذا الحلم العظيم . إن هذا العـائق هو كون ولدها ضريرًا منذ صـغره فمـاذا تصنع حتى تستطيع أن ترى ابنها على الصورة التي تريد ؟

لقد جدت بالدعاء إلى الله تعالى آناء الليل وأطراف النهـار، وبقلبها الرقيق الخاشع أخذت تناجي الله في اللـيلة الظلماء داعيـة الحي القيوم أن يرد على ابنهـا بصره، وفي إحدى الليالي وعندما كانت نائمة إذا بها ترى فيما يرى النائم الخليل إبراهيم عليه السلام يقول لها :(يا هذه قـد ردَّ الله على ابنك بـصـره بـكـثرة دعائك له).

وفي الصباح قامت تنظر إلى ابنها وتحدثه لترى صدق ما رأت . يا للفرحة تعمر قلبها فقد تحقق حلمهـا ورجع ابنها بصيرًا، وبدأ رحلته في طلب العلم وأول ما ابتدأ بالحج إلى بيت الله الحرام فاصطحب أمه وأخاه مـعه، وأخذ ينتقل من قطر إلى آخر يعرض نفسـه للمخاطر والمشقة في سـبيل تتبع رواة الحديث ومتنه، حـتى ألف كتابه المشـهور وجـمع فيـه ما صح عن رسـول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث وسـمّاه (الجـامع الصحيح المسند) الذي يعد أصح كتاب بعد كتاب الله عز وجل .

وقد كان إمامنا قوي البصر والبصيرة واسع العلم والحفظ ولديه الصبر والجلد على السفر ومتاعبه، فعندما قدم إلى بغداد وسمع به أصحاب الحديث اجتمعوا وعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها، ودفعوا إلى كل واحد منهم عشرة أحاديث ليلقيها على الإمام البخاري؛ ليمتحنوه هل يستطيع معرفة السند الصحيح من غيره أم لا ؟ واستطاع إمامنا الجليل بذكائه وحنكته أن يرد كل متن إلى إسناده حينها أقر الناس له بالحفظ وسعة العلم.

ها هو إمامنا المحدث محمد بن إسماعيل البخاري يصبح علمًا من أعلام الحديث؛ فقد قال عنه الإمام أحمد بن حنبل :(ما أخرجت خراسان مثل محمد ابن إسماعيل).

وقال عنه الإمام ابن خزيمة :(ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله ﷺ وأحفظ له من محمد بن إسماعيل البخاري).

وقد كان الإمام مسلم بن الحجاج يقول له :(دعني أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين وسيد المحدثين وطبيب الحديث في علله).

وقد كان ورعًا تقيًا يخشى الله تعالى في الحكم على الآخرين فمن نظر في كلامه في الجرح والتعديل تبين له مدى ورعه في الكلام عن الناس وكان يقول : (أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحدًا)(١).

فهذا هو الإمام البخاري العالم المحدث نموذج للعالم الرباني الذي ملأ ذكره مشارق الأرض ومغاربها كان تربية أم واعية محبة لابنها فأنشأته في رحاب كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وهذا الإمام الشافعي رحمه الله، ولد في غزة هاشم بفلسطين، ونشأ يتيمًا فقامت أمه على تربيته ؛ وانتقلت به من غزة إلى مكة المكرمة خوفًا على ضياع نسبه الشريف الذي يلتقي مع نسب الرسول ﷺ وحرصت على تعليمه القراءة والكتابة،

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢ / ٣٩١) .

ولكن لم يكن مع أمه ما تؤديه للمعلم فلما رأى المعلم من نجابته وسرعة حفظه ما دعاه إلى المسامحة بأجره على أن يخلفه إذا قام ؛ فحفظ القرآن صغيراً وكان عمره آنذاك سبع سنين، وحفظ الحديث الشريف ؛ ويقول رحمه الله عن هذه الفترة من حياته: (ثم لما خرجت من الكتَّاب كنت أتلقط الخزف والدفوف و كرب النخيل وأكتاف الجمال أكتب فيها الحديث، وقال: طلبت هذا الأمر عن خفة ذات يد ؛ كنت أجالس الناس وأسمع العلم من أفواه العلماء في المسجد الحرام حتى حفظت الموطأ وأنا ابن عشر سنين).

وعندما كبر حرص على تعلم اللغة العربية فأقام في البادية عشر سنين أجاد خلالها الآداب وحفظ الأخبار والأشعار ، وتعلم ركوب الخيل وأجاد الرمي، فكان كالشهاب الثاقب في علمه وذكائه ، وأصبح العالم الثقة الفقيه الحافظ الشاعر الفارس يشار إليه بالبنان وأصبح الفقه الشافعي مرجعًا أساسيًّا من مراجع الفقه الإسلامي. وقد أثنى عليه الإمام أحمد بن حنبل فقال : (كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن فهل ترى لهذين من خلف أو عنهما من عوض؟) .

وقال عنه الفضل بن دكين :(ما رأينا ولا سمعنا أكمل عقلاً ولا أحضر فهمًا ، ولا أجمع علمًا من الشافعي)[١].

وهذا البطل المقدام عبد الرحمن الناصر الذي ولد بقرطبة في الأندلس نشأ يتيمًا فتولت أمه تربيته حتى شبَّ قوي البأس ، شجاعًا لا يهاب المنون ؛ بويع بالخلافة بعد جده فكان أطول ملوك بني أمية في الخلافة ، حكم خمسين سنة وستة أشهر ، وقد وُلِّيَ الأندلس وهي تميد بالفتن ، وبحزمه وصرامته استقر له الحكم ، وسكنت له الأندلس وكان مولعًا بالفتوحات حيث خرج في طليعة جنده ففتح سبعين حصنًا؛ ثم أمعن في قلب فرنسا وتغلغل في سويسرا وضم أطراف إيطاليا . ترى ما سرّ عظمة هذا الرجل ؟ وهذه الهمة التي يتمتع بها ؟ إنها أمه التي تفردت بتربيته فغرست في عقله الكمال وحسن الإدارة والحكمة في تدبير الأمور [٢].

(١) الإمام الشافعي فقيه السنة الأكبر (٥٢-٣٣٨).

(٢) «الأعلام» للزركلي (٣/ ٣٢٤).

فاجتهدي أختي الأم في توجيه ولدك واحرصي على تربيته وفق تعاليم الإسلام السامية، ليأخذ مكانته بين الخلائق فيكون عالمًا رائدًا يرفع راية الحق عاليةً خفاقةً بإذن الله، وبذا تتحدي وسائل الإعلام التي تهدف إلى إفساد هذا الجيل .

وقد تتساءل بعض النساء كيف يمكن للأم التي التزمت أحكام الشرع بعد الزواج وبعد إنجاب الأبناء كيف لها أن تغير مسار حياتها وحياة الأسرة كلها ؟

ومن المعلوم أن الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، والتدرج في التغيير ، واللجوء إلى الله تعالى ، وحسن التوكل عليه، كلها وسائل تجعل الأم قادرة على التغيير بعد أن تكون هي القدوة الأولى لأبنائها بتطبيقها لأحكام الشرع الإسلامي في سلوكها وتعاملها معهم في جميع جوانب الحياة .

والمرأة الحكيمة لن تعدم وسيلة أو أسلوبًا في إقناع زوجها بصحة المنهج الإسلامي، وبالحلم والأناة، والصبر والرفق القائم على احترام وتقدير الزوج تصل إلى ما تتمنى . وحتى تكوني أختاه على يقين بأن الله تعالى يستجيب لعباده المخلصين، اقرأي معي قصة الرميصاء بنت ملحان - أم سُلَيم - : (عندما آمنت بالله ورسوله فجاء أبو أنس - زوجها - وكان غائبًا فقال لها : أصبوت ؟ فقالت : ما صبوت ولكني آمنت وجعلت تلقن ولدها أنس قل: لا إله إلا الله، قل: أشهد أن محمدًا رسول الله ففعل، فيقول لها أبوه لا تفسدي عليَّ ولدي فتقول : لا أفسده ولكني أعلمه فخرج مالك - زوجها - فلقيه عدو له فقتله فقالت : لا جرم لا أفطم أنسًا حتى يدع الثدي ولا أتزوج حتى يأمرني أنس ﷺ . فخطبها أبو طلحة وكان يومئذ مشرك فأبت فخطبها ثانية فقالت له : إن تابعتني وآمنت بالله ورسوله تزوجتك، فقال : فأنا على مثل ما أنت عليه فتزوجته وكان مهرها الإسلام فكان أكرم مهر في التاريخ . فلك أيتها الأم في هذه الصحابية الجليلة أسوة حسنة واعلمي أنك إذا اتبعت كتاب الله وسنة رسوله فإنك ستكونين قادرة على إنشاء البيت المسلم الذي سيكون مثالاً يحتذى بصفاته وملامحه الوضاءة وهي:

١- البيت المسلم شعاره تطبيق كـتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؛ ليصبح الإسلام منهجًا وحقائق تراها الأعين وتلمسها الأيدي .

٢- البيت المسلم منارة علم وفـقه يقصده التـائهون في بيداء الظلمات؛ ليـهتدوا بهديه فيسيروا على نهجه .

٣- البيت المسلم يقوم على التقوى فالرجل فيه هو عماد الأسرة والزوجة حارسه الأمين، وهذا البيت بعـيد عن الكسب الحرام فكل فرد من أفـراده نما من كسب المال الحلال .

٤- البـيت المسلم منبع لمكارم الأخـلاق؛ فـهو منـبع الفضـائل، من التـواضع والتسامح والتـعاون وبابه مفتوح للتـوجيه والإرشاد، ومن قصده طالبًـا العون نال ما أراد فهو مركز لإصلاح أحوال الناس الاجتماعية .

٥- البيت المسلم يحرص جميع أفراده على التمـيز بالهوية الإسلامية في ملبسهم ومأكلهم وتعاملهم مع الآخرين، فلا تقليد لخطوط الموضة ودور الأزياء التي تأتينا من بلاد الغرب، ويمتـاز البيت المسلم بنظافـته وترتيبـه ومواكبـته لمظاهر التـقدم والتطور التكنولوجي ؛ وهذا لايعني المبـالغة في الأثاث والإكثار من الزينة التي لا مـعنى لها سوى إهدار المال في غير فائدة وفي المقـابل؛ هناك من لايكترث بتحسين أثاث البيت وترتيبه بحجة أن ديننا يأمر بالزهد وعدم التمسك بزينة الحياة الدنيا، ويجب أن نعيش على البساطة ولا نهتم بمظاهر الحضـارة المادية ؛ والصحيح أن الإسلام لا يمنع المسلم من مواكبة التطور إذا كان في حدود الشرع وفي حدود قدرته الماليه .

٦- البيت المسلم فيه وعي سياسـي لما يدور على الساحة من أحداث وفيه إدراك لما يحدث من تغيرات في طبيعة الحياة الاجتمـاعية، فهو متيقظ لما يبثه أعداء الإسلام من أفكار هدفها تقويض أركان النظام الاجتماعـي المتمثل بقلعته المنيعة وهي الأسرة المسلمة .

٧- البـيت المسلم شـعاره العـمل لتـمكين دين الله في الأرض، ولكن بهـدوء وصمت بعيدًا عن التباهي أمام الآخرين بما يقوم به لخدمة الإسلام والمسلمين .

٨- البيت المسلم يحرص جميع أفراده على كتم أسرار الأسرة، فلا تذاع أخبارهم على الملأ، ففي فترة من الزمن كانت النساء لعدم وعيهن بما يكاد لرجال المسلمين تتحدث عن نشاط زوجها أو ابنها من باب الرضى والمفاخرة بما يصنع، فكان ذلك سببًا في تعرضهم للتحقيق والسؤال وأحيانًا للسجن والتعذيب ؛ فعلى الزوجة أن تبتعد عن الثرثرة والخوض فيما لا يعنيها؛ لأن من كثر كلامه كثر سقطه .

٩- البيت المسلم يعيش فيه الجميع بأمان واطمئنان فالزوج مخلص في عمله حريص على القيام بكل واجباته . يملأ قلبه الإباء والشموخ وهو رجل يؤمن بأن الله هو الرازق المانع، فلا يجزع ولا ينهزم أمام المحن، بل يقف صامدًا شامخًا كالجبال الراسيات، فهو صاحب همة عالية . كما قال الشاعر :

أَنَا إِنْ عِشْتُ لَسْتُ أَعدم قُوتًا وإذا مِتُّ لَسْتُ أعدم قَبْرًا
وإِذَا مَا قَنِعْتُ بالقُوت عُمْري فلماذا أَهَابُ زَيْدًا أو عَمْرًا
هِمَّتي هِمَّةُ المُلوكِ وَنَفْسِي نَفْس حُرٍّ تَرَى المَذَلَّةَ كُفْرًا

الفصل السابع عشر
المرونة في العلاقات الأسرية

إن الإنسان مخلوق اجتماعي يعيش في وسط اجتماعي، يتأثر بمن حوله ويؤثر فيهم، وأثناء هذه التفاعلات الاجتماعية قد تحدث بعض الأمور التي تعكر صفو الحياة، وسوف نتناول في هذا الفصل علاقة الزوجين بكل من الأبوين والجيران؛ وذلك لما لهاتين العلاقتين من خصوصية .

أولاً: علاقة الزوجين بالوالدين:

وأعني هنا: والدي الزوج، إن هذه العلاقة من منظور الإسلام لابد وأن تكون علاقة حميمة؛ لأنهم يرتبطون فيما بينهم بوشائج الألفة والمحبة والمودة، ولكن هذه العلاقة كثيرًا ما يعتريها الفتور، وخاصة بعد زواج الابن، فتحدث في بعض الأحيان مشاحنات بين الزوجة وأم زوجها لأسباب تكون في كثير من الأحيان تافهة، ولهذه الزوجة أهمس في أذنها،وأقول: عليك بمعاملة أم زوجك كما تعاملين أمك، واعلمي أيتها الزوجة أنك في يوم من الأيام سيكون لك أبناء، وكما تعاملين أم زوجك سوف يعاملك أبناؤك، وكما قال النبي ﷺ : «**البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، اعمل ما شئت؛ كما تدين تدان**»(١) .

واعلمي أيتها الزوجة الوفية لزوجها أن إحسانك لأم زوجك وأبيه سوف يجعل مكانتك في قلب زوجك عالية، وسوف تزداد محبته لك، وخاصة إذا كان زوجك بارًا بأبويه.

كما ينبغي للزوجة الذكية ألا تحاول أن تقحم زوجها في كل خلاف يحدث بينها وبين والديه؛ فإن مقابلة السيئة بالحسنة تؤلف القلوب وتزرع المحبة والمودة في النفوس، ولكن الطامة الكبرى والبلية العظمى أن يكون الزوج هو سبب المشاكل مع أبويه ويعمل على تفضيل زوجته على أمه، فتغضب عليه فيدخله الله عز وجل النار؛

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه عن أبي قُلابة بلفظ قريب .

فعن أبي هريرة قال: قال ﷺ : «**رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه**». قيل: من يارسول الله؟! قال: «**من أدرك والديه عند الكبر، أحدهما أو كليهما، ثم لم يدخل الجنة**»رواه مسلم .

ولهذا الزوج وأمثاله ممن قست قلوبهم وعميت بصائرهم أسوق لهم هذه القصة التي حدثت في عصر النبوة؛ كي تكون رادعًا لمن تسول له نفسه بتفضيل زوجته على أمه في المعاملة والإنفاق؛ ففي السنة أن علقمة كان يعاني سكرات الموت وأصحابه يلقنونه الشهادة؛ فلا ينطق بها لسان، فأخبروا الرسول ﷺ بخبره فسأل أمه عنه، فذكرت صومه وصلاته وعبادته، فقال ﷺ : «**ما عن هذا سألتك؛ ولكن كيف بره بك؟**»، فقالت: يا رسول، إني عليه ساخطة واجدة! فقال ﷺ : «**ايتوني بحطب أحرقه**»- وكان ﷺ يريد أن يحرك فيها عاطفة الإحسان والغفران؛ فقالت: ابني وحشاشة قلبي، تحرقه يا رسول الله؟! فبين لها أن النار مثواه إلا أن ترضى عنه، فأشهدتن من فورها أنها عفت عنه، فعاد الصحابة ﷺ إلى علقمة، فسمعوه يفيض بالشهادتين لسانه».

من أجل ذلك وصى الرسول بالأم ثلاثًا وبالأب مرة واحدة، جاء في صحيح البخاري: (أن صحابيًا سأل رسول الله ﷺ : من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من ؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**»).

والمتأمل في كتاب الله عز وجل يجد أن الله سبحانه وتعالى قرن في كثير من الآيات الكريمة عبادته بالإحسان إلى الوالدين؛ ليؤكد لنا أهمية طاعة الوالدين، قال تباركت أسماؤه: ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾ (النساء: ٣٦).

وقال جلت قدرته: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾ (الإسراء: ٢٣)

بل لقد جعل الله عز وجل شكر الشاكرين لأنعمه لا يتم على خير وجوهه حتى يمازجه شكر الوالدين؛ فقال عز من قائل: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ**﴾ (لقمان: ١٤)، وعن

عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ من أبرِّ البِرِ صِلةُ الرجل أهلَ وُدِّ أبيه**» رواه مسلم .

وينبغي عليك أيها الزوج المسلم وأنت تريد بناء بيت سعيد أن تبذل مالك لأبويك بسخاء وعن طيب نفس؛ فإن فعلت ذلك فسيعود عليك بالنفع العاجل والآجل، وإياك أن تكون كذلك الشاب الذي بخل بماله على أبيه؛ فعن عطاء، عن عائشة رضي الله عنها: (أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ يخاصم أباه في دين عليه، فقال رسول الله ﷺ : «**أنت ومالك لأبيك**») رواه ابن حبان .

قال أبو حاتم: معناه أنه زجر عن معاملته أباه بما يعامل به الأجنبيين، وأمره ببره والرفق به في القول والفعل معًا، إلى أن يصل إليه ماله، فقال له: أنت ومالك لأبيك وقال أمية بن أبي الصلت أبياتًا من الشعر يعتب فيها على ابنه العاق؛ فأنشأ يقول:

غَذَوتُكَ مَولُوداً ومنتك يَافِعًا
تَعِلُّ بِما أُجْني عَلَيك وتَنْهَلُ
إذا ليلةٌ ضَافَتْكَ بالسَّقَمِ لَمْ أَبِتْ
لِسَقَمِكَ إلا سَاهِراً أتَمَلْمَلُ
كَأَنِّي أنا المَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذي
طرقت به دُوني فَعَيْنَايَ تَهْمَلُ
تَخَاف الرَّدَى نَفْسِي عَلَيْكَ وإنَّها
لَتَعْلَمُ أنَّ المَوْتَ وَقْتٌ مُؤَجَّلُ
فلَمَّا بَلَغْتَ السِّنَّ والغَايةَ الَّتِي
إِلَيْهَا مَدَى مَا فِيكَ كُنْتُ أُؤَمِّلُ
جَعَلْتَ جَزَائِي غِلْظَةً وفَظَاظَةً
كَأنَّكَ أنتَ المُنْعِمُ المُتَفَضِّلُ

فَلَيْتَكَ إذْ لَمْ تَرْعَ حَقَّ أُبُوَّتِي
فَعَلْتَ كَمَا الجَارُ المُجَاوِرُ يَفْعَلُ
تَرَاهُ مُعَدًّا لِلْخِلافِ كَأَنَّهُ
بِرَدٍّ على أهلِ الصَّوابِ مُوَكَّلُ(١)

وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: (جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أبي اجتاح مالي! فقال: **«أنت ومالك لأبيك»**) رواه ابن ماجه .

وقال رسول الله ﷺ : **«إن أولادكم من أطيب كسبكم؛ فكلوا من أموالهم»** رواه ابن ماجه .

واعلم أيها الابن أن صنيعك بأبيك غرس يؤتي أكله غدًا عسلاً رضابًا أو علقمًا وصابًا حينما يجزيك ابنك بما عملت بأبيك، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«بروا آباءكم تبركم أبناؤكم، وعفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم»** رواه الطبراني بإسناد حسن.

وفي واقع الحياة شاهد ذلك ودليله؛ فانظر في نفسك وفيما حولك، عن سالم ابن عبد الله عمي عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : **«ثلاثة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمرأة المترجلة، والديوث، وثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والمدمن على الخمر، والمنان بما أعطى»** رواه النسائي . واعلم أنك مهما فعلت مع والدك لن تستطيع أن توفيه حقه عليك إلا أن تجده مملوكًا فتعتقه. عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ : **«لا يجزي ولدٌ والدًا إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه»** رواه مسلم.

وهذه أبيات في الإحسان إلى الأم، قال الحكيم:

لأُمِّكَ حَقٌّ لَو عَلِمْتَ كَثِيرُ
كَثِيرُكَ يَا هَذَا لَدَيهِ يَسِيرُ

---

(١) «الأغاني» (ج٤ / ١٣٣) للأصفهاني .

فَكَم لَيْلَةٍ بَاتَتْ بِثِقْلِكَ تَشْتَكِي
لَهَا من جَواها أَنَّةٌ وزَفِيرُ
وفي الوضع لو تدري عليها مشقة
فمن غُصَصٍ منها الفُؤادُ يطيرُ
وكم غسلت عنك الأذى بِيَمِينِها
وما حِجرُها إلا لَديكَ سَرِيرُ
وَتفْدِيكَ بما تَشْتَكِيه بِنَفْسِها
ومن ثديها شَرْبٌ لديك نميرُ
وكم مرةٍ جاعت وأعطتْكَ قُوتَها
حنانًا و إشْفاقًا وأنتَ صَغِيرُ
فَآهًا لذي عقلٍ ويَتَّبِعُ الهَوَى
وآهًا لأعمى القلب وهو بصيرُ
فَدُونَك فَارْغَبْ في عَمِيمْ دعائِها
فأنت لما تدعو إليه فقير

ثانيًا: العلاقة مع الجيران:

وقبل الحديث عن علاقة الزوجين بالجيران نذكر ما ورد في القرآن والسنة في شأن الوصية بالجار يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾(النساء: ٣٦)

وقال ﷺ: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**»رواه مسلم (٢٦٢٥).

وقسم رسول الله ﷺ الحقوق للجيران؛ فجعل لجار ثلاثة حقوق؛ وهو جارك

ذو القرابة المسلم؛ فله حق القرابة وحق الجوار وحق الإسلام، وجعل لجار حقين؛ وهو جارك المسلم؛ فله حق الجوار وحق الإسلام، وجعل لجار حقًّا واحدًا، وهو جارك غير المسلم؛ له حق الجوار، وقال ﷺ في حديثه الجامع: «**من أغلق بابه دون جاره مخافة على أهله وماله فليس بمؤمن، وليس بمؤمن من لم يأمن جاره بوائقه** -أي: غشمه وظلمه- **أتدري ما حق الجار؟ إذا استعانك أعنته، وإذا استقرضك أقرضته، وإذا افتقر عدت عليه، وإذا مرض عدته، وإذا أصابه خير هنأته، وإذا أصابته مصيبة عزيته، وإذا مات اتبعت جنازته، ولا تستطل عليه بالبنيات؛ فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذيه بقتار ريح قدرك إلا أن تغرف له منها، وإذا اشتريت فاكهة فأهد له؛ فإن لم تفعل فأدخلها سرًّا، ولا يخرج بها ولدك فيغيظ بها ولده**» رواه الطبراني .

كانت تلك وصية الرسول بالجار؛ فيجب على الإنسان المسلم الذي يتطلع لبناء بيت سعيد أن يحسن إلى جاره، ويغض الطرف عن زوجه وبناته؛ فهذا عنترة العبسي الذي لم يتأدب بأدب الإسلام يقول:

وأغضُّ الطَّرْفَ إن بَدَتْ لي جَارتي
حتى يُوَارِي جارَتي مخبَاها

ويقول مسكين الدارمي:

نَارِي ونارُ الجارِ واحدَةٌ
وإليه قَبْلِي تَنْزِلُ القِدرُ
ما ضَرَّ جارٌ أجاوِرُهُ
ألا يكونَ لبابِه سِتَرُ
أغضي إذا ما جارتي برزت
حتى يواري جارتي الخدر

فعليك أيها الزوج المسلم أن تكف أذاك عن جارك وإن كان ذميًا، فقد روي عن سهل بن عبد الله التستري -رحمه الله-: (أنه كان له جار ذمي، و كان قد انبثق من

كنيفه إلى بيت في دار سهل بثق، فكان سهل يضع كل يوم الجفنة تحت ذلك البثق، فيجتمع ما يسقط فيه من كنيف المجوسي ويطرحه بالليل حيث لا يراه أحد، فمكث- رحمه الله- على هذه الحال زمانًا طويلاً إلى أن حضرت سهلاً الوفاة، فاستدعى جاره المجوسي، وقال له: ادخل ذلك البيت وانظر ما فيه، فدخل فرأى ذلك البثق والقذر يسقط منه في الجفنة، فقال: ما هذا الذي أرى؟! قال سهل: هذا منذ زمان طويل يسقط من دارك إلى هذا البيت، وأنا أتلقاه بالنهار وألقيه بالليل، ولولا أنه حضرني أجلي، وأنا أخاف ألا تتسع أخلاق غيري لذلك، وإلا لم أخبرك؛ فافعل ما ترى. فقال المجوسي: أيها الشيخ، أنت تعاملني بهذه المعاملة منذ زمان طويل، وأنا مقيم على كفري! مد يدك؛ فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله! ثم مات سهل رحمه الله)[1].

ونصيحتي لك ألا ترفع صوت المذياع أو التلفاز حتى لا تزعجه، وعليك أن تتفقده ما بين الفينة والفينة؛ فإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته، ولا تنشر له عيبًا، ولا تفش له سرًا، ولا تسيء به ظنًا، وأن تكون معه ودودًا كريمًا، لا تبخل عليه بمالك، ولا تحرمه من معروفك ونوالك؛ فإن فعلت ذلك نرجو لك أن تكون: ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾(النساء: ٦٩).

وأختم هذا الفصل بقول الحكيم:

ونكرمُ جارنا ما دامَ فينا
ونُتْبِعُهُ الكرامةَ حيثُ مالاَ

(١) «الكبائر للذهبي» (ص٢٠٧).

▪ الفصل الثامن عشر ▪
نصائح لكلا الزوجين

النصيحة الأولى:

احذري أيتها الزوجة المسلمة من وصف النسوة اللاتي تعرفينهن لزوجك؛ لأن ذلك قد يؤدي إلى تعلق زوجك بإحداهن، فيعمل على محاولة الاتصال بها، سواء كان ذلك بطريقة مشروعة أم لا، ونظرًا لخطورة ذلك على الحياة الزوجية فقد قال ﷺ فيما أخرجه البخاري: «**لا تباشر المرأةُ المرأةَ؛ فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها**».

النصيحة الثانية:

الحذر الحذر أيها الزوج من التساهل في دخول الأقارب والأصدقاء على أهلك ومجالستهن ثقة فيهم؛ فهذا يؤدي إلى أكثر الفتن التي تؤدي إلى زعزعة أركان الأسرة وتصديع بنيانها.

لهذا وغيره قال ﷺ كما ورد في الصحيحين: («**إياكم والدخول على النساء!**» فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت الحمو؟ قال: «**الحمو الموت!**») والحمو: هو أخو الزوج أو قريبه.

ولقد شبهه الرسول ﷺ بالموت؛ لأن دخوله كالموت يسبب الهلاك، وهذا ما نقرأه من الحوادث الأليمة التي تدمي القلوب، فهذا يرتكب الفاحشة مع زوجة أخيه، وذاك مع زوجة خاله، وآخر مع زوجة عمه؛ فانتشر الفساد وعم البلاء، وذلك سببه كله راجع إلى تساهل الأزواج في دخول غير المحارم على أزواجهم .

النصيحة الثالثة:

إياك أيها الزوج المسلم وإياك أيتها الزوجة المسلمة من إفشاء سر الزوجية؛ لأن ذلك يكون سببًا في غضب الله عز وجل والاحتقار من قبل الناس، روى مسلم وأبو داود وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من أشرِّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه، ثم ينشر أحدهما سرَّ صاحبه**».

النصيحة الرابعة:

احذري أيتها الزوجة المسلمة من عدم استجابتك لدعوة زوجك لفراشه؛ لأن ذلك

يعرض البناء الأسرى لمعاول الهدم والتصدع، والغضب من الله عز وجل واللعنة من الملائكة لمن تفعل ذلك، قال ﷺ : «**والذي نفسي بيده، ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه؛ إلا كان الذي في السماء ساخطًا عليها حتى يرضى عنها**» رواه مسلم.

وقال ﷺ أيضًا: «**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأته فبات غضبان عليها؛ لعنتها الملائكة حتى تصبح**» رواه البخاري .

وقال ﷺ : «**إذا دعا الرجل زوجته لحاجته فلتأته وإن كانت على التنور**»، والتنور الذي يخبز فيه، أخرجه الترمذي

النصيحة الخامسة :

إياك أيها الزوج المسلم من الإفراط أو التفريط في الغيرة؛ فكلاهما مذموم، لابد أن تقوم العلاقة بين الزوجين على أساس من الثقة المتبادلة بين الطرفين؛ حتى تسير حياتهما معًا في هدوء وانسجام؛ فلا يترك أحدهما لظنونه العنان، ولا يتجسس أحدهما على الآخر، ولا يبالغ في الغيرة؛ لأن كل هذا مما يؤدي إلى انفصام عرى المحبة، ويعكر صفو الحياة، والغيرة المعتدلة هي التي تزيد من المحبة والود وتشعر الآخر بأنه موضع اهتمام وعناية.

قال ﷺ : «**إنَّ من الغيرةِ ما يحبهُ الله ومنها ما يبغضهُ الله، ومِن الخيلاءِ ما يحبهُ الله ومنها ما يبغضه الله؛ فأما الغيرة التي يحبها الله فالغيرة في الريبة؛ والغيرة التي يبغضها الله فالغيرة في غير ريبة، والاختيال الذي يحبه الله اختيال الرجل بنفسه عند القتال وعند الصدقة، والاختيال الذي يبغضه الله: الاختيال في الباطلِ**» رواه أبو داود والنسائي وابن حبّان .

النصيحة السادسة:

عليك أيتها الزوجة المسلمة احترام مشاعر زوجك ومشاركته في وجدانه وأحاسيسه، تخيري من الأقوال والأفعال ما لا يجرح شعوره أو يسبب له إحراجًا، وعليك أن تشعريه بأنك تحبينه وتعتزين به، وإذا تجاوزت في ذلك بعض الصدق؛ فلا ضرر من أجل الحفاظ على الانسجام وتقوية أواصر الزوجية .

روى البخاري ومسلم عن أم كلثوم رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ

يقول: («ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً» قال ابن شهاب: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث يعني: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته والمرأة زوجها) . فهذا حديث صحيح في إباحة تجاوز بعض الصدق بين الزوجين لأجل المصلحة .

النصيحة السابعة :

عليك أيها الزوج المسلم أن تتزين لزوجتك كما تحب أن تتزين لك، واعلم أن نظافتك لا تقتصر على الشكل الخارجي فحسب؛ بل تشمل كذلك الأعضاء الداخلية، روى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: **«عشر من الفطْرَة: قصُّ الشارب، وإعفاءُ اللحية، والسِّواك، واستنشاقِ الماء، وقصُّ الأظافر، وغسلُ البَرَاجِمِ، ونتف الإبط، وحلْقِ العَانة، وانتقاص الماء»**.

بل إن نظافة الزوج وعنايته بمظهره له أكبر الأثر في نفس الزوجة، وإهمالها يكون سببًا في نفورها منه، والدليل على ذلك الرواية الآتية :

روي أنه: «دخل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه -وكان خليفة المسلمين- زوج أغبر ومعه امرأته وهي تقول: لا أنا لا هذا -تريد الطلاق- يا أمير المؤمنين! فعرف كراهية المرأة لزوجها فأرسل الزوج ليستحم ويأخذ من شعر رأسه ويقلم أظافره، فلما حضر أمره أن يتقدم من زوجته، فاستغربته ونفرت منه ثم عرفته، فقبلت به ورجعت عن دعواها؛ فقال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: وهكذا فاصنعوا لهن؛ فوالله إنهن ليحببن أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزينَّ لكم».

النصيحة الثامنة :

عليك أيها الزوج المسلم أن تحسن الحديث مع زوجتك، فتكلمها بأسلوب رقيق مهذب؛ فالكلمة الطيبة لها أثر طيب في النفس والوجدان، استمع لنصيحتها وقدر رأيها وضعه موضع التنفيذ -إن كان سليمًا- ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة فقد أخذ برأي زوجه أم سلمة رضي الله عنها يوم الحديبية؛ فكان في هذا صلاح المسلمين وسلامتهم .

النصيحة التاسعة:

عليك أيها الزوج المسلم بعدم كراهيتك لزوجتك لتصرف صدر منها، ولكن عليك بالحلم، قال ﷺ: **«لا يفرك مؤمن مؤمنة؛ إن كره منها خلقًا رضي منها بآخر»** رواه مسلم.

روي: (أن رجلاً جاء إلى عمر رضي الله عنه يشكو خلق زوجته، فوقف على بابه ينتظر خروجه، فسمع امرأة عمر تستطيل عليه بلسانها وتخاصمه وعمر ساكت لا يرد عليها، فانصرف الرجل راجعًا وقال: إن كان هذا حال عمر مع شدته وصلابته وهو أمير المؤمنين؛ فكيف حالي؟! وخرج عمر فرآه موليًا عن بابه. فناداه وقال: ما حاجتك أيها الرجل؟ فقال: أمير المؤمنين، جئت أشكو إليك سوء خلق امرأتي واستطالتها عليّ، فسمعت زوجتك كذلك! فرجعت وقلت: إذا كان ذلك هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته فكيف حالي؟! فقال عمر: يا أخي، إني أحتملها لحقوق لها عليّ، إنها الطباخة لطعامي، خبازة لخبزي، غسالة لثيابي، مرضعة لولدي، وليس ذلك كله بواجب عليها، ويسكن قلبي بها عن الحرام؛ فأنا أحتملها لذلك. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، وكذلك زوجتي. قال عمر: فاحتملها يا أخي؛ فإنما هي مدة يسيرة).

النصيحة العاشرة:

عليك أيتها الزوجة المسلمة أن تكوني وفية لزوجك، ومن وفاء الزوجية ألا تفارق زوجها إن أصابته ضراء في ماله أو بدنه، وأن تظل تقاسمه الحياة في مرها كما قاسمته إياها في حلوها، وقد قيل: خير النساء الباقية على بعلها؛ فهي تؤثر راحة زوجها على راحة نفسها[1].

ويحكي لنا التاريخ: (أن أعرابيًا من بني عَذرة شكا إلى معاوية بن أبي سفيان عامله مروان بالمدينة؛ لرغبته في التفريق بينه وبين زوجته على رغمها؛ لفقر نزل به بعد عز، ولرغبته في أن يتزوج منها لمكانتها من الجمال، فلما حضرت أمام معاوية قال لزوجها -مازحًا-: فخيِّرها بيننا، فقال الزوج في ثقة من زوجته: ذلك إليك يا

(١) «حقوق المرأة المسلمة في المجتمع الإسلامي» لمصطفى إسماعيل بغدادي (ص٢٦٠).

أمير المؤمنين فتحول معاوية نحوها وقال لها: يا سُعْدى، أينًا أحب إليك أمير المؤمنين في عزه وشرفه أم مروان بن الحكم في غضبه أم هذا الأعرابي في جوعه وإطماره؟ فأشارت الجارية إلى ابن عمها الأعرابي -زوجها- وأنشدت تقول:

هذا وإن كان في جوعٍ وإطمار
أعزُّ عندي من أهْلِي ومن مَالِي
وصاحبُ التَّاجِ أو مروان عامله
وكل ذي درهم منهم ودينارِ

ثم قالت: لست والله يا أمير المؤمنين، لقد كانت لي معه عيشة راضية، وأنا أحق بالصبر معه على الضراء والسراء وعلى الشدة والرخاء وعلى العافية والبلاء. فأعجب معاوية بعقلها وكمالها ومروءتها).

النصيحة الحادية عشر:

ونذكر فيها الزوج المسلم بالعفو عن زوجته، وذلك إن صدر منها ما يسيء إليه، والعفو من شيم الكرام، روى الإمام الغزالي: (أن ميمون بن مهران جاءته جارية له بطعام ساخن فوقع إناء الطعام من يدها، فأصاب سيدها شيء منه، فقال لها - غاضبًا-: أحرقتيني! فأجابته: يا معلم الخير ومؤدب الناس، ارجع إلى ما قاله الله تعالى فقال: وما قال الله تعالى؟ قالت: لقد قال: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾(آل عمران: ١٣٤). فقال: كظمت غيظي . قالت: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾(آل عمران: ١٣٤). قال: عفوت عنك. قالت: زد؛ فإن الله يقول: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤)، قال: أنت حرة لوجه الله عز وجل) .

فإذا كان هذا الرجل التقي قد عفا عن جاريته؛ فمن باب أولى أن يعفو الزوج عن زوجته المؤمنة أم أولاده .

النصيحة الثانية عشر:

عليك أيها الزوج عدم تهديد زوجتك بالطلاق لشيء حدث بينك وبينها، ولا تجعل كلمة الطلاق تجري على لسانك، كما نرى بعض السفهاء يفعلون ذلك، فيقع منك الطلاق وأنت لا تدري وتعيش مع زوجتك في الحرام، واعلم أن الصلة التي

بينك وبين زوجتك من أقدس الصلات وأوثقها، وسماه الله بالميثاق الغليظ، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾(النساء: ٢١).

وإذا كانت العلاقة بين الزوجين هكذا موثقة مؤكدة؛ فإنه لا ينبغي الإخلال بها ولا التهوين من شأنها، فهو بغيض إلى الإسلام؛ لفوات المنافع وذهاب مصالح كل من الزوجين، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق**» رواه أبو داود، والحاكم وصححه.

ونصيحتي إليك أيتها الزوجة ألا تسألي زوجك الطلاق من غير سبب؛ لأن ذلك يحرمك من دخول الجنة.

فعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أيما امرأة سألت زوجها طلاقًا من غير بأس؛ فحرام عليها رائحة الجنة**» رواه أصحاب السنن، وحسنه الترمذي.

وليعلم كلا الزوجين أن الطلاق يهدم كيان الأسرة، ويكون سببًا في تشريد الأبناء، وكثير من حوادث الأحداث تقع بين الأبناء الذين طلقت أمهاتهم؛ لأنهم بلا أب يرعاهم ولا أم تقوم على شؤونهم، كما كانت تفعل معهم عندما كانت مع أبيهم.

النصيحة الثالثة عشر:

وإليك أيتها الأخت المؤمنة هذه الوصية الشاملة الجامعة التي أوصت بها أمامة بنت الحارث ابنتها أم إياس عند الزواج؛ فإن عملت بها فسيصبح بيتك سعيدًا يرفرف عليه الحب والود والوئام:

أي بنية، إنك فارقت الجو الذي منه خرجت وخلفت العش الذي فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا؛ فكوني له أمة يكن لك عبدًا وشيكًا، أي بنية، احملي عني عشر خصال تكن لك ذخرًا وذكرًا الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموقع أنفه؛ فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح، والكحل أحسن الحسن، والماء الطيب المفقود، والتعهد لوقت طعامه، والهدوء عند منامه؛ فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة، والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله؛ فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير والإرعاء على العيال والحشم [illegible] سرًّا، ولا تعصي له أمرًا؛ فإنك إن أفشيت سره

لم تأمني غدره، وإن عصيت أمـره أوغرت صدره، ثم اتقي من ذلك الفرح بين يديه إن كان ترحًـا، والاكتئـاب عنده إن كان فرحًـا؛ فإن الخصـلة الأولى من التقصـير، والثانية من التكدير، وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا يكن أشد ما يكون لك إكرامًا، وأشد مـا تكونين له مـوافقـة، يكون أطول ما تكونين له مـرافقـة، واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحتاجين حتى تؤثري رضاه على رضـاك، وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت، والله يخير لك .

فأين نساؤنا من هذه الوصية؟!

وهذه وصية أب لابنته:

فقـد أوصى أبو الأسود الـدؤلي ابنته فـقال لهـا: إياك والغيـرة؛ فإنهـا مفـتاح الطلاق، وعليك بالزينة، وأزين الزينة الكحل، وعليك بأطيب الطيب إسباغ الوضوء وكوني كما قلت لأمك في بعض الأحايين:

خـذي العـفـو مني تَسـتَـديمي مَـودَّتي
ولا تـنطقِي في سَـورْتي حين أغْـضَبُ
فـإني رأيت الحبَّ في القلبِ والأذَى
إذا اجـتـمـعـا لم يلبثِ الحبُّ يَذهَبُ

وهذه أيها الزوج المخلص لزوجتـه بعضًا من تلك الوصايا التي تسـهم في إسعاد زوجك :

١- لا تُهنْ زوجـتك، فإن أي إهانة توجـههـا إليهـا، تظل راسخـة في قلبـها وعقلها. وأخطر الإهانات التي لا تستطيع زوجتك أن تغـفرها لك بقلبها، حتى ولو غفرتها لك بلسانـها، هي أن تنفعل فتضربها، أو تشتمـها أو تلعن أباها أو أمها، أو تتهمها في عرضها .

٢- أحسِنْ معاملتك لزوجتك تُحسنْ إليـك، أشعرها أنك تفضلها على نفسك، وأنك حريصٌ على إسعادها، ومحافِظ على صحتها، ومضحٍّ من أجلها، إن مرضتْ مثلاً، بما أنت عليه قادر .

٣- تذكر أن زوجتك تحب أن تجلس لتتحدث معها وإليها في كل ما يخطر ببالك

من شؤون. لا تعد إلى بيتك مقطب الوجه عابس المحيا، أخرسَ صامتًا، فإن ذلك يثير فيها القلق والشكوك!!

٤- لا تفرض على زوجتك اهتماماتك الشخصية المتعلقة بثقافتك أو تخصصك، فإن كنت أستاذًا في الفلك مثلاً فلا تتوقع أن يكون لها نفس اهتمامك بالنجوم والأفلاك !!

٥- كن مستقيمًا في حياتك، تكن هي كذلك. ففي الأثر: «عفُّوا تعف نساؤكم» رواه الطبراني. وحذار من أن تمدن عينيك إلى ما لا يحل لك، سواء كان ذلك في طريق أو أمام شاشة التلفاز، وما أسوأ ما أتت به الفضائيات من مشاكل زوجية !!

٦- إياك إياك أن تثير غيرة زوجتك، بأن تذكِّرها من حين لآخر أنك مقدم على الزواج من أخرى، أو تبدي إعجابك بإحدى النساء، فإن ذلك يطعن في قلبها في الصميم، ويقلب مودتها إلى موج من القلق والشكوك والظنون . وكثيراً ما تظهر تلك المشاعر بأعراض جسدية مختلفة، من صداع إلى آلام هنا وهناك، فإذا بالزوج يأخذ زوجته من طبيب إلى طبيب !!

٧- لا تذكِّر زوجتك بعيوب صدرت منها في مواقف معينة، ولا تعيِّرها بتلك الأخطاء والمعايب، وخاصة أمام الآخرين .

٨- عدِّل سلوكك من حين لآخر، فليس المطلوب فقط أن تقوم زوجتك بتعديل سلوكها، وتستمر أنت متشبثًا بما أنت عليه، وتجنب ما يثير غيظ زوجتك ولو كان مزاحًا.

٩- اكتسب من صفات زوجتك الحميدة، فكم من الرجال ازداد التزامًا بدينه حين رأى تمسك زوجته بقيمها الدينية والأخلاقية، وما يصدر عنها من تصرفات سامية .

١٠- الزم الهدوء ولا تغضب فالغضب أساس الشحناء والتباغض. وإن أخطأت تجاه زوجتك فاعتذر إليها، لا تنم ليلتك وأنت غاضب منها وهي حزينة باكية. تذكَّر أن ما غضبْتَ منه - في أكثر الأحوال - أمر تافه لا يستحق تعكير صفو حياتكما الزوجية، ولا يحتاج إلى كل ذلك الانفعال . استعذ بالله من الشيطان الرجيم، وهدئ ثورتك، وتذكر أن ما بينك وبين زوجتك من روابط ومحبة أسمى بكثير من أن تدنسه لحظة غضب عابرة، أو ثورة انفعال طارئة

١١- امنح زوجتك الثقة بنفسها . لا تجعلها تابعة تدور في مجرَّتك وخادمة منفِّذةً لأوامرك بل شجِّعها على أن يكون لها كيانها وتفكيرها وقرارها . استشرها في كل أمورك، وحاورها ولكن بالتي هي أحسن، خذ بقرارها عندما تعلم أنه الأصوب، وأخبرها بذلك وإن خالفتها الرأي فاصرفها إلى رأيك برفق ولباقة .

١٢- أثن على زوجتك عندما تقوم بعمل يستحق الثناء، فالرسول ﷺ يقول: «**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**» رواه الترمذي .

١٣- توقف عن توجيه التجريح والتوبيخ، ولا تقارنها بغيرها من قريباتك اللاتي تعجب بهن وتريدها أن تتخذهن مُثُلاً عليا تجري في أذيالهن، وتلهث في أعقابهن.

١٤- حاول أن توفر لها الإمكانات التي تشجعها على المثابرة وتحصيل المعارف . فإن كانت تبتغي الحصول على شهادة في فرع من فروع المعرفة فيسِّرْ لها ذلك، طالما أن ذلك الأمر لا يتعارض مع مبادئ الدين، ولا يشغلها عن التزاماتها الزوجية والبيتية. وتجاوبْ مع ما تحرزه زوجتك من نجاح فيما تقوم به

١٥- أنصتْ إلى زوجتك باهتمام، فإن ذلك يعمل على تخليصها مما ران عليها من هموم ومكبوتات، وتحاشى الإثارة والتكذيب، ولكن هناك من النساء من لا تستطيع التوقف عن الكلام، أو تصبُّ حديثها على ذم أهلك أو أقربائك، فعليك حينئذ أن تعامل الأمر بالحكمة والموعظة الحسنة

١٦- أشعر زوجتك بأنها في مأمن من أي خطر، وأنك لا يمكن أن تفرط فيها، أو أن تنفصل عنها.

١٧- أشعر زوجتك أنك كفيلٌ برعايتها اقتصاديًا مهما كانت ميسورة الحال، لا تطمع في مالٍ ورثتْهُ عن أبيها، فلا يحلُّ لك شرعًا أن تستولي على أموالها، ولا تبخل عليها بحجة أنها ثرية، فمهما كانت غنية فهي في حاجة نفسية إلى الشعور بأنك البديل الحقيقي لأبيها .

١٨- حذار من العلاقات الاجتماعية غير المباحة . فكثير من خراب البيوت الزوجية منشؤه تلك العلاقات .

١٩- وائم بين حبك لزوجك وحبك لوالديك وأهلك، فلا يطغى جانب على

جانب، ولا يسيطر حب على حساب حب آخر . فأعط كل ذي حقٍّ حقَّه بالحسنى، والقسطاس المستقيم .

٢٠- كن لزوجك كما تحب أن تكونَ هي لك في كل ميادين الحياة، فإنها تحب منك كما تحب منها . قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي».

٢١ - أعطها قسطًا وافرًا وحظًّا يسيرًا من الترفيه خارج المنزل، كلون من ألوان التغيير، وخاصة قبل أن يكون لها أطفال تشغل نفسها بهم .

٢٢- شاركها وجدانيًّا فيما تحب أن تشاركك فيه، فزر أهلها وحافظ على علاقة كلها مودة واحترام تجاه أهلها

٢٣- لا تجعلها تغار من عملك بانشغالك به أكثر من اللازم، ولا تجعله يستأثر بكل وقتك، وخاصة في إجازة الأسبوع، فلا تحرمها منك في وقت الإجازة سواء كان ذلك في البيت أم خارجه، حتى لا تشعر بالملل والسآمة .

٢٤- إذا خرجت من البيت فودعها بابتسامة وطلب الدعاء . وإذا دخلت فلا تفاجئها؛ حتى تكون متأهبة للقائك، ولئلا تكون على حال لا تحب أن تراها عليها، وخاصة إن كنت قادمًا من السفر .

٢٥- انظر معها إلى الحياة من منظار واحد . . وقد أوصى رسول الله ﷺ بالنساء بقوله: **«أرفق بالقوارير»** رواه أحمد في مسنده، وقوله : **«إنما النساء شقائق الرجال»** رواه أحمد في مسنده، و قوله : **«استوصوا بالنساء خيرًا»** رواه البخاري

٢٦-حاول أن تساعد زوجك في بعض أعمالها المنزلية، فلقد بلغ من حسن معاشرة الرسول ﷺ لنسائه التبرع بمساعدتهن في واجباتهن المنزلية . قالت عائشة رضي الله عنها: (كان ﷺ يكون في مهنة أهله -يعني خدمة أهله- فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة) رواه البخاري

٢٧- حاول أن تغض الطرف عن بعض نقائص زوجتك، وتذكر ما لها من محاسن ومكارم تغطي هذا النقص لقوله ﷺ فيما رواه مسلم: **«لا يفرك -أي: لا يبغض- مؤمنٌ مؤمنة إن كرِهَ منها خُلُقًا رضي منها آخر»**.

٢٨ - على الزوج أن يلاطف زوجته ويداعبها، وتأس برسول الله ﷺ في

ذلك : «فهلاً بِكْراً تُلاعبها وتُلاعبُك ؟» رواه البخاري، وحتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه- وهو القوي الشديد الجاد في حكمه - كان يقول : «ينبغي للرجل أن يكون في أهله كالصبي» أي: في الأنس والسهولة) فإن كان في القوم كان رجلاً .

٢٩- استمع إلى نقد زوجتك بصدر رحب، فقد كان نساء النبي ﷺ يراجعنه في الرأي، فلا يغضب منهن .

٣٠ - أحسن إلى زوجتك وأولادك، فالرسول ﷺ يقول : «خيركم خيركم لأهله» رواه الترمذي، فإن أنت أحسنت إليهم أحسنوا إليك، وبدلوا حياتك التعيسة سعادة وهناء، لا تبخل على زوجك ونفسك وأولادك، وأنفق بالمعروف، فإنفاقك على أهلك صدقة. قال ﷺ : «أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك. . .» رواه مسلم وأحمد .

وأخيراً عليك أيها الزوج المؤمن وعليك أيتها الزوجة المؤمنة بتقوى الله عزَّ وجلَّ والمحافظة على الصلوات الخمس، وبر الوالدين، وتربية أبنائكما تربية إسلامية، والتمسك بتعاليم دينكم، وعليكم بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر كل حسب استطاعته، بذلك تحققان السعادة في الدارين، فتنالا رضا ربكم، وتفوزا بجنة عرضها السموات والأرض، وصدق الله -عز وجل- إذ يقول : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ (الطور : ٢١) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

■ تم بحمد الله ■

ثبت المراجع والمصادر

■ «القرآن الكريم» .
١- «أحكام القرآن» لابن العربي .
٢- «أحكام القرآن» للجصاص .
٣- «أدب الدين والدنيا» للماوردي .
٤- «إحياء علوم الدين» للغزالي .
٥- «بداية المجتهد» لابن رشد .
٦- «بناء البيت السعيد في ضوء الإسلام» مقداد يالجن .
٧- «التذكار في أفضل الأذكار» للقرطبي .
٨- «تربية الأولاد في الإسلام» لعبد الله علوان .
٩- «تفسير الطبري» .
١٠- «تفسير القاسمي» .
١١- «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير .
١٢ - «تفسير الكشاف» للزمخشري .
١٣- «تفسير المنار» لرشيد رضا .
١٤- «التفسير المنير» لوهبة الزحيلي .
١٥- «جامع الأصول في أحاديث الرسول» .
١٦- «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي .
١٧- «الحفاظ على صحة الإنسان» لعز الدين فراج .
١٨- «حقوق المرأة المسلمة في المجتمع الإسلامي».
١٩-«سمو التشريع الإسلامي في معالجة النشوز والشقاق بين الزوجين» لكوثر كامل.
٢٠- «السنن الكبرى» للبيهقي .
٢٢- «صحيح الإمام مسلم».
٢٢- «الصحة للجميع» لإبراهيم مزنر .
٢٣- «العقد الفريد» لابن عبد ربه .
٢٤- «العلاقات الأسرية في الإسلام» لمحمد عبد السلام أبي النيل .
٢٥- «فتاوى معاصرة ماذا عن المرأة؟» ليوسف القرضاوي .
٢٦- «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» .
٢٧- «فقه السنة» للسيد سابق .
٢٨- «الفلسفة القرآنية» لعباس محمود العقاد .
٢٩- «في ظلال القرآن» لسيد قطب .
٣٠- «قبسات من حياة الرسول ﷺ» للشيخ أحمد محمد عساف .
٣١- «المشاكل الزوجية وعلاجها في ضوء الكتاب والسنة والمعارف الحديثة» لمحمد عثمان الخشت.
٣٢- «المقتني العاطر من صيد الخاطر» تهذيب أبي عبد الله الحداد .
٣٣- «نحو تربية إسلامية» لحسن الشرقاوي .
٣٤- «نظام الأسرة وحل مشكلاتها في ضوء الإسلام» لعبد الرحمن الصابوني.

الفهرس

الموضـــــــوع	الصفحة
المقـدمة	٣
تمهـيـد	٥
الفصل الأول: أسس اختـيار الزوجة	١١
الفـصل الثاني: أسس اخـتيـار الزوج	٢١
الفصل الثالث: الحقوق المتبادلة بين الزوجين	٣١
الفـصل الـرابع: ذكـر الله	٦٤
الفص الخـامس: نمـاذج للقـدوة	٦٩
الفـصل السـادس: قـوامـة الرجل	٧٧
الفـصل السـابع: الكرم وعـدم البـخل	٩٤
الفصل الثامن: قيام المرأة بواجبها نحو زوجها	٩٨
الفصل التاسع: المـودة والرحمة بين الزوجين	١٠٠
الفصل العاشر: النظافة	١٠٧
الفصل الحادي عشر: الاحترام المتبادل بين الزوجين	١١٢
الفصل الثاني عشر: تحمل المسؤولية نحو الأهل والأبناء	١١٧
الفصل الثالث عشر: المشاكل الزوجية وعلاجها	١١٩
الفصل الرابع عشر: الطلاق، متى وكيف ؟	١٥٢
الفصل الخامس عشـر: الاستئذان	١٦٣
الفصل السادس عشر : تربية الأبناء تربية حسنة	١٦٦
الفصل السابع عشـر: المرونة في العلاقات الأسرية	٢٠٥
الفصل الثامن عشر: نصائح لكلا الزوجين	٢١٢
ثبت المراجع	٢٢٣
الفـهرس	٢٢٤

السُبُلُ المُوصِلَةُ
لِسَعادَةِ الأُسْرَةِ المُسْلِمَةِ